



الدلالات المفتوحة



مقاربة سيميائية
في فلسفة العلامة

أحمد يوسف

رقعة امتحانية

الدلالات المفتوحة

مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة



الدلالات المفتوحة

مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة

د. أحمد يوسف

مدير مختبر السيميائيات وتحليل الخطابات
بجامعة وهران



المركز الثقافي العربي

منشورات الاختلاف



الدار العربية للعلوم

الطبعة الأولى
2005م - 1426هـ

ISBN 9953-29-664-2

جميع الحقوق محفوظة للناشرين

الناشرون

منشورات الاختلاف

22 شارع الأخوة مسلم الجزائر العاصمة

هاتف : 213 21 719063

فاكس : 213 21 712791

e-mail: revueikhtilaf@hotmail.com

المركز الثقافي العربي

المغرب : 42 - الشارع الملكي (الأحياس)

ص.ب : 4006 - هاتف : 2303339 - فاكس : 2305726

البريد الإلكتروني : markaz@wanadoo.net.ma

لبنان : بيروت - شارع جاندارك - بناية المقدسي

ص.ب : 5158 - 113 - هاتف : 352826 - فاكس : 343701

الدار العربية للعلوم

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف : 860138 . 785107 . 785108 (1-961)

فاكس : 786230 (1-961) ص.ب : 5574 - 13 - بيروت - لبنان

البريد الإلكتروني : bachar@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت : <http://www.asp.com.lb>

الفهرست

7	مقدمة
15	الفصل الأول: النسقية الأرسطية وتمفصلاتها
43	الفصل الثاني: السيميائيات ولغة الحساب
75	الفصل الثالث: رهان السيميائيات الحسية
89	الفصل الرابع: سيميائيات التعالي
115	الفصل الخامس: جبر العلامات والمنطق السيميائي المحايث
155	الفصل السادس: منطق المعنى ومبدأ التصديق

مقدمة

السيمبائيات بوصفها أرغانونا جديدا

بات الارتباط متينا إلى حد التطابق بين السيمبائيات والمنطق ونظرية المعرفة، وإن كان التأويل السيمبائي⁽¹⁾ للخطاب الفلسفي ذا طبيعة أكثر خصوصية وأكثر تعقيدا؛ ذلك لأن التفكير بالعلامات وحول العلامة في آن واحد ظل يشغل بال الفلسفة منذ العصور القديمة ومرورا بالعصور الوسطى والحديثة إلى أيامنا هذه. فلا يمكن أن نشك في الدعوى القائلة بأنه لا يمكن دراسة ظواهر الوعي بمعزل عن العلامات من حيث إن السيمبائيات تضطلع بعملية إضفاء الخصيصة البنوية على صور المعرفة وأشكال نظرية التعبير، بل إن البحث في قضايا علم النفس العام - التي اشترط دو سويسر حضورها في بناء المشروع السيمبائي مثل الإدراك والانتباه والإحساس - كفيل بأن يجعل الفكر قابلا للاستكشاف عن طريق الوقائع الخارجية التي تصبح موضوعات يسعى الذهن البشري إلى تمثيلها.

ومن هنا تسلم سيمبائيات شارلز سندررس بورس Ch. S. Peirce بضرورة ربط التفكير بالعلامات، وتنظر إلى التفكير على أنه علامة، وبما أن التفكير لا يمكن فصله عن اللغة فإن أوسوالد ديكرود O. Ducrot يطالب بالبحث عن منطق للغة في مقابل التخلي عن تلك الفكرة السائدة التي تطالب بالبحث عن المنطق في اللغة⁽²⁾. إن المنطق الصوري هو معرفة سيمبائية تشمل اللغات المنطقية والطبيعية؛ وإن كانت اللسانيات تسلم بأفضلية اللغة الطبيعية على بقية الأنساق السيمبائية الأخرى التي يحتذي أغلبها بالأنموذج اللساني؛ لأن اللغات الطبيعية لا تنطوي - حسب يامسليف - على أي (غائية خاصة وإلى كونها تنتج بفضل حرية القواعد 'صيغا خاطئة وغير منطقية، غامضة، بشعة ولا أخلاقية' إن اللغات الطبيعية هي مكان ميلاد المعنى)⁽³⁾. ولا يسعنا هنا إلا التفسح في القول بأنه مظهر من مظاهر

(1) Ivan Almeida, Sémiotique et textualité philosophique, in Encyclopédie philosophique universelle, Le discours philosophique v. IV, éd. puf, Paris, 1998, p. 1932.

(2) Oswald Ducrot, La Preuve et le dire, Langage et logique, éd. Maison Mame, 1973, p. 25.

(3) جوزف ري - دبروف، المتألغة: مقدمات ومعطيات أولية، تر. م. إ. ق، (م. م. س.)، ص. 73.

المنطق السيميائي الذي سيتحول مع موريس⁽⁴⁾ إلى أرغانون للعلوم من منطلق أنها تعرب عن نتائجها بعلامات لسانية تكون في النهاية ملفوظات خطابها. إن هذا الخطاب يستدعي السيميائيات نظرا لأن المفاهيم والمبادئ العامة التي لها علاقة بمشكلاتها الخالصة تندرج في إطار تحليل العلامة. ولا غرو أن نقف على أصول المصطلحات السيميائية في معيها الفلسفي والمنطقي.

لقد تعدد تعريف المنطق بتعدد المناحي الأنطولوجية والمتافيزيقية والفلسفية والعلمية إلا أنه وبمعناه الواسع - وبخاصة مسألة الاستدلال - يغدو تسمية أخرى للسيميائيات لدى بورس بينما يمثل المنطق بمفهومه الخاص مشهدا من مشاهد السيميائيات فقط؛ وإن كانت السيميائيات نظرية الخصائص الجوهرية لكل نشاط سيميائي ممكن وكذا مظاهر تنوعه. وإذا قبلنا مثل هذه المصادرة ينبغي أن يخضع المنطق ونظرية المعرفة لآليات التحليل السيميائي وبخاصة إذا تعلق الأمر بمسألة اللغة؛ حيث يرى الفارابي: (...إن نسبة المنطق إلى العقل والمعقولات كنسبة النحو إلى اللسان والألفاظ. فكل ما يعطيناه علم النحو من القوانين في الألفاظ فإن علم المنطق يعطينا نظائرها في المعقولات)⁽⁵⁾. وقد كان الفلاسفة السكولائيون سابقين إلى تحليل اللغة مشيدين طلائع نظرية لسانية واصفة للمنطق واللغة؛ وسيعرف ظهور مصطلح المنطق الواصف⁽⁶⁾ على يد ساليزبوري Salisbury عام 1159.

خص أرسطو⁽⁷⁾ في التحليلات الثانية وفي كتاب العبارة بعض الفصول للحديث عن الكلام والأفكار والأشياء والاسم والفعل والقول والعبارات البسيطة والعبارات المركبة. على الرغم من أن وقف مفهوم المنطق على أفكارنا حول الأشياء بدل الواقع ذاته قد تعرض إلى نقد شديد في العصر الحديث. وبما أن السيميائيات لغة واصفة أو قول شارح بلغة القدماء فهي تتطابق مع المنطق في

(4) C. W. Morris, Fondements de la théorie des signes, trad. F. Latraverse, in Recherches sémiotiques, RS.SI, vol. 21 (2001) N° 1-2-3, p. 70.

(5) الفارابي، إحصاء العلوم، ص. 13.

(6) ينظر جوزف ري - ديوف، المتألفة: مقدمات ومعطيات أولية، تر. م. إ. ق، مجلة العرب والفكر العالمي، ع. 8، 1989، مركز الإنماء القومي، لبنان، ص. 65.

(7) Voir Aristote, Organon, II, De l'interprétation, trad. Et not. J. Tricot, éd. Librairie philosophie J. Vrin, Paris, 1966, pp.77-86.

هذه الصفة لكونها أرغانونا حسب أرسطو أو علما حسب الدعوى الرواقية فيمكن تطبيقها على كل أنماط العلامات؛ ولهذا نعتقد أن المنطق الراصف هو الذي يرادف الجبر السيميائي من حيث إنه ينكب على بناء نظرية لتعيين الأفكار والأشياء تنضاف إلى نظريات أخرى تضطلع بالفكر والحقيقة وضبط الظواهر ضبطا فينومينولوجيا.

إن العلم هو تحويل الظواهر إلى مفاهيم والتعبير عن نتائجها عن طريق العلامات التي تغدو دلائل عندما يستخدم الاستدلال في استنباط الأحكام والبحث عن حلول للمشكلات التي تتصل بطرائق التعبير العلمي وأشكاله؛ أكثر مما هو تصور الأشياء فحسب على غرار ما يعرفه المنطق التقليدي. ولا غرو أن تضطلع السيميائيات بوظيفة الأرغانون بما كان يطالب به المنطق سابقا؛ (إلا أنه من جهة أخرى وفي الحدود التي لا يكون فيها كل علم تجريبي بجميع الاعتبارات إلا "محاولة لاكتشاف المعطيات التي يمكن استخدامها كدلائل جديدة بالثقة")⁽⁸⁾. وعليه فإن السيميائيات بوصفها مذهبا وعلما للعلامات التي تستكشفها بعض العلوم التجريبية يمكنها أن تحوز عن جدارة صفة العلم لهذه العلامات، وتنال ثقته. وأن هذا العلم حسب ما ورد في شرح إيساغوجي يبحث فيه عن الأغراض الذاتية للتصورات والتصديقات تحقيقا للمسلكية التي تسلم الباحثين إلى مدارك المجهولات والوقوف على حقائق المعقولات.

كان المنطق قانونا أو آلة من منظور المتصورات التقليدية يهتدي بها طلاب العلم ورواد الصنائع لمعرفة صحيح الفكر من فاسده؛ ولكن المناطق العرب كانوا يرون في مفهوم الآلة الجانب العملي التي تعصم العقل من الزلل في أثناء نشاطه الفكري؛ ولا غرو أن يتعامل معه على أنه علم عملي آلي لكونهم لم يكادوا يتصورون المنطق خارج طبيعته الإجرائية. بينما كانت السيميائيات المحايثة لغريماس تنظر إلى المنطق من زاوية دلالية في معالجتها لإشكالية المعنى؛ إذ قال غريماس: (يمكن تعريف المنطق في اصطلاحنا بأنه شكل المحتوى المستعمل للتحقق من الصباغات اللسانية للشكل العلمي للكون باعتباره تعبيرا (يسمي

(8) مارسيلود أسكال، الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، تر. حميد لحميداني وآخرين، دار إفريقيا للشرق، المغرب، 1989، ص. 34.

المناطقة هذا الشكل العلمي علم الدلالة)، فإن المنطق الذي نحتاج إليه في الدلالة هو نوع من علم لجبر [خاص ب] شكل التعبير اللساني، يمكننا من التحقق من تمفصلات البنية الدلالية⁽⁹⁾. ولم كان المحكي *recit* وحدة خطابية وبينه لوغارتمية من التحولات صارت المرسلات السردية تقدم مصادرات لوجود عمليات فكرية تنظم كل سير الحلقات السابقة قبل تحيينها في الخطاب. ومهمم يكن فإن المنطق السيميائي لا ينبغي فصله عن عمقه الفلسفي؛ ولعل ذلك ما نلمحه في فينومينولوجية هوسرل بعدما هجرت النزعة النفسانية، وتوسلت إلى طلب منطق جديد؛ إذ إن هذا المنطق الجديد هو شكل من أشكال الفلسفة الجديدة.

فهل بعد هذه البسطة يمكن الانتهاء إلى القول بأن السيميائيات بوصفها مرادفة للمنطق هي فلسفة جديدة للعلم والمعرفة واللغة والتقنية؟ وهل يتمخض عنها قوانين عالمية للممارسة الدلالية؟ وهل نستطيع أن نعقل الأنساق السيميائية الدالة خارج دائرة المنطق السيميائي الذي لا يكاد ينفصل عن المواضعة التي لا تخضع خضوعاً مطلقاً لمبدأ التعليل، بل يحكمها - أيضاً - مبدأ الاعتباط الناتج عن الاختيارات العامة واعتبارات العادات الثقافية؟ ثم ما هي الأسس التي قد يستند إليها هذا المنطق في تبني نظرية للحقيقة إن كان لها بيت تأوي إليه أو الاكتفاء بالبحث عن جواريتها إذا تعذر الولوج إلى مسكنها السحري؟ وإذا تم لها هذا المسعى فأى متغيرات تركز عليها في بناء الصيغ المنطقية التي تعتمد عليها في مقارنة العلاقة بين العبارة ونظرية التعبير؟ إن هذه الأسئلة كانت من مشمولات النسقية الأرسطية التي بسطها أرسطو في التحليلات الأولى، ونفسح في مسائلها في كتاب الميتافيزيقا.

تغدو إشكالية المعنى بؤرة التمكير السيميائي التي كلّت أفهام الفلاسفة، وأعيت أذهان علماء اللغة، فلم يقووا على إحصاء مناحيها إحصاء شافيا كافيا؛ ولعل الحكمة كمنة في مثل هذا التصور الفلسفي الخديج لعالم المعنى قديما وحديثا؛ لأن العلاقة بين المعنى والعلامة تكوّن مدارات السيميائيات على اختلاف

(9) أ. ج. غريماس، الشبة الدلالية، تر. أحمد الفروحي، مجلة علامات، المغرب، ع. 13، صص. 42،

اتجاهاتها. وعليه فما التدبير؟ وما الحكمة التي تحصل للمنطق في مقارنة تصورات المعنى التي يحيط بها النقصان من كل فح عميق؟ إذا طاول الخداج المعنى تساقط وهم الكمال عن بيت الحقيقة، وأصابها شقوة المصير المأساوي، ولا ملاذ لطبها إلا عند باري الكون. وذلك منتهى كل عاقل ممتلئ بالفلسفة ومؤثر للحكمة كما صاغتها عبارة فرنسيس بيكون وبورس وفيثجنشتاين وفلاسفة المسلمين وكل صاحب فطرة سليمة.

الفصل الأول

النسقية الأرسطية وتمفصلاتها

يكاد التحليل المنطقي يطبق التحليل السيميائي حسب ما ارتآه ش. س. بورس وش. و. موريس، ولهذا سنضطر اضطرارا إلى تناول - هنا - تاريخ المنطق بوصفه الوجه الغائب للسيميائيات في تاريخ الفكر لقديم من منظور أنه علم على النحو الذي طرحته الفلسفة الرواقية، وليس أرغانونا فقط كما كان يعتقد شراح أرسطو الذين نظروا إلى وظيفة المنطق على أنها فن يضطلع بتشديد القواعد العامة التي ترشد العقل حتى لا يضل عن الصواب؛ ولهذا لا ينبغي أن يحيد عنها الباحثون في مجال العلم والمعرفة.

على الرغم من أن المنطق الرياضي حطا خطوات كبيرة في إعطاء متصورات جديدة للمشروع السيميائي مع فريج وراسل وفيتجنشتاين وكارناب وغيرهم. وإذا جاز لنا القول نظرنا إلى منطق أرسطو على أنه أحد الأسس الأولى في إشارة إلى بواد ما يمكن أن نطلق عليه الآن بفلسفة اللغة دون أن نغفل المصادر السابقة التي سبقتها لدى ديمقريطس وهيرقليطس وبارميندس وسقراط وأفلاطون أمكننا فهم العلاقة الوطيدة بين السيميائيات والمنطق. إننا سنصف آثار أرسطو بالنسقية المنطقية لكونها استطاعت أن تضيئي نسقا فلسفيا ومنطقيا كاملا على مجسم المسائل التي كانت مطروحة ومطروقة قبله. فقد كانت الميوز المادية في التأملات الفلسفية الأيونية لا تصور وجود فكر بمعزل عن المعطيات الحسية، وأن أي معايينه لنتائج هذا الفكر لا تتم إلا وفق تلك المعطيات؛ ولعل في هذه المتصورات بوادر أولى للسيميائيات لحسية؛ إذ سيثيد ديمقريطس استدلالاته على أسس المعطيات اليقينية التي تمنحها لنا الخبرة. تنضاف إلى ذلك الإسهامات البرميندسية التي دعت إلى خلو أي فكر يوصف بالحقيقة من وجود تناقض داخلي فيه؛ لأن الحقيقة ينبغي لها أن تعيش حالة انسجام مع نفسها.

إذا كان المنطق في تصور أرسطو هو عملية تحليل للفكر وأشكاله أو صورته. فهل هذه الأشكال لها وجود مستقل عن صور الواقع الموضوعي نفسه؟ وإذا رمنا

إعادة صوغ هذه السؤال صوغا سيميائي هل سيتم نسق الفكر بمنأى عن العلامة الحاملة له؟ وهل يمكن مدارس العلامة بعيدا عن محمولها إذا كانت حاملا له؟ بل هل نستطيع أن نتأمل هذه العلاقة تأملا قائما على مبدأ التناظر بين دوالها ومدلولاتها؟ إن العلامة الحاملة للعكر لا وجود لها في نظر أرسطو - في غياب وجود صور حسية. ومن هنا تتأني وحدة العلاقة بين اللغة والفكر؛ ومن ثم ألفينا هذه النسقية المنطقية تخص المسألة اللغوية بمدارستها في أحد أجزاء الأرسطون الأرسطي، ونشير على وجه التحديد إلى كتابي "العبارة أو باري أرميسياس" و"الأغاليط المنطقية أو السوفسطيقا". إن العلامة بوصفها وحدة بين الدال والمدلول تصبح من زاوية المقاربة السيميائية للنسقية الأرسطية خصيصة لغوية تترتب عليها أحكاما ينظر إليها على أنها جمل شرطية تأخذ منحى افتراضيا. وعيه تغدو نظرية الأشكال اللسانية خطابا يتضمن صفتي الإثبات والنفي.

إن ما ندعوه منطقا اليوم⁽¹⁾ - في نظر كاسيرر - بوصفه مكونا أساسا ومكملا له حضور في الحدل الأفلاطوني وفي التمكير البرهاني الذي ألمح إليه - أيضا - أول مرة، وجعله بديهيا. خاض أفلاطون معركة حاسمة ضد عدمية الدليل الذي ضللت به السوفسطائية العقول، ودافع عن مشروعية العلم والحمل الذي كادت المدرسة الإيلية تعصف بهما عصفا شديدا، كما بسط الإرهاصات الأولى لمفهوم القضية. سحاول أن نتناول في هذا المبحث النسقية الأرسطية من جهة تشاكلها وتباينها، ونقف على الرواقية تحديدا على الرغم من أننا ندرك أن امتداد النسقية الأرسطية يكاد يشمل تاريخ التفكير المسمي برمته إن اتلانا وإن اختلفا.

إن موضوعات العلم في فلسفة أرسطو مجالها التصورات والمعاني العامة والكليات التي لم تتغير كثيرا لدى من جاء بعده وحتى من قبل الدين شيدوا أنساقا فلسفية كبرى مثل كانط الذي وصف المنطق الأرسطي بأنه بلغ درجة من الكمال بحيث لم تلحقه تغيرات ملحوظة؛ ولهذا يبدو تاما؛ وبخاصة عندما حدد موضوعه في العلم ودراسة الماهيات بوصفها مجموع الصفات الأساسية للكينونة، وأن الطبيعة كلها في قبضة العقل ما عدا الصدف؛ وهي عقيدة

Ernest Cassirer, Trois essais sur le symbolique, trad. Jean Carro te Joël Gaubert, Paris, éd. (1) Cerf, 1997, p. 43.

بارميندس أيضا. فالوجود موجود واللاوجود غير موجود. ومن هذا لمنطلق تلوح بارقة العقلانية في الدعوى التي فحواها أنه في الإمكان تفسير الطبيعة على خطى الاستنتاج.

استخلص أرسطو مبادئ العقل التي تحصر الحقيقة في مجال تطابق الفكر مع الواقع على نحو مخالف لفكرة أن الحقيقة متأتية من انسجام الفكر مع نفسه. وهكذا فإن النسقية السيميائية الأرسطية ذات الطبيعة الأنطولوجية تربط العلامات بالعالم العيانية الفعلية؛ وذلك لأن هذه العلامات تنتظم داخل قوانين الوجود. بمعنى أن أبعادها أنطولوجية أساسا لكونها لا تفصل الصور المنطقية عن صور الوجود نفسه على الرغم من أنها لا تعبر مسألة الممارسة أهمية كبيرة، ولكن ليس إلى الدرجة التي انتهجها المنطق الصوري في فلسفة العصور الوسطى لغايات تيولوجية.

إذا استدعينا عبارة بارميندس القائلة: بأن "الوجود موجود واللاوجود غير موجود" أمكننا استنبط العبارة السيميائية الآتية: إن العلامة "هي ما هي" وعكسها النقيض؛ ذلك أن اللاوجود المطلق البارميندسي لا يقبل فكرة الحمل؛ بيد أن فكرة النقيض قد تلبس بما يغير الهوية. إن فكرة "الغير" بما هي لا وجود نسبي - أي ما يقع خارج الوجود - تتوزع بين جميع الموجودات حسب اتساقها، فلا يعد نقيضا له؛ ولا غرو أن يشيد أرسطو بالقانون الذي فحواه من الوجهة السيميائية: إن وجود العلامة بما هي موجودة، فموجودة، وما ليست موجودة فليست موجودة. وعليه سترتب عن هذه المصادرة دليل الحكم لذي يمتنع أن يكون صادقا وكاذبا في الوقت نفسه. علما بأن قضايا (الصدق والكذب إنما هي في التركيب والتفصيل)⁽²⁾. فالعلامة الدليل من منظور ليقوفرون Lycophorn تمتع أن تكون مفردة ومتعددة في آن واحد، وقد وعى أرسطو هذه المسألة وعيا دقيقا.

وتكاد هذه المتصورات السيميائية الميتافيزيقية لا تخلو من روح مادية إذا قيست بالفلسفة الأفلاطونية المثالية؛ ولا سيما أن أرسطو يقدم متصورا لمعيار الحقيقة الذي (ليس مستخلصا من الرابطة الذاتية بين النشاط التحليلي والتركيب

(2) أرسطو، منطق أرسطو، تح. وتق. عبد الرحمان بدوي، الكويت وبيروت، دار المطبوعات ودار القلم، ط. 1، 1980، 100/1.

للفكر، وبين مادته التي تقدمها المدركات الحسية أو التصورات. فالحكم تبعاً لـ أرسطو لا يصدق إلا حينما تكون رابطتا الوجود المنصل أو المنفصل لمضمونين فكريين أقاما في الحركة الذاتية للتفكير انعكاسين مطابقين لربطتين واقعتين⁽³⁾. فالتركيب لا يتصف بالصدق ما لم تكن العلاقة التي يمثلها مطابقة للواقع الذي هو ليس سوى ذلك الوجود الموضوعي نفسه. ولهذا فإن العلاقات المنطقية التي تنتج أحكاما لا تنصل بالفكر إلا إذا كانت على علاقة متينة بالتركيب الذاتي النفسي وبالتحليل التجريدي.

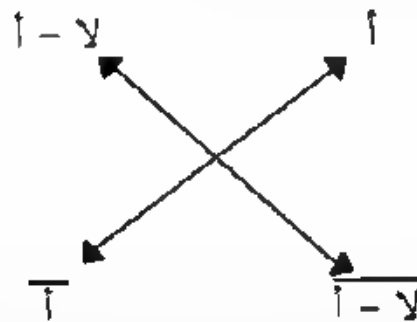
وبناء عليه فإن نظرية الحكم الأرسطية ببعديها النفسي والمنطقي وبطبيعتها الجدلية العلمية تتمثل في وحدة التركيب والتحليل اللذين لا يكادان ينفصلان في أثناء عملهما؛ ولا سيما إذا كان مجردين، وترتبط بالخطابات التي تتوافر على خبر. فلأقوال الإنشائية ليست حكما على أساس أن الأحكام سواء أكانت مثبتة أم منفية فهي عملية تركيبية مختلفة للتمثيلات الناتجة عن فعل ذاتي من جملة أفعال الفكر ونشاطه التي لا نظير لها في الواقع. بخلاف إذا صدر عن النفس تركيب يعكس الروابط الواقعية، ويستند إلى فكرة الانفصال ليحعل منها مقدمة، وتلك غية مادة الفكر التي ينفي أن تكون منفصلة عن الإدراك الحسي والتصورات. وإذا رمنا الحديث عن العلاقات التي تتحكم في عناصر الحكم فهي قائمة على علاقات وجودية متضايفة بين المتصل بوصفه حكما إثباتيا conjunction والمنفصل بوصفه حكما منفيا disjunction التي سيكون لهذه العلاقات حضور متميز في النظرية العاملة لـ غريماس.

لا تنسب أخطاء الأحكام إلى الإدراكين الحسي والحدس العقلي؛ ولكنها ناتجة عن الشاططين التحليلي والتركيب في أثناء تحويل المادة المجردة إلى حكم يتمي مجاله إلى الفكر الاستدلالي. فصدق العلامات حاصل ما لم يتعارض هذا الفكر الاستدلالي مع الواقع الذي له وجود فعلي في الأحاسيس والحدوس العقلية. وينبغي التنبيه مع ماكوفلسكي إلى النسقية الأرسطية لا تلتفت إلا إلى الأحكام الحملية التي تتفرع إلى: كيف والكم والجهة. إن الثنائية التي تنتظم فيها

(3) يطر ألكسندر ماكوفلسكي تاريخ علم لمطو، بر. بديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، دار المعارف، بيروت، ط. 1، 1987، ص. 109.

الأحكام ترتكز على التقابل بين الإثبات و لنفي.

ومن هذه الثنائية ينبثق مبدأ التناقض؛ إذ ولا وجود لتناقض ما لم يكن هناك تطابق بين الإثبات والنفي. ومن هنا تتبين لنا الأصول المنطقية "للمربع السيميائي" أو "المربع الدلالي" الذي يعد من أبرز معالم التفكير السيميائي لدى غريماس الذي يقبمه على ثلاث علاقات: التناقض والتضمن والتضاد، على الرغم من أن غريماس وكورتاس يعيدانه إلى أصول لسانية وتحديدًا لدى برونفال ذي النزعة المنطقية الذي يقر بوجود بنيت متعددة لأقطاب في حين يدافع ياكبسون عن الطبيعة الثنائية؛ حيث قاد الإرث اللساني إلى التسليم بوجود نوعين من العلاقات الثنائية. تتمثل العلاقة لأولى في النمط الآتي: A / \bar{A} المميّزة بالتقابل لنتاج عن حضور السمة المحددة وغيابها. أما النمط الثاني فهو كالأتي: A / \bar{A} لا A وتكد تتمظهر في السمة نفسها. يحدد المؤلفان ثلاثة أجيال للحدود المقولانية⁽⁴⁾ لا نبغي التفسح فيها هنا إلا من حيث بيان علاقتها بمربع التقابل الذي اصطنعته النسقية الأرسطية في تطبيق لأحكام على مبدأي التناقض والثالث المرفوع؛ حيث يشير مؤلفا معجم السيميائيات إلى قاعدة أرسطو بخصوص علاقة A / \bar{A} بأنه يستحيل وجود هذين الحدين مجتمعين في آن واحد. وهو ما يدعى بعلاقة انتضاد. وفي مقابل ذلك تبدو علاقة النفي جلية A / \bar{A} لا A التي تنجز على الحد A (أو لا A) التي ينبثق منها التناقض A (أو لا A). ويمكن تمثيل هذه العلاقات بالشكل الآتي:



في حين نلغي أرسطو يطبق على الأحكام مبدأي التناقض وقانون الثالث المرفوع، ويسمي هذه القضايا بـ: "مربع التقابل" (وهي: الحكم المثبت الكلي،

A. J. Greimas et J. Courtes, *Sémiotique, Dictionnaire raisonné sur la théorie du langage*, (4) Paris, ed. Hachette, 1979, pp 30-32.

والحكم المنفي الكلي، والنسبة بينهما هي التقابل بالتضاد، في حين أن النسبة بين الحكم المثبت الكلي والحكم المنفي الجزئي، وكذلك بين الحكم المنفي الكلي والحكم المثبت الجزئي، هي التقابل بالتناقض، وكان أرسطو أول من أقام تفرقة بين علاقتي لتضاد والتناقض⁽⁵⁾. لقد ظلت الثنائية البنوية منذ القديم جاثمة في قلب التفكير المنطقي والدلالي واللساني.

لقد وضع أرسطو أسسا لأشكال الفكر التي ضمنها نظريته في الحقيقة. ثم ملبث أن حصر قوانين الفكر في ثلاثة مبادئ: التطابق أو مبدأ الهوية والتناقض والثالث المرفوع. وسيحتفظ مبدأ التناقض بأهميته في التفكير المنطقي على مر العصور. لقد حلل أرسطو الخطابات القديمة وذلك بالدخول في الاستعمالات نفسها؛ حيث لاحظ بأن الوجود يقال بطرق عديدة. يكاد كل التفكير الغربي يركز على الاعتبارية.

إن مقولات أرسطو كانت فتحة للتفكير السيميائي لدى الإغريق⁽⁶⁾، وبخاصة أنه استوحى هذه المبادئ من خصائص اللغة اليونانية كما أشار إلى ذلك كل من إميل بنفينست وأمبرتو إيكو، ويؤكد حضور علاقة اللغة بالمنطق في أدبيات الثقافة العربية الإسلامية؛ إذ نلفي الفارابي ينزلها المنزلة الأولى في "إحصاء العلوم"، ويقول: (...إن نسبة المنطق إلى العقل والمعقولات كسبة النحو إلى اللسان والألفاظ. فكل ما يعطيه علم النحو من القوانين في الألفاظ فإن علم المنطق يعطينا نظائرها في المعقولات)⁽⁷⁾. فإذا كان النحو لغة واصفة خاصة فإن المنطق لغة واصفة عامة، وعليه فإن (علم النحو) إنما يعطي قوانين تخص ألفاظ أمة ما، وعلم المنطق إنما يعطي قوانين مشتركة تعم ألفاظ الأمم كلها... مثل أن الألفاظ منها مفردة ومنها مركبة⁽⁸⁾. ومثل هذا أشار إليه أبو حيان التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة بخصوص مناظرة متى بن يونس وأبي سعيد السيرافي. وإذا وقفنا على دلالة فن المنطق وحدّه لألفيناه مأخوذا من النطق؛ إذ (يطلق على

(5) م. س.، ص. 111.

(6) Umberto Eco, *Semiotique et philosophie du langage*, Trad. Meyriem Bouzaher, Paris, éd. (6) PUF, 1988, P. 10.

(7) الفارابي، إحصاء العلوم، ص. 13.

(8) مص. س.، ص. 16.

المنطق الخارجي الذي هو اللفظ وعلى الداخلي وهو إدراك الكليات وعلى مصدر ذلك الفعل⁽⁹⁾. وبذلك ستكون العلاقة بين المنطق والمعنى جوهر التصورات القديمة، وسرعان ما سيتمدد البحث إلى ربط المنطق بموضوع الألفاظ ليرتكز على التركيب المنطقي للغة على غرار ما سنقف عليه لدى حلقة فيينا بعامة وكارناب بخاصة.

ومن هنا أمكننا التساؤل عن علاقة أرسطو بطبيعة اللغة اليونانية؟ وهل هذا المنطق يكتسي صفة الكونية وهو منبثق من خصائص لغة معينة؟ لا نريد هنا أن نتقصى أصول المنطق الأرسطي تقصيا فيلولوجيا، ولكننا نشير إلى أن هذا المنطق لا يتفصل عن الميتافيزيقا بما في ذلك المنطق المتعالي الكانطي أو المنطقية الكلية، لهيجيلية، ولهذا لا يمكن الإحاطة به خارج حدوده. إن ربط المنطق باللغة لا يحتاج إلى جهد حجاجي لكون أن الحدود في المنطق هي علامات منطوقة؛ تسمح بربط العلاقة بين الكلمة ولشيء الذي تدل عليه. وهذه القاعدة السيمائية تسمح بنقد المرتكزات الفلسفية التي قام عليها المنطق الأرسطي.

إن مفهوم البديهيات والمسلمات تركز لدى أرسطو على ما يأتي: إن أي علم من العلوم يحتاج إلى مبادئ أولى تمثل أرضية القضية في أي نظرية من نظريات العلوم، إذ ينبغي التسليم بها؛ حيث لا تحتاج إلى برهان مثلما هو الحال في الرياضيات. إن هذا التسليم يترتب عليه استنباط قوانين عامة. ولم تتوقف النظرات العلمية القديمة والمناهج العلمية حتى القرن التاسع عشر لإخضاع مفهوم البديهة لامتحان الصدق، واكتفى بقبولها على أساس الحدس.

حسب ما يكون جمود البحث العلمي وكثرة أخطائه إلى منطق أرسطو انطلاقا من نزعة تدميرية لتراث الفلسفة السكولائية التي بالغت في تمجيد نظرية القياس وعزل المنطق عن الواقع بحجة أن تطوره يعود إلى طبيعته المحايثة ونزعتة النسقية المغنقة مثله كمثل ديكارت؛ وذلك رغبة في إمداد المعرفة العلمية بروح إبداعية جديدة ذات روح وصعية وسمت الفلسفة الإنجليزية بميسمها ردحا طويلا من الزمن دون أن يكون مغاليا في دعوته على غرار ما منلفيه لاحقا في تاريخ الفكر

(9) الفاضل سراج الدين محمود بن أبي بكر الأرمري، مطالع الأنوار والمنطق مع شرحه لوامع الأسرار، مخطوط بمكتبة الأسد، سورية، ص. 16

الوضعي الحديث. يقول بيبكون: (إن العالم ينبغي ألا يقلد العنكبوت التي تنسج بيتها بأن تفرز خيوطها الخاصة، ولا النملة التي لا تقوم إلا بتكديس المواد، بل ينبغي عليه أن يكون كالنحلة، أي ينبغي عليه أن يجمع المواد، ويحولها إلى نظرية علمية)⁽¹⁰⁾؛ بيد أن بيبكون كان يعطي غطاء واسعاً للعلم الكلي على بقية المعارف الأخرى ما عدا المعرفة التاريخية، ولم يسلم القيادة كلية للرياضيات في تفسير الطبيعة. إذ دعا إلى بناء أرغانون جديد بدلا من الأرغانون الأرسطي.

إن حركة الإنسان موقوفة على قدر معرفته؛ ولكن طموح الإنسان لا حدود له في التطلع إلى ما يحجبه عنه المجهول حتى وإن كان يحمل أسباب شقائه. ومن هنا فإن المنطق لا ينحصر في تلك الوظيفة التي تجعل منه ذلك العلم الواضع للقوانين المرشدة للتفكير حتى لا يضل، بل ينبغي أن يضطلع المنطقي بمداينة أشكال التفكير وبيان مواطن الصحة والخطأ داخل الأشكال التعبيرية للتفكير العلمي والفلسفي. وهذا التصور ينتقل بالمنطق من الآلة على انتقد ليقربه من الإبتيمولوجية الحديثة التي تحاول أن تنتقد فرضيات العلوم ونتائجها. إن النقد المنطقي ينصرف إلى الأدلة التي يحتمى بها العلم في إثبات هذه القضية أو نفيها.

هاجم بيبكون نظرية القياس لدى أرسطو هجوماً قاسياً، ولم ير في الأرغانون أي قيمة فكرية أو علمية إيجابية تذكر، بل حملة إعاقة تطور العلوم وتقدم مباحثها حتى يحق لنا أن نتساءل عن سبب هذا الهجوم القاسي ومبرراته غير لمعلنة، ويخيل إلينا أن المقصود هو أرسطو آخر الذي قدمته القراءات السكولائية بتفريغ المبادئ المنطقية من علاقتها الوطيدة بالواقع. فقيمة أي نسق فلسفي أو منظومة فكرية مقرونة بنتائجها الفعلية.

غالت الفلسفة السكولائية كثيراً في الاتكاء على الأقيسة حتى تحول المنطق إلى ترف فكري أبعد عن مشكلات الواقع، وسرعان ما حاول العصر الحديث أن يستبدله بالاستقراء العلمي الذي خفف شطط التفكير الفلسفي المعجب بخيلاء لغته وحواراته الغارقة في مطاردة القضايا الصورية. (فهو يقول إن القياس يتألف من قصايا، والقضايا تتألف من حدود (ألفاظ)، والحدود هي علامات للأشياء، فلو

(10) ينظر ألكسندر ماكوفسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، دار الفارابي، بيروت، ط. 1، 1987، ص. 332.

كان تمثيل الشيء في العلامة التي تعبر عنه غامضا أو غير صحيح؛ لأنها القياس كله؛ ولأنه يقوم على تمثيلات للأشياء عامضة وكاذبة، لكن نقده لا يصيب لهدف⁽¹¹⁾. والواقع أن نظرية القياس ليست معيبة في ذاتها؛ لأن لها حضورا في التفكير السيميائي الذي كان يتوسم في نظرية الحدود على أنها سيرورة سيميائية؛ لأنها علامات للأشياء؛ بيد أن القياس لم يثبت جدارته في إخصاب المناهج العلمية التي بدأت تتجه إلى المشكلات الواقعية، والبحث عن حلول علمية لها حتى يصبح - حسب بورس - نظرية الحقيقة.

كان المنطق الصوري يتدرج شيئا فشيئا للابتعاد عن أن يكون علم الواقع. ونحن حريصون كل الحرص على أن نفصل بين المنطق الأرسطي والمنطق الصوري كما تعاملت معه فلسفة العصور الوسطى؛ وعليه فإن المبالغة في تسميه منطق أرسطو بجانب الصواب؛ لأنه نسق فكري لا يخلو من انسجام، ولا غرو أن يحظى بتمجيد كانط وإعجابه. ينضاف إلى ذلك منزلته المتميزة في المرتكزات النظرية للسيميائيات.

هل ستتشكل النسقية الأرسطية مع المنطق الرواقي أم تتباين معه؟ ما هي مواطن الالتلاف والاختلاف بين النسقين المنطقيين؟ وكيف يمكن للسيميائيات أن تتنظم معها انتظاما إستيميا؟ وما موقع العلامة في الاستدلالات لمنطقية؟

المنطق الرواقي

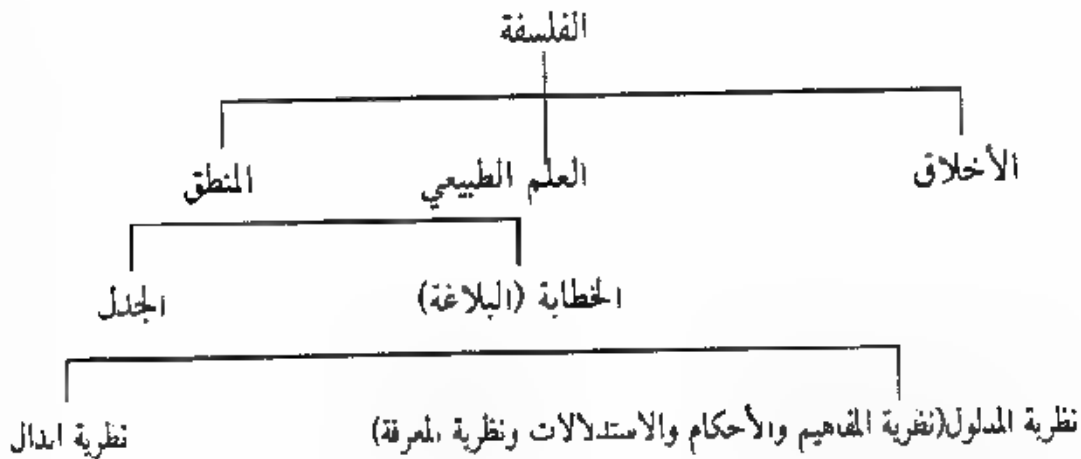
لقد أسس إقليدس [450 - 374 ق. م] المدرسة الميغارية في عهد أرسطو، وانكب على مدارس ما خدمه بارميندس، وامتناع فيلون لميغاري أن يعبد الطريق أمام منطق القضية الشرطية كما اهتم أيضا بالقضايا المركبة؛ وهذا ما جعل كتب تاريخ المنطق ترى بأنه كن سباقا إلى وضع قواعد صدق القضية وكذبها قبل المنطق الصوري الحديث، ولكن المدرسة الميغارية لم تستطع أن تواصل طريقها في تطوير المنطق بعد القرن الثاني قبل الميلاد، وسرعان ما أخذت منها الرواقية بريقها، وظهرت منسق الشرطيات الذي كان قد دشنته الميغاريون. وإن جرد بعض المؤرخين المنطق الرواقي من أي أصالة؛ فلا ابتكار

(11) ينظر ألكسندر ماكوفسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 335.

فيه لأنه امتداد لمنطق أرسطو.

ظهرت الرواقية القديمة في أرمي عصور تاريخ الحضارة العربية بعد انفتاح الإغريق على حضارات أخرى؛ ولا سيما حضارة البحر الأبيض المتوسط؛ إذ تعد الرواقية من بين الفلسفات الوثوقية التي لم تكرر مقولات الفلسفات السابقة. (فقد كانت الروح جديدة كل الجدة. وثمة سمتان اثنتان تطبعان هذه الروح بطابعهما: أولاهما الإيمان بأنه يستحيل على الإنسان أن يهتدي إلى قواعد للسلوك أو يصل إلى السعادة إذا لم يركز إلى تصور للكون متحدد بالعقل. فلابحاث في طبيعة الأشياء لا يكمن هدفها في ذاتها، أي في إشباع فضول العقل وإنما غايتها أيضا توجيه دفة الممارسة. أما السمة الثانية - وقد أتت فعلا أكلها - فهي الجنوح إلى انضباط مدرسي... هي نزعة عقلانية إذا شئنا، ولكنها عقلانية متمذبة تغلق المسائل)⁽¹²⁾. لقد قسم الرواقيون الفلسفة إلى الأخلاق والعالم الطبيعي والمنطق. وقسموا المنطق إلى البلاغة والجدل. والجدل إلى نظريتي المدلول والبدال.

يبدو المنطق الرواقي منذ الوهلة الأولى بأنه ذو مواصفات سيميائية، كما أنه يستقي جذته إذا سلمنا سلفا بأنه له بعض الجدة من كونها تربط تصوره بالتصور الفلسفي العام. وهذا يضعنا أمام مصادرة ستعزز لاحقا في تاريخ التفكير الفلسفي بأن المنطق لا مندوحة له من أنه ينبثق من متصورات فلسفية تؤطر خطاه، وترسم معالمه، وتحدد وجهته.



(12) يطر إميل برهيه، الفلسفة والهلنسية والرومانية، تر. جورج طرايشي، دار الطليعة، بيروت، ط. 1، 1982، ص. 36.

ظلت الاستعارة تهيمن على لغة الفلسفة كما أشرنا إلى ذلك في "رهانات البلاغة وانزلاقات المعنى"؛ ولا غرو أن يشبه الرواقيون الفلسفة بالبيضة وغيرها، وأن يرفعوا الأخلاق إلى أن يجعلوها الفرع الأساس للفلسفة وروحها؛ حيث يضطلع المنطق بالمناقحة عن حياضها بهدف عصمة العقل من الزلل وتجنيب لذهن من الارتكاس في الأخطاء؛ ولعل هذه الصرامة أفضت بهم إلى تلك الوثوقية التي جعلتهم يعتقدون أنهم أشياء، لحقيقة التي لا يقين بعدها، ولا يتم ذلك إلا بإصدار أحكام صارمة في حق الأشياء التي تنصرف إلى تأملها.

هل لمنطق يعد الأرضية الأولى لهذا التأمل أم هو نتيجة للنشاط التأملي؟ إذا كان الجوهر لديهم لا يعرف إلا بالعقل فهذا يدفعهم إلى عدم التسليم بالأفكار الفطرية؛ لأن الحقائق لا تصل إلى درجة اليقين إلا إذا كانت مطروحة ضمن نسق علمي متماسك. وقد أضافوا إلى معيار ديمقريطس الثلاثي حول الحقيقة (الإحساس والعقل والانفعال) معيارا رابعا وهو العلم بعدما كانت الحقيقة لدى أرسطو تتمثل في فكرة المطابقة بين الفكر والواقع أي بين العلامة ومرجعها هذا على الصعيد المادي أما على الصعيد الصوري؛ فالحقيقة لا تتطابق إلا مع ذاتها. وعلى هذا الأساس فإن المنطق الأرسطي يتسم بالنزعة الواقعية والمنطق الرواقي بالنزعة الاسمية علما بأن الرواقيين كانوا يتصورون الخطاب الفلسفي على أنه وحدة كلية ضامنة للنسق وترتكز على أبعاد الكينونة التي لا تتجلى أيضا - تجليا طبيعيا فحسب، بل تتجلى بوصفها لوغوسا يرادف مصطلح "المذهب"؛ ومن ثم كان منطقهم ذا روح صورية لا تكاد تختلف عن منطق أرسطو بدل أن يكون ذا روح أنطولوجية.

إذا كانت الحقيقة هي قبة المنطق فعليها أن تخضع لشرط الوضوح الذي لم تتخل عنه الفلسفة الحديثة كما هي لدى ديكاوت والضامن الوحيد لوضوح الحقيقة هو العلم والتعريف الذي يسعى إلى استبدال ما هو غامض بما هو واضح؛ لهذا جعلته الرواقية معيارا من معايير الحقيقة. ليس للعقل قيمة بدون التمثلات سواء أكانت بسيطة أم مركبة؛ ومن ثم لا حديث عن المعقولات في غياب التمثلات التي تؤثر في نشاطات العقل. ومن هنا يبدأ صرح نظرية المعرفة في العلو؛ وحصنوا هذا الصرح بسؤال الحقيقة الذي جمعوا له تحت راية الفلسفة: الأخلاق

والمنطق والعلم الطبيعي، وأدرجوا في المنطق مسألة الكلام المتمثلة في البلاغة والجدل.

جمعت الفلسفة الرواقية بين المنطق والأخلاق والعلم الطبيعي كما أسلفنا القول، وتفردت في ضم المنطق إلى مباحث اللغة والدلالة؛ ولهذا كله كانت لها قصبات السبق في أن تكون لها قدم راسخة في تاريخ التفكير السيميائي القديم. وعلى الرغم من أنهم اصطنعوا بعضا من عناصر التحليل الأرسطي إلا أنهم جمعوا بين نظرية العلامة ونظرية البرهان؛ ونحن هنا نعتقد أن المفهوم السيميائي يمكن له أن ينتقل من العلامة إلى الدليل الذي يقابل مصطلح *signe* في الترحمات العربية المعاصرة. إن المنطق في منظور الرواقيين معرفة لها حرمتها وعلم فلسفي عيني اكتسب خصيصة علمية أكثر مما أصبح عليه الحال في فلسفة العصور الوسطى هذا إذا سلما برأي حصوم منطق الرواقيين الذين يجردونه من أي جدة.

لقد أدرج الرواقيون المنطق داخل (علم اللغة) (علم الكلام)، وأشاروا إلى أن الكلمات والجمل هي الأمارات، بينما المفاهيم والأحكام والاستدلالات هي المشار إليها بهذه الأمارات، وبحسب مذهبهم، يجب على المنطق أن يدرس في الوقت نفسه الأمارات الشفوية والمفاهيم المدلولة بها⁽¹³⁾. إن النزوع المادي للفلسفة الرواقية دفعهم إلى تبني الرؤية الحسية في المعرفة العلمية ومعاداتهم للأفكار الفطرية التي وجدت صداها لدى جون لوك الذي طور تشبيههم للنفس بالصفحة البيضاء وبأنها ذات طابع مادي حسب زينون الذي وصف بهويز العصور القديمة. ولهذا استخلصوا نظرية في المعرفة، وطبقوا منطق القضايا ليس على النحو الذي نقف عليه في المنطق الرمزي الذي سيحتفي كثيرا بحساب القضايا. ولكنهم كانوا على بعض اليقظة بالخصائص المنطقية لهذا الضرب من التفكير.

وإذا ربطنا ميلاد مصطلح السيميائيات بـجون لوك الذي يمكن إرجاع بعض ينابيع تصوراته الفكرية والفلسفية إلى الرواقيين فيمكننا أن نقول بأن أصول السيميائيات إذا توخينا التتبع التاريخي تعود إلى التفكير الرواقي ومنطقهم الذي لم يكن بعيدا عن المتصورات الأولى لما يمكن أن نطلق عليه اليوم بفلسفة اللغة. غير أن منطق الرواقيين كان موسوما بالطابع الاسمي لمادي المعتدل على خلاف

(13) ألكسندر ماكروفسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فني، ص. 178.

النظرة الأبيقورية؛ ولا غرو أنهم لا يعترفون بالتصور وعلمه، ولا يؤمنون بأن الموضوعات تنتزع من الصور؛ وعليه فقد كان الإحساس لديهم عملية عقلية لا شأن لها بعالم التصور أو التخيل. فلا علم عندهم إلا بالفرد وبالشيء⁽¹⁴⁾. وهم بذلك يحققون بعض التجاوز عن فلسفة أرسطو ومنطقه وتكون حكمتهم حافزا كبيرا لدى بعض فلاسفة القرن السابع عشر.

لقد أرجع الرواقيون المسألة اللغوية إلى المواضع العرفية، ولم يكتفوا بإقحامها في متصورات النظرية العلمية وحقائقها العامة. فـ "حياة اللغة" لا تخرج عن دائرة مستعملها؛ ومن ثم فإن طبيعتها الاجتماعية فرضت على الفلسفة الرواقية أن تدمجها في القضايا المنطقية، وتضفي عليها بعدا سيميائيا بحكم وظيفتها التواصلية التي انتصرت لها اللسانيات الحديثة، بل إنهم لم يكتفوا بالنظر إلى العلامات اللسانية، وإنما ركزوا - أيضا - على العلامات⁽¹⁵⁾ غير اللسانية. إن اللغة والتطبيق لم يرجعهما رواقيو المرحلة المتأخرة إلى الحقائق العلمية فقط، بل أرجعوه أيضا إلى الرأي العام، وإلى الفرضيات المقدسة بالعرف، ورجعوا إلى التفاهم العام لكل الناس⁽¹⁶⁾. إن اهتمامهم بالإحساسات لم يصرفهم عن الاهتمام بما يتم التعبير به عن طريق اللغة؛ ولا سيما ما يطلقون عليها بالمقول lekton.

لا يتأتى تمثيل الشيء من خارج النفس بما ينتجه الشيء نفسه؛ (لكن ما يمكن قوله عنه هو ما تتمثله النفس بصدد هذا الشيء، وما تتمثله النفس لا يعود هو عينه ما يولده الشيء في النفس)⁽¹⁷⁾. إن هذا التصور سيجد صده في حد العلامة لدى بورس، وسيترجم إلى مفهوم الدلالات المفتوحة التي لا تؤمن بأن العلامة هي محاكاة أو مرآة لما تحمله أو تنقله أو تتمثله بما في ذلك العلامات الإيقونية. إن الرواقيين حسب إيكو لم يوفقوا لأن يكون أصحاب نظرية سيميائية أو نظرية علم العلامات، ولكنهم توصلوا إلى المثلث الذي اصطنعه أفلاطون وأرسطو بخصوص العلامة اللسانية. ولاحظوا بأن الخطر بالنسبة إلى البرابرة يتمثل في أنهم يدركون

(14) ينظر جول تريكو، المنطق الصوري، تر. محمود يعقوبي، ص. 86.

(15) T. Todorov, Théories du symbole, p. 21.

(16) ألكسندر ماكوفسكي، تاريخ علم المنطوق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 181.

(17) ينظر إميل برهيه، تاريخ الفلسفة، الفلسفة الهلنستية والرومانية، تر. جورج طرايشي، 57/2.

الصوت الطبيعي، ولكنهم لا يتعرفون إليه بوصفه كلمة، وليس لأنه لا توجد فكرة في الذهن تقابله، وإنما لا يعرفون قاعدة التضاييف التي توالف بين الفكرة الذهنية والصوت الطبيعي؛ وهم بذلك يذهبون بعيدا في تحديد الطبيعة غير الدائمة وغير القارة للوظيفة السيميائية. كما أن المحتوى لديهم يختلف عما كان عليه تصور من سبقوهم. فهو ليس حالة النفس *état de l'âme* والصورة الذهنية والمدرّك والتفكير والفكرة. إن الطبيعة المادية لميتافيزيقا الرواقيين لا تسمح بأن ينظروا إلى المحتوى على أنه فكرة على النحو الذي نلميه لدى أفلاطون.

إذا تساءلنا ما مصدر المعاني الكلية؟ لأجابت الرواقيون بأنها نابعة من المخيلة البشرية علما بأنهم لا يسلمون إلا بالأفراد والأشياء لا بالتصورات ولا بالتخييلات؛ وليس بالضرورة أن يكون لها ما يطابقها في عالم الأعيان الذي يدعى بالواقع الموضوعي؛ حيث تتطابق معه معطيات الإدراك الحسي والتمثل والحكم؛ ثم يجلي العلم الصفة النهائية للحقيقة التي لا تطلب إلا بالمعرفة العلمية. ولهذا كله لا تنزع من ذلك إلا تمجيد العقل الإنساني؛ ولكن ليس إلى درجة مطلقة فهو يمثل الإجراء الأخير في "السلم الحجاجي" في أثناء عمليات الإدراك الحسي علما بأن الإحساس لدى الرواقيين هو بمثابة الأثر الذي يخلفه عالم الأشياء المادي في النفس التي تكتسي لديهم طبيعة مادية. وهذا الرأي ينتصر لمادية العلامة في الفكر الموسوم بميسم السيميائيات الحسية وفق منطلقاتهم المادية.

وقد يحيل إلينا أن الرواقية مذهب حسي تجريبي خالص، ولكنها سرعان ما تنتقل من الطور التجريبي إلى الطور العقلي نظرا لإضافتهم لمعيار العلم إلى معايير ديمقريطس في نشدان الحقيقة. ولا يمكن أن نعني من شأن هذا الانتقال لأن سقراط الفسفي سيخيب أفاق توقعنا. وما هو جدير بالإعجاب أنهم نظروا إلى المنطق على أنه نسق استنباطي؛ ولهذا أهمية خاصة للأقيسة الشرطية. بخلاف منطق أرسطو الذي كان يتلاءم كثيرا مع فلسفة الماهية والجوهر، حيث إن المنطق القضوي ينصرف إلى النتائج المستقبلية بوصفها حوادث، ولا يعنى إلا (بالمعالم الجوهرية المشتركة في كل القضايا وهي إمكان الصدق أو الكذب)⁽¹⁸⁾؛ لأن

(18) أ. ه. يسون و د. ج. أوكونر، مقدمة في المنطق الرمزي، تر. عبد الفتاح الديدي، دار المعارف، مصر، 1971، ص. 47.

العبارات الإخبارية هي بمثابة الوحدات الأساس، وهي قائمة بذاتها، ويراد بها امتحان صدق العبارات الإخبارية بالمفهوم النحوي من كذبها.

عالج الرواقيون الماهيات بوصفها علامات، وحققوا بعض التفسيح في نظرية المعرفة؛ وذلك على مستوى طرائق المعالجة؛ إذ اشتملت نظرية العلامة لديهم على ما هو لساني وغير لساني. ولكن ما هو مثير للغرابة في نظر تودوروف أننا لا نلقي تمفصلا بين نظرية العلامة والنظرية اللغوية نظرا لتقارب مصطلحاتها وحدودها؛ ولا سيما أن نظرية الدلالة الرواقية لم تتحدث عن العلامة من حيث هي مفهوم مستقل وإنما تحدثت فقط عن الدال والمدلول؛ وعليه فإننا عندما نشير إلى نظرية العلامة إنما نشير إلى مكوئنها فقط. وتبدو حفيظة اسكستوس أمبيروقيوس الشكك وجبهة؛ لأن نقده (يوضح ضرورة ربط مختلف نظريات العلامة التي تنطوي على خطوة كبيرة نحو بناء السيميائيات)⁽¹⁹⁾. وما كان يحتاج إليه لمنطق الرواقي أن يركب إذا لم يكن في مقدوره أن يجمع بين الدوال والمدلولات وبين المقدمات والنتائج أو بين السوابق وللواحق بوصفها عمليات منطقية.

إن التحليل المنطقي هو بخلاف عمليات تفسير العلامات التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوانات لدى الرواقين؛ إذ يمكن للربان الأميين والمزارعين الذين لا يتوافرون على نظريات منطقية أن يفسروا علامات أحوال الطقس تفسيراً ممتازاً؛ وكذلك لحيوانات غير العاقلة هي فعدة وقادرة على فهم العلامات (ففي الواقع فإن الكلب عندما يطارد فريسته يتتبع أثرها خطوة خطوة، فهو يفسر العلامات؛ ولكنه لا يستخلص من هذا التمثل الحكم المنطقي (إذا كان هناك أثر فهناك فريسة). وبالمثل فإن الحصان تحت ضربات السياط يندفع نحو لأمام، ويبدأ في الركض، لكنه لا يكون تفكيراً منطقياً من المقدمة شيئاً من قبيل "إذا سمع صوت السوط فإنه ينبغي أن يركض"⁽²⁰⁾. وهناك أمثلة يسوقها اسكستوس بخصوص مفهوم العلامة وعلاقتها بالقضية وبالبرهان عن طريق القياس المرآة التي في ثديها حليب (مقدمة كبرى) تشير إلى أنها قد حبلت (قياس أكبر).

T. Todorov, Théories du symbole, p. 21.

(19)

Sextus Empiricus, Contre les mathématiciens, pp. 269-271 in T. Todorov, Théories du symbole, p. 22

(20)

يعد البرهان القسم الأساس من المنطق والإجراء السيميائي المباشر. (فالرواقيون أنفسهم لم يروا في البرهان سوى علامة)⁽²¹⁾. وأن الرهان يتألف من أحكام، وأن الأحكام بدورها أجزاء تكوّن الاستدلال، وأن قولهم لصحة الفرضيات مشروط بقابليتها للإثبات. تنقسم الأحكام إلى أحكام بسيطة بحسب الكيفية والكمية والوضع وأحكام مركبة تنقسم بدورها إلى أحكام شرطية وأحكام منفصلة وأحكام متصلة... إلخ

وجدت الفلسفة الاسمية دعماً لها في الفلسفة الرواقية التي أنكرت الكينونة الواقعية للمعاني الكلية، وتعاملت معها من منظور اسمي بخلاف ما ورثه التفكير الفلسفي عن أفلاطون وأرسطو؛ حيث انصرفوا عن الاهتمام بتقسيم لموجودات إلى أحناس من حيث هي كليات تنطبق على أنواع مختلفة وأنواع من حيث هي كليات تنطبق على جزئيات ذات حقيقة واحدة على الرغم من أنهم لم ييخسوا هذا المسمى الفكري حقه. إن الأحناس والأنواع ما هي إلا أسماء لدى هوبز الذي تأثر بمنطق الرواقيين. ونظراً لكونهم يرون أن لا علم إلا بالفرد فقد وصفوا التعريف لعام بلوهم. وعليه سيكون التعريف هو تعداد الصفات الخاصة بكل كائن.

لم ينشغل الرواقيون كثير بطلب الماهيات التي هي قوام التعريف لدى أرسطو. إن هدف التعريف يتمثل في بيان حقيقة الشيء في الذهن والسعي من أجل إبراز معناه وتأسيس علم التصورات؛ ولهذا تتقارب التعريفات مع التصورات علم بأن التصورات لدى أرسطو تمثل الوجود الواقعي الذي لا يمتد إليه التغيير؛ ولكن الرواقيين نظروا إليه نظرة مغايرة وبسيطة، بل يمكن القول إنه لم يفصلوه عن المقاربة السيميائية حينما وصفوه بأنه عبارة عن ضرب من العلامات المتعددة، وتكون ملزمة لشيء ما. في حين أن منطق التصور تعرض للتشكيك من منطلق أن التصور في ذاته لا يعدو أن يكون حالة من الكمون الذي لا حد له من الأحكام. فهو في نهاية المطاف حكم يعبر عنه محمول؛ ومثل هذا المذهب يكاد يجرد الذهن، ويجعله خالياً من أي شيء.

(21) إميل برهيه، تدرج الفلسفة، 60/2.

ولعل التحليل السيميائي للوحدات الدلالية اصطنع هذا المفهوم القائم على التعداد المرهق - أحيانا - لعلامات أو الخاص حسب كريزيبوس مثل "الإنسان حيوان عاقل"، وفان وموهوب بفكر وأهل للعلم إلخ. وفي الرياضيات لا يمكن أن نهتدي إلى رسم منحنيات المعادلات ما لم نعرف المعادلة تعريفا تاما، وسنجد بأن تطور العلوم فرض على مناهجها لغة تتجنب الغموض الذي نلفيه في اللغات الطبيعية. (ولا يوجد تعريف للقوة واضح ودقيق وحاضر مثل الصيغة: $Q = KJ^{(22)}$). وهكذا يكون التعريف خطابا بعدد المميزات تعدادا عاما.

يسجل المنطق الرواقي بعض الاختلاف عن منطق أرسطو حول قضية المقولات، واكتفوا بالمقولات الأرسطية الآتية: الجوهر والكيفية والحالة والعلاقة. وتبعاً لمنطقتهم الفكرية فقد تعاملوا مع المقولات تعاملًا اسميًا من غير أن يعدوها أجناساً للكائن، وركزوا على الأقيسة الشرطية والقضايا؛ حيث (رأوا أن هنالك موضوعات لم يبحثها أرسطو بحثاً كافياً مثل القضية والأقيسة الشرطية والنظر إلى المنطق كنسق استنباطي)⁽²³⁾. ولكنهم كانوا قد رموا القياس الأرسطي بالمظنات ووصفوه بالباطل.

لا يتأتى طلب الحقيقة من مطابقة المفاهيم للوقائع الموضوعية؛ ولهذا فإن الموضوعات الفكرية التي تتسم بطابع التجريد غالباً ما توصف بالمعاني الكلية التي تتألف من عدد غير متناه من الضواهر التي يوحد بينها التجانس؛ ولكن هذه المفاهيم الكلية ليست أشياء مادية على نحو ما كان يعتقد بروشارد؛ إذ لا وجود لها إلا في الوعي، ولا تتمتع بالوجود الواقعي والموضوعي.

ومها تنشأ الأحكام الكلية التي تتأسس عليها كل معرفة علمية لما تتوافر عليه من قدرات إدراكية. فليس كل الموضوعات قابلة للإدراك الحسي الكلي والتام، وبعضها الآخر يمكن إدراكه لاحقاً بمجرد توافر الأبعاد الموضوعية لإدراكه. وهي مفاهيم ليست لها صبغة الوجود الواقعي كمفهوم العلاقة والحالة وغيرها. فكما أن الأشياء تنضوي في عالم اللغة فإن المقولات المنطقية تنضوي في الأخرى في

(22) 31 - ينظر جول تريكو، المنطق السوري، تر. محمود يعقوبي، ص. 111.

(23) ينظر محمود فهمي زيدان، المنطق الرمزي، نشأته وتطوره، دار النهضة العربية، بيروت، 1979،

الفكر. وهذا التوازي بين الفكر واللغة ظل يهيمن على تاريخ التفكير الفلسفي. فالمفاهيم - في نظر الرواقيين - تشكيلات ذاتية تخالف المتصورات الأرسطية. فإذا كان المنطق الأرسطي قد انبثق من اللغة الإغريقية وحصائصها فإن المنطق الرواقي كما أشرنا أدمج اللغة، ولم يتعامل مع المقولات إلا على أنها أصناف مختلفة للمفكرة. حيث تم تطوير النظرية الاسمية لأنثيستان التي لا ترى في الأفكار العامة والمفاهيم إلا أسماء.

يختلف المنطق الرواقي عن المصطق الأرسطي في طبيعة الأحكام والقياس. فقد اعتنوا بالأحكام الشرطية بدل الأحكام الحملية التي لا يناصبونها العداء؛ لأنهم يعترفون لها بالمنزلة الحركية في حياة الناس وإدراكاتهم الحسية المباشرة؛ وعليه فهم ينطلقون من القضايا المركبة ومن نزعتهم الاسمية التي لا تعير أهمية كبرى للتصورات والمفاهيم الكلية أو هم يحاولون السعي إلى الحد منها ما وسعهم الأمر إلى ذلك سيلا.

على الوقائع المنطقية التي تحيط بها الإدراكات الحسية، وتفصح عنها اللغة أن تتجسد في عليات منطقية تربط بين منطوقين فعليين يتصفان؛ ومن هنا لا بد للمصطق أن يبدأ أبحاثه بتحليل الأحكام الشرطية. لا يستطيع الرواقيون استخدام المربع المنطقي الأرسططالي وهم يننون نظريتهم في طبيعة الأحكام المتناقضة والمتضادة بطريقة مختلفة مسندين معنى آخر إلى الحدود "متناقض" و"مضاد". ولا عجب أن يحتفظ المنطق الرواقي بمبدأ التناقض لكونه يشكل ركيزة الفكر، ولم يهملوا - أيضا - مبدأ الهوية من جملة مبادئ العقل التي أشار إليها أرسطو.

يكتسي مفهوم الاحتواء طابعا مميزا في منطقهم نظرا لعلاقته بالأحكام بدل الأجناس التي تنفرع منها الأنواع؛ ولأنهم كانوا يعتقدون بأنه لا علم إلا بالفرد فالاحتواء يتألف من أفراد أو مجموعات كيفية تتحدد بقوانين معلومة؛ وعليه فمفهوم الاحتواء مجرد من أي خصيصة نفعية تجيها أشكال القياس الذي لم يلق قبولا حسنا لديهم على النحو الذي طرحه أرسطو. ولكن فكرتهم عن القياس جعلت فلسفة العصور الوسطى تصوغ المبدأ الآتي "علامة العلامة هي علامة الشيء ذاته".

يرتكز الاستدلال الرواقي على نظرية العلامات بالمفهوم الأعراض الطبي.

فالعلامات بوصفها ظاهرة ترتبط بظواهر أخرى من الساحة المنطقية، فهي كذلك ترتبط بالكلمات. إن السيميولوجية الطبية قامت لدى الإغريق على أسس تجريبية. فكانت العلامات أو لأعراض المرضية وسيلة الحكيم من أجل تشخيص المرض، ثم محاولة علاجه. تعد العلامات الأعراضية لغة المرض التي يعبر بها عما يعمل من داء في داخل الجسم العليل أو من بوادر أعراضية مرضية تتطلب التدخل السريع بغية استئصال العلة. ومن هنا استفد المنطق في ساء أحكامه من هذا التشخيص السيميولوجي لإدراك الظواهر الغابرة والحاضرة والمستقبلية؛ بيد أنها أحكام يعورها النقص، وليست قائمة على إدراكات علمية صلبة ودقيقة.

سيمائية الفعل الإدراكي:

ليس كل الموضوعات قابلة للإدراك إدراكا مباشرا بطبيعتها. وفي هذه الحالة تستدعى عن طريق العلامات سواء أكانت رمزية أم قريبة أم إيقونية؛ ولهذا كله كان الرواقيون يطلبون هذا الصرب من الموضوعات التي لا تقبل الإدراك على نحو مباشر بوساطة العلامات لدالة التي يمكنها أن تستحضر هذه الموضوعات إلى عالم الوجود؛ حيث تنقلها من حال الغيبة إلى حال الحاضرة أو عالم الخبر القاطع. وهكذا تستطيع الوظائف السيميائية أن تضطلع بإضفاء لدالة على الأشياء الغائبة عن الإدراكات الحسية. لقد اهتم الرواقيون بالعلامات القرينية لأنهم كانوا يركزون على مسالك العلة القائمة بين العلامات والأشياء مثل: النفس علة حركة الجسم أو الأعراض المرضية التي تنضوي في محال لعلامات الكنية؛ لأن قيمتها الدلالية تشمل موضوعات مختلفة. والمقصود بالعلامات هنا كل ما يقبل البيان أو التعبير عنه.

ولهذا جردها الرواقيون من أن تكون منطلقا للاستدلال. فالحكمى عرض دال على علل مرضية مختلفة والعرق دل على وجود مسامات في الجلد. فلا يستطيع الحكيم أن يتنبأ بمرض بعينه بمجرد أن يتعرف إلى حالة العليل حتى يحدد داءه. وفي مقابل العلامات الكنية هناك علامات خاصة وهي في نظر الرواقيين - كما يرى فيلودام Philodème - تتمتع بالقدرة على الدلالة. وعليه سند كل من الرواقيين والأبيقوريين على العلامات في بناء نظريتهم الاستدلالية. ومن الواجب أن نتساءل عن علاقة الفكر الرواقي والأبيقوري بالفكر السيميائي الحديث ونعيدا

لدى كل من ش. س. بورس؛ لأن ذلك مرده إلا أن الرواقية والأبيقورية والسيمبثيات تلتقي عند مسألة أن المنطق ليس سوى الوجه الآخر لعلم العلامات؛ وأن العلامة تنزاح هنا من دلالتها التعيينية إلى دلالتها الفكرية ولمنطقية والعلمية. لا تحركنا رغبة في التقصي التاريخي للبحث عن هذه العلاقة وإنما يكفي أن ندرك الأصول الفلسفية للسيمبثيات الضاربة في القدم. على الرغم من التباين الواضح في تأويل العلامات واصطناعها في استدلالانهم.

عرض سكستوس أمبريكوس التجريبي Sextus Empiricus - الذي لم يكن نزيها حيالهم حسب أمبرتو إيكو⁽²⁴⁾ - (نظرية الأمارات الرواقية على الشكل التالي: يقول إن الرواقيين كانوا يميزون في الفعل الإدراكي بين ثلاث لحظات مترابطة فيما بينها بلا انفكاك. أولا: التي تكون مدلولة بالأمانة؛ ثانيا: الأمانة نفسها؛ ثالثا موضوع الفكر. وفي هذه اللحظات: الأمانة هي الكلمة، والتي تكون مدلولة بالأمانة هي التي تشير إلى الكلمة (معنى الكلمة)، وأخيرا موضوع الفكر هو الموضوع الذي يوجد بذاته (خارج معرفتنا) والذي يتعلق به فكرنا. والكلمة والموضوع ماديان أما الذي يكون مدلولاً عليه بالأمانة فهو ليس بمادي، وهو مضمون الفكر والذي يستطيع أن يكون صحيحا. ويجب تمييز هذه اللحظة الثالثة (علم الدلالة) للكلمة نفسها؛ لأن النس الذين لا يعرفون اليونان يسمعون جيدا الكلمات اليونانية لكنهم لا يفهمونها. وكان الأبيقوريون ينكرون هذه اللحظة الثالثة، ويعتبرون أن الكلمات تعود إلى الموضوعات المنفردة نفسها)⁽²⁵⁾. وإذا أبنا إلى السؤال السابق لألينا أن وجه التباين بين الرواقيين والأبيقوريين يكمن في اختلاف درجة نزعتهم الاسمية بين التطرف الأبيقوري والاعتدال الرواقي من جهة وأن السيمبثيات الحديثة قد تعددت مشاربها، وصارت منطقا واصفا لكل المعارف والعلوم من جهة أخرى.

ومن هنا يمكننا القول مع بروشار بأن لمنطق الرواقي قائم على أساس نظرية العلامات؛ ولا سيما في نظرية البرهان. فقد رأو بأن هناك ارتباطا وثيقا وضروريا بين العلامات وما الأشياء التي تدل عليها. وتتمثل قيمة "نظرية

Umberto Eco, Sémiotique et philosophie du langage, p. 39.

(24)

(25) ألكسندر ماكوفسكي، تاريخ علم لمطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 188.

العلامات' في منطقهم أن خصومهم من الشكاكيين حاول الإتيان على متصوراتهم السيمائية حتى ينقضوا بنياهم المنطقي. ولعل هذا السبق لتاريخي لم يستوعبه كثير من مؤرخي الفلسفة؛ وكان لا بد من انتظار تطور اللسانيات وميلاد السيمائيات لمعرفة قيمة إسهامات فلسفة الرواقين ومنطقهم. إن العلامة وبخاصة الطبيعية منها تتصف لديهم بالمعقولة؛ وأساس هذه المعقولة العقل الذي ينك على معاينة الوقائع. وتتمثل دعواهم الرئيسة في نسقهم الفلسفي على الاعتقاد بأن (العقل الكلي يسيطر في العالم، وبمقدار ما تكون قوانين الطبيعة تجليا له تكون أبدية وثابتة وضرورية)⁽²⁶⁾. وقد خصصوا العلامات البسيطة دون العلامات الكلية على الدلالة لكونها تعتمد على التجربة؛ ومن ثم على الدلالة. لقد قسموا العلامات إلى تذكارية *commémoratifs* وكاشفة *révélatifs* بينما لا يؤمن اسكسنيوس بوجود العلامات الكاشفة التي ينسبها إلى الأنواع؛ لكوننا لا نستطيع أن نستخلص منها معرفة أكيدة بينما ينسب العلامات التذكارية إلى الأجناس التي يمكنها أن تكون متعددة المعنى، وتستدعي أشياء كثيرة بالمرّة. فالعلامات التي توصف بالتذكارية تفتقر إلى خصيصة تعدد المعنى بمفردها، ولا تحصل لها هذه الخصيصة إلا بقوة المواضعة، بينما العلامات الكاشفة هي علامات طبيعية بواسطة حدها.

ولكن هل يعني ذلك أن اتجاههم السيميائي يقوم على نزعة تجريبية أم على نزعة عقلية؟! إن الرواقين لم يوفقوا توفيقا ناجحا في تقديم إجابة واضحة لهذه الإشكالية الفلسفية مما نعكس سلبا على قدرتهم في تقديم حلول لمشكلات المعرفة. وهكذا عجز مشروعهم السيميائي في معرفة الوقائع الموضوعية الضرورية بناء على الاستدلالات السيمائية التي كانت تنطبع إلى الوصول إلى قيمة برهانية صلبة.

لقد وضع الرواقيون في منطقهم جدولا للقضايا الصحيحة وغير الصحيحة على النحو الآتي⁽²⁷⁾:

1 - "إذا طلع النهار فالنور موجود" صحيحة. هنا المقدمة والنتيجة صادقتان.

(26) المرجع السابق، ص. 194.

(27) ألكسندر ماكوفسكي، تاريخ علم المطلق، بر. بديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 189.

"إذا طارت الأرض فلها أجنحة" صحيحة. هنا المقدمة والنتيجة كاذبتان.
 "إذا وجدت الأرض فهي تطير" غير صحيحة. فالمقدمة صادقة والنتيجة كاذبة.
 "إذا طارت الأرض، فالأرض موجودة" غير صحيحة. هنا المقدمة كاذبة والنتيجة صادقة.

وإذا مثلنا بالقضية الآتية: "إذا طلع النهار فالضوء موجود". فهناك قسم أول يتمثل في علامة "النهار" أما القسم الثاني فهو ما يشار إليه بعلامة "الضوء". وتكون العلاقة بينهما ذات طبيعة لزومية؛ وهذا الاستنتاج الناتج عن هذه العلاقة يكتسي صفة تحليلية (لأنه مؤسس على ارتباط ضروري وعلى علاقة استتباع ضرورية أو على الوضع العكسي والصلة بين الشيء والأمانة التي تعلله معروفة بحيث إن نهي النتيجة دائما يقود إلى نفي القسم الأول للقضية بشكل ضروري، مثلا: "إذا طلع النهار، فالضوء طالع، في هذه اللحظة لا يوجد ضوء، إذن في هذه اللحظة لا يكون النهار"⁽²⁸⁾. إن ذلك سيقرب من المنطق الرواقي من اللوجستيكا المعاصرة مما يؤهله لأن يتبوأ مكانة مرموقة وقبلة كبيرة في أدبيات التفكير المنطقي الذي شهد تحولات عميقة في القرنين التاسع عشر والعشرين.

على الرغم من أن هذه الاستدلالات أخذت طابعا تحليليا وليس تركيبيا إلا أن نسقيتهم الثابتة المؤمنة بفكرة التماثل في الطبيعة⁽²⁹⁾ لم تعرف كيف تنتقل انتقالات ناجحة من طور التجربة إلى طور العقل؛ لأن الاستدلال ينطلق في نظرهم - من العلامة البسيطة وصولا إلى الأشياء العسية على الإدراك الحسي الأولي.

لاحظنا بأن الرواقيين اعتنوا كثيرا بالقضايا الشرطية، وأنزلوا العلامات الخاصة منزلة كبرى بوصفها هي الشرط الصحيح الذي يتقدم على كل قضية شرطية، ومنه تنبثق النتائج في القياس الشرطي المتصل⁽³⁰⁾. إن العلاقة بين العلامة وما تشير إليه تضبطها صيغة القضية الشرطية على النحو الآتي: "إذا وجدت (ع) توجد (غ)" وفي أي علاقة تكون (ع) هي علامة لـ(غ). وإذا قدرنا نسبة العلامات هذه على

(28) المرجع السابق، صص. 189 و190.

(29) ألكسندر ماكوفسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 192.

(30) ينظر حول تريكو، المنطق الصوري، تر. محمود يعقوبي، صص. 283 وما بعدها.

الموضوعات التي تدل عليها فإنها تكون ذات كل استدلال (وعنى قاعدة كل استدلال توجد القضية: "إذا وجد ذلك يوجد ذلك" التي تنجم عن الفرض (الوضع) العام الرواقي الذي بحسبهم يكون كل م هو محدد في الطبيعة مرتبطا بالتبادل (باتفاق الطرفين)، وفي كل مكان يسيطر قانون عنيف⁽³¹⁾. وإذا وقفنا على جملة من طبيعة الصانع التي ذكرها ابن باجة، وأشرنا إلى صناعة المنطق وصناعة الفلسفة والصنائع القياسية لوجدنا بعض المتصورات المتعلقة بطبيعة العلوم والمعارف محصورة بالأسيقة الثقافية السائدة آنذاك. فإن صناعة المنطق تتوافر (على جميع اللواحق العارضة في ذهن الإنسان للموجودات عند نظره في موجود موحود منها. وبهذه اللواحق ومعرفتها تكون آلة في إدراك الصواب والحق في الموجودات. فلما كانت كذلك جعلها قوم آلة للفلسفة لا جزءا لها. ومن حيث تلك اللواحق موجودات، وعلمها علم نوع من الموجودات، جعلها قوم جزءا من الفلسفة، والأمران موجودان فيها⁽³²⁾. وهذا الرأي ينطوي على نظرة إلى المنطق تتسم بالاعتدال، وتتساوق مع النسقية الأرسطية من جهة ومع المذهب الروقي من جهة أخرى.

تتجلى ضرورة علاقة الاستنزام في منطق الرواقيين بوضوح في القضايا الشرطية التي لها سلطان كبير في العالم؛ ولا غرو أن ترى علاقة الاحتواء بدورها تطورا ملحوظا بحيث سيكون لهذه العلاقات منزلة مميزة في المنطق الرينسي الحديث. كان الرواقيون يعتقدون - في نظر ف. واي. دي لاسي (Ph. Et E. De Lacy) بأهمية التمييز بين (العلاقة التضمنية الشديدة والعلاقة التضمنية غير الشديدة كأنها القاعدة في المنطق الرمزي المعاصر)⁽³³⁾. ولهذا سنجد بأن فكرة الضرورة تكاد تهيمن على منطقهم الذي جعل لاينتز يرتكز عليه في وضع أسس المنطق الرمزي.

كثيرا ما تقرب كتب تاريخ المنطق بين لرواقيين وجون ستيوارت ميل في كثير

(31) الكسندر ماكوفسكي، تاريخ علم المنطق، تر. بديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 188.

(32) ابن باجة، التعاليل المنطقية، نع. وتق. محمد إبراهيم ألوزارد، دار الكتاب العربي، تونس وليبيا، 1997، ص. 28.

(33) م. س.، ص. 189.

من المسائل المنطقية مثل التعريف والأجناس وتفاضل الأنواع، وبخاصة أن ستيوارت ميل وهوبز ينتقيان في النسقية الاسمية التي لا تناصر ما انتهى إليه المنطق الأرسطي؛ ولكن من الشطط بمكان أن ينسب إلى الرواقيين الاهتمام بالاستقراء الذي كان يمثل قاعدة المنطق الأبيقوري؛ ولعل ذلك ما يقرب ستيوارت ميل من الأبيقوريين وعلماء الأصول المسلمين في هذه الناحية بخلاف المنطق الرواقي. كما حاولت الكانطية أن تطور مفهوم القبلية في الفلسفة الرواقية، لا تعني القبلية بالضرورة الأفكار الفطرية التي نقدتها الرواقية نقدا قاسيا، وإن ارتبطت بتصوراتهم للنفس تصورا ماديا واسميا.

يشير رولان بارت إلى الرواقيين في أثناء تناوله لمفهوم المدلول الذي لا ينظر إليه على أنه شيء وإنما تمثل نفسي، وهو ما أكده دو سويسر نفسه حينما أسماه مفهوما. فإن كلمة ثور لا تدل على الحيوان ذاته وإنما صورته النفسية (...ربما كان من الأفضل تتبع تحليل الرواقيين، وكان هؤلاء يميزون بعناية بين (التمثل النفسي) وبين (الشيء الواقعي) وبين (الما يقال)؛... ليس المدلول فعل وعي، ولا حتى واقعا، وإنما لا يمكن تعريفه إلا ضمن سيرورة الدلالة، وبكيفية تكاد تكون من باب تحصيل حاصل: إنه ذلك "الشيء" الذي يعنيه مستعمل الدليل⁽³⁴⁾.

لقد اختزل المنطق الرواقي ذو الخصيصة الاسمية المادية مقولات أرسطو العشر إلى مقولات أربع إلى: (1 - الجوهر الجسماني... 2 - الكيف أي الماهية الفردية... 3 - الحال أو المادة الفردية الملتبسة بحال معينة... 4 - النسبة... وخلافا للمقولتين الأوليين فإن المقولتين الأخيرتين تمثلان ما ليس جسمانيا في (الشيء) وما هو آت من الأشياء الأخرى وما لا يظهر إلا بالقول. إنه المدلول (الليكتون)⁽³⁵⁾. ولم يتعامل الرواقيون مع الأجناس والأنواع إلا بوصفها أسماء تتضمن ماهية الأشياء. وذلك ما أكده هوبز في القرن السابع عشر.

وفي معرض حديث عادل فاخوري على أمثلة من الدلالات الطبيعية، فهي

(34) رولان بارت، مبادئ في علم الأدلة، تر. وتق. محمد الكوي، دار قرطبة، المغرب، 1986، ص. 71 و 72.

(35) جون تريكو، منطق الصوري، تر. محمود يعقوبي، ص. 86.

ترجع من وجهة نظر حديثة إلى صنف القرائن (وعلى وجه التخصيص إلى علاقة أثر بمؤثر. كذلك من وجهة نظر تاريخية، التقسيم الثنائي للدلالة عند أرسطو إلى وضعية thesei وطبيعية physei يجمع تحت هذه الأخيرة مفهوم كل من الداليتين العقلية والطبيعية عند العرب:

Thesei	physei		أرسطو
وضعية	عقلية	طبيعية	العرب

لكن يبدو أن التقسيم الثلاثي عندهم هو مزيج مقتبس عن تصنيف أرسطو وتصنيف الرواقين معا.

وبالفعل يميز الرواقيون حسب سكستوس أمبريقوس Sextus Empiricus صنفين من العلامات استنادا إلى تمييز صنفين من الأمور: الأمور الغامضة لفترة والأمور غير المتينة بطبيعتها⁽³⁶⁾. فمن الصعب التعويل على سكستوس أمبريقوس المعادي للرواقين في إظهار جوهر معرفتهم حول العلامة التي لا تخلو من تعقيد نظرا لأنه لم يصلنا من كتاباتهم إلا شذرات قليلات قدمها أحد خصومهم كما أومأنا إلى ذلك. ومهما يكن فإن منطق الرواقين إذا انضاف إلى حوارات سقراط ومنطق أرسطو وفلسفة دونس سكوت ستكون المنطلقات الأولى لبراعماتية بورس التي تكتسي خصيصة منطقية، وليست فلسفية خالصة اصطنعها في بدورة نظريته حول العلامات.

(36) عدل فاخوري، علم الدلالة عند العرب (دراسة مقارنة مع السيمياء الحديثة)، ص. 24.

الفصل الثاني

السيمانيات ولغة الحساب

علامات الجبر ومنطق بور رويال

أثرت الفلسفة الرواقية ومنطقها - الذي يعد جزءاً لا يتجزأ منها - تأثيراً قوياً في لفكر الفلسفي الحديث؛ ولا سيما أنهم كانوا طلاب الوضوح ودعاة جلاء الماهيات؛ ولهذه الدعوة حضورها في فلسفة ديكارت التي سرعان ما حولت الماهيات إلى أفكار وكذلك في مكونات البلاغة الغريبة وخطابها العلمي الذي يتوخى البحث عن معايير الحقيقة. وتلك سمات نظرية المعرفة التي انشغل بها الفلاسفة والمفكرون والعلماء على سواء. ولعل ذلك ما سيكون الشغل الشاغل للبحوث السيميائية ذات الصبغة الفلسفية.

ما هي الأسباب التي تدفع الناس إلى تجنب الدروب البسيرة للوصول إلى الحقيقة؟ ولماذا يرتكبون الأخطاء الشنيعة؟ ولماذا لا يهتدون إلى القضايا الصحيحة؟ يجيبنا ديكارت بمنطق الرواقين بأن ذلك عائد إلى طبيعة أعمال النفس الحرة؛ ولهذا فهم يتحملون تبعات أخطائهم. وإذا كان ديكارت قد وجد ضالته في فكرتهم حول بلاغة وضوح الأفكار، فكذلك عمق كل من جون لوك وكوندياك نقدهم للأفكار الفطرية من منظور نزعة حسية وبناء معالم فلسفة التربية على قاعدة تصورهم للنفس تصوراً مادياً، وبالمثل فقد نبى هوبز وجهة نظر المنطق الاسمي، وعمل على تطويره ومشايعتهم في نقد منطقي أفلاطون وأرسطو. وهكذا بدا أن العقلانية لا بد أن تمر على طريق الإحساسات في النظرية العلمية، وترسم طريقها إلى التفكير التجريبي الذي وسم فلسفة القرن السابع عشر في أوروبا بميسمه. وفي المقابل كانت السيميائيات هي الأخرى تأخذ سبيلها إلى النزعة التجريبية.

ظهر منسق بور رويال في فترة تاريخية بدأت تعرف نهضة فكرية وثقافية واسعة في حين كان العصر الوسيط يجهل اللغة الإغريقية ومن ثم لم تتمكن

الفلسفة الوسيطة أن تتعرف إلى منطق أرسطو في أصوله وبخاصة أن الظهور المتأخر للفيلولوجية لم يساعد الفلاسفة على قراءة النص الفلسفي اليوناني في لغته الأصلية. فقد عرف منطق بول رويال بمؤلف منسوب إلى هذه الجماعة موسوم بـ: "المنطق أو فن التفكير" كته أنطوان أرنولد وبير نيكول اللذان جاهرا أرسطو العداء بروح ديكرتية واستنادا لأراء بامكال وانتقادات راموس Ramus، وكان لا يعرفانه معرفة عميقة فيما تحدثت كتب تاريخ المنطق⁽¹⁾، ونشر في عام 1662.

ظهرت طبقات عديدة تنيف عن أربع وأربعين طبعه، وأصبح نصا تعليميا يدرّب طلبة العلم على فن التفكير من أجل التوليف الحسن للكلمات والصيغ. ويلاحظ تأثير ديكرت الذي أسهم في انتقال التفكير من طور الكيف إلى طور الكم على الرغم من أنه لم يكب على بناء منطق جديد بقدر ما ركز على تأسيس البوادر الأولى للمنهج العلمي انطلاقا من مؤلفه "خطاب في المنهج"؛ وذلك بفضل تقدم الرياضيات بوصفها منطق لعقل بدل منطق التصور الذي وضعه أرسطو. فلما يضاف منطق بور رويال إلى منطق بيكون يمكن القول (إن المنهج الاستدلالي والمهج التجريبي قد تكوّن في القرن السابع عشر بصورة واضحة)⁽²⁾. وهكذا طفت الأنساق الاستدلالية تنضج مع إسهامات علماء الرياضيات والمنطق.

بعدها كان المنطق أرسطو وعلماء لدى الرواقيين والفلسفة المدرسية صار فنا لدى بول رويال. إذ لم يعد المنطق نظرية ولكنه معرفة تطبيقية؛ إذ تم تقسيم الأفكار إلى جزئية ومفردة وعامة وتسمى كلية أيضا، و سبّز للوجود من خلال تقسيم هذه الأفكار إلى مفاهيم سيكون لها سعوة وسلطان في أدبيات القواعد اللغوية مما يؤكد العلاقة الحميمة التي كانت بين المنطق والنحو. وقد انتقدت اللسانيات الحديثة تأثير لمنطق في الدراسات اللغوية وبخاصة أثره السلبي في العملية التعليمية للغة. إن الأسماء التي تستعمل للدلالة على الأفراد يسمونها اسم عام مثل زيد وعمرو أما الأسماء التي تدل على الكليات فتسمى

(1) جول تريكو، لمطق الصوري، تر. محمود يعقوبي، ص. 45.

(2) عبد الرحمن بدوي، مساهم البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط. 3، 1977، ص. 5.

نكرة مثل: كتاب وقلم. وحينئذ ترتبط الكلمات⁽³⁾ بأفكار عامة وعديدة تكون مشاركة مثلما هو الحال في الكلمات المكررات، وتكون ملتبسة عندما يكون الصوت ذاته له علاقة بمعان مختلفة وعديدة.

حظي مفهوم الكلمات بمنزلة متميزة لم تحظ بها لدى الرواقيين الذين كان مفهومهم للعلامة أوسع مما سجد في منطق بول رويال. لقد حاول هؤلاء (أن يكشفوا عن وحدة القواعد التي تركز عليها القواعد المستقلة للغات المختلفة، في دورها في التفكير الاتصالي الذي يشتمل هو نفسه على الإدراك والحكم والتعليل)⁽⁴⁾. وستلبي أن المحمولات تحتوي على مضامين الأفكار، وأن امتداد الفكرة يتمثل في الموضوعات التي تتصل بهذه الفكرة.

حدد منطق بول رويال لمحمولات فيما يأتي: إن الكليات هي:

1 - الأجناس، 2 - الأنواع، 3 - الفصول، 4 - الخصائص، 5 - الأعراض.

إن تصنيف نظرية الحدود المعقدة في المنطق هي من الأهمية بمكان؛ حيث هناك حدود تامة وحدود نافصة وحدود دالة في ذاتها وحدود دالة في غير ذاتها. فإدراكنا (قلت مثلاً، الإنسان الذي هو حيوان موهوب بالعقل، أو الإنسان الذي يحلم بشكل طبيعي أن يكون سعيداً، أو الإنسان الذي هو زائل). هذه الإضافات ليست سوى تفسيرات؛ لأنها لا تغير أي شيء في فكرة الكلمة "إنسان". وكل الإضافات التي يلحقها بالأسماء التي تشير بوضوح إلى فرد، هي بهذا الشكل... لأن الحدود الفردية... تأخذ في جميع امتدادها، وتكون محددة لكل ما يكون كذلك⁽⁵⁾. وعليه كان الفهم⁽⁶⁾ لديهم عبارة عن تعريف يتم بمساعدة أفكار أخرى.

بيان العلامة وجلالها:

يعكس منطق بور رويال تأثيرهم بجوهر فلسفة ديكارت التي كانت تنشد وضوح الأفكار وبيانها، وتنبت كل ما يحلها غير واضحة. إن درجة بيان الفكرة

(3) ينظر ألكسندر ماكوفسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 322.

(4) ينظر ر. ه. رويتر، موخر تاريخ علم اللغة (في الغرب)، تر. أحمد عوض، عالم المعرفة، ع. 227، 1997، لكوت، ص. 208.

(5) ينظر ألكسندر ماكوفسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 324.

(6) Sylvian Auroux, La philosophie du langage, p. 198.

ووضوحها مرهونة بمدى تأثيرها فينا تأثيراً قوياً على العكس من الأفكار المتنبسة التي تنزع إلى الضبابية نظراً لأنها تترك انطباعات حسية مختلفة لدى الأفراد حول معطيات العالم العياني المباشرة. وهذا ديدن العلامات المتأتية من مداخل الحس: اللون والصوت والرائحة وما إلى ذلك من إحساس بالبرودة والحرارة وسائر الأحاسيس الأخرى. ستجد هذه التصورات مكانتها ضمن المنطق الضبابي للغة. فعندما نقول هذا قصير لا بد من تحديد مفهوم القصير؛ ولذلك كان هذا المنطق يستمد دعاواها من الديكارتية ذات النزعة المثالية الذاتية وممارسة روح الشك القديمة وكثيراً من متصورات الفلسفة الأوغسطينية.

بات من ضرورة بمكان الدعوة إلى البحث عن لغة يتكلمها العلم، وتكون قائمة على بلاغة الوضوح تختلف عن منطق اللغات الطبيعية. إن هذه الأفكار ستجد صداها الواسع في فلسفة لايبنتز والمنطق الرمزي. إن لاعتماد على الكلمات اللغوية لا يحقق مقاصد منطق بور وويل الذي لا يهتم بالكلمات اللغوية في ذاتها؛ ولكن من حيث هي أفكار دالة على التصورات. وبناء على نرعتهم الداعية إلى تأسيس قواعد عامة فقد قسموا الكلمة الكلاسية إلى تسعة أقسام: (الاسم والأداة والضمير والبرتسيل وحرف الجر والظرف والفعل والرابطة والتعجب، ولكهم أعادوا تقسيمها على أساس دلالي، فالأقسام الستة الأولى ترتبط بمقاصد تفكيرنا، وترتبط الثلاثة الأخيرة "بشكل أو بطريقة" هذا التفكير، وبقي التقسيم الشائني الأساسي "اسم - فعل"، ولكن التقسيم الثاني حول هذا لتقسيم كان تقسيماً مختلفاً⁽⁷⁾. إذا كانوا قد نادوا ببناء كلمات جديدة فلم يروا ضرورة لاستخدام أصوات جديدة فاكتفوا باتباع الطرائق التقليدية في التفكير الصوتي.

وما يعيننا من ذلك كله علاقة الكلمة بالتعريف والتمييز بينهما. فهناك التعريف الواقعي وتعريف الأشياء، (لكن يجب الاحتراز من الخلط بين التعريف الاسمي الذي يكون مسألة هنا، والذي يتطلب الدقة العلمية وبين التعريف الذي يُعطي للكلمة المدلول العادي الذي يكون في لغة السامع، من هنا التفسير بأن كلمة تعني

(7) ينظر ر. ه. روينز، موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، تر. أحمد عوض، ص. 208.

بحسب علم الأجدس عنده. والتعريفات الاسمية، اعتبارية، أما التعريفات الواقعية فهي ليست كذلك، في الواقع كل صوت يمكنه من خلال طبيعته تعيين كل أنواع الأفكار... أما تعريفات الأسماء فلا يمكن أن تكون موضع نزاع من أجل ذلك هي اعتبارية... يكون تعريف الأشياء مبرهنا إذا لم يكن واضحا في ذاته كمسلمة. أما التعريفات الاسمية فليست بحاجة لأية برهنة⁽⁸⁾. لقد انتصرت جماعة دير بول رويال إلى النسقية في مؤلفهم حول القواعد العامة المعقولة بقانون الاستعمال في اللغة مهما كان صفته الاعتبارية. ولكن هذا قد يتعارض مع مساهمهم إلى بناء قواعد عامة لم تشمل سوى اللغات الإغريقية واللاتينية والعبرية والفرنسية.

لا يكتسي مفهوم التعميم قيمة علمية كبيرة؛ لأن هناك لغات قد لا تستجيب لهذه القواعد التي تحاول تحليل اللغة تعليلا منطقيا. إن أرنولد ولانسولو (يثبتان إن الاسم الموصوف يفيد الماهية، وأن الصفة لا تفيد إلا العرض، بالمعنى السكولاستي لهذين التعبيرين. ولكنهما لا يعللان الأسماء الموصوفة التي تعني الأعراض (مثل احمرار الوجه) ولا الصفات التي أنهى بها الأمر إلى التعبير عن الماهية (مثال: إنساني، فلسفي، أبيض). أما نظريتهما في الأفعال فإنها تسوقها إلى التنديد ببلاغة أرسطو استنادا إلى منطقته بالذات⁽⁹⁾. وهذا ما يمكن أن يتوافر على رؤية سيمانية انطلاقا من تصورهم للوجود. فهناك أنساق قارة في اللغات يمكن أن تتزاح لتصبح أساقا كونية تشمل جميع الخطابات بعامة ولسردية بخاصة؛ ولعل ذلك ما يسمح بالوقوف على الملامح الأولى للسيمانيات المحيثة. ولا غرو أن يلقي إسهامهم استحسانا من قبل كل من دو موسير وتشومسكي.

نقد النسقية الأرسطية

لم يتبن منطق بور رويال الأنساق المنطقية التي طرحها الفلاسفة الذين سبقوا هذه الجماعة؛ ولعل أبرز ما انتقده منطقهم النسقية الأرسطية التي كان لها انتقاء في دراسة بعض الأنواع من الأحكام لا كلها؛ وعلى الرغم من تعددها فإن

(8) ينظر ألكسندر ماكوفسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء لدين وإبراهيم فتحي، ص. 326.

(9) جورج موبان، تاريخ علم اللغة، منذ نشأته حتى القرن العشرين، تر. بدر الدين القاسم، مطبعة جامعة دمشق، 1972، ص. 132.

منطقهم كان يتحدث حديثا خاصا (عن القيمة الإدراكية للأحكام المميزة (مثل، فقط بعض من هي ص)، وللأحكام المانعة (مثل، كل من ما عدا واحدة هي ص). ونحدث فيها أيضا عن تنوع في الأحكام المركبة المحددة بالقضايا التي تكون مرتبطة بروابط من كل الأنواع... يجب عدم الخلط بين تعريفات الأسماء وتعريفات الأشياء. فتعريف الأسماء اعتباطي، ويتعلق بنا، بينما تعريف الأشياء لا يتعلق بنا بل هو مكنون في الفكرة الحقيقية للشيء⁽¹⁰⁾. ويعرف منطق بور رويال المقولة بقولهم: (إنها مختلف الأصناف التي أراد أرسطو أن يرد إليها جميع موضوعات فكرن بوضع جميع الجواهر في الصنف الأول، وجميع الأعراض في الأصناف التسعة الأخرى)⁽¹¹⁾. إنهم سلموا بالمصادرة التي فحواها بأن المنطق يدرس القوايين التي تكون موجودة، وتتبعها بحرية، وعليه فالمنطق هو نظرية الفكر. فكانوا أول من ميزوا بين المفهوم والماصدق؛ حيث سيكون لهذا التمييز تبعات كبيرة في تصورات المنطق وفي فلسفة اللغة والسميائيات. ولا سيما إذا استحضرننا المتصورات الفيومينولوجية التي تنطلق من أن الشيء سابق على الوعي. فهل يعني ذلك أن الماصدق سابق على المفهوم؟ فالمعنى يترتب إذا كان ينشد الحقيقة أن يحصل تطابق بين الماصدق والمفهوم.

بما أن ديكارت أسلم القيادة للعقل الإنساني، وجعله أعدل قسمة بين البشر. فلا غرو أن ما يقع فيه لناس من أخطاء استدلالية تعود أسبابه في نظر جماعة بول رويال إلى المبادئ المغلوطة التي يستندون إليها في توسلهم إلى صدق الأفكار وصحة الأحكام التي ينتهون إليها في أثناء تدقيقهم للقضايا وتأملهم للموضوعات والمحمولات. إن الأخطاء الملتبسة لا تتعلق فقط بالأحكام؛ ولكن أيضا بالحدود وبخاصة ما تتعلق بالاعتقادات لدى العامة التي عادة ما تتأني من المقارنات والأمثلة التي تصاغ منها الحدود.

إن الحكم الصادق أو الكاذب لا يتم إثباته أو نفيه فقط بالتدقيق بين فكرتين، بل يقتضي الأمر استدعاء فكرة ثالثة يكون وسيطا بين موضوعات الأحكام ومحمولاتها. وعلى هذا (تقوم طبيعة الاستدلالات. في أي استدلال، تحل مسألة

(10) ينظر ألكسندر ماكوفلسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 327.

(11) جول تريكو، المنطق السوري، تر. محمود يعقوبي، ص. 86.

الصدق أو الكذب لأي حكم، يسمى موضوع هذا الحكم "مقدمة صغرى" ("حد أصغر")، والمحمول "مقدمة كبرى" ("حد أكبر")، لأن للموضع امتداداً أقل من المحمول. والمفهوم الثالث الذي نلجأ إليه لوضع العلاقة (الإيجابية أو السلبية) التي توجد بين الحدود الصغرى والكبرى يسمى "الحد الأوسط". يحتوي الاستدلال مقدمتين (كبرى وصغرى) ونتيجة. لكن ليست المقدمتان محددتين دائماً بشكل واضح. ففي هذه الحالة، يكون لدينا استدلال يسمى "قياس إضماري" وهو قياس حقيقي في الذهن، هذا القياس غير تام، أي أنه محدد بطريقة غير كاملة، لأن إحدى مقدمتيه مضمرة⁽¹²⁾. إن القياس بهذا التصور يمكن أن يكون آية من آيات التحليل السيماني حينما نحتاج إلى عمليات الاستدلال من أجل التعرف إلى العلامات الطبيعية والعقلية.

يقسم منطق بور رويال⁽¹³⁾ الأقيسة إلى أقيسة بسيطة simples واقترانية conjonctifs. فالأقيسة البسيطة هي التي لا يكون فيها الحد الأوسط متصلاً بالمقدمات إلا بواحد من الحدود المتطرفة؛ وعليه فإن القياس الحملية هو الذي يضطلع بهذه القسمة. أما الأقيسة الاقترانية هي التي يتصل الحد الأوسط فيها بالحدين المتطرفين. لقد كانت أنسقة المنطق في القرن السابع عشر تتجاوز النظرية السابقة للاستنتاجات التي لم تكن تسلم بمثابة استنتاجات أكيدة إلا الاستدلالات القياسية. وكانت الأنساق المنطقية في القرن السابع عشر تعيب بعزل لأنساق الاستنباطية عن الاستقرائية، ومقابلة الاستقرار والاستنباط، دون رؤية وحدتهما وعلاقتها التي لا تنفصم⁽¹⁴⁾. كما أن مفهوم القصدية لا تعود إلى برنتانو ومريده هوسرل فقط، وإنما نجد لها حضوراً في منطق بول رويال الذي يؤكد بأن (كل فعل عقلي ضروري لبناء ملفوظ يجتهد من أجل بناء تمثل للتفكير الإنساني الذي يركز ارتكازاً كلياً على مضامين الوعي التي هي الأفكار)⁽¹⁵⁾. إن فكرتهم اكتسبت بعض المشروعية لكونها شاكلت بين حسابي الأصناف والأفكار، ومن

(12) ينظر ألكسندر ماكوفلسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 328.
Antoine Arnauld et Pierre Nicole, La logique ou l'art de penser, éd. Flammarion, 1970, p. (13)
236.

(14) ينظر ألكسندر ماكوفلسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 329.
Sylvian Auroux, La philosophie du langage, p. 198. (15)

ثم بلورت روح المحايثة والنزوع نحو جوانية لأفكار التي كان لها صدى في بعض الاتجاهات السيميائية الحديثة.

ظلت الرياضيات الأنموذج الأعلى للتفكير الفلسفي وبخاصة في العصر الحديث؛ ولا سيما في زمن ديكرت واسبينوزا ولايبنتز، ثم كانط والفلسفة التحليلية؛ إذ طوق اسبينوزا المنهج الهندسي تعميقا للروح الديكارتية في أبحاثه الفلسفية حول الأخلاق. فكان العقل هو الهادي إلى طريق المعرفة، فاتبع في بسط أفكاره المنهج الهندسي على طريقة إقليدس؛ حيث (يبدأ بالتعريفات، حتى يكتمل بالمسلمات أو بالاصطلاحات، ثم تأتي النظريات أو الفروض، وأخيرا، تأتي الحجج أو البراهين، التي تكون الفرضيات السابقة، وهذه الأخيرة، هي حقائق واضحة في ذاتها)⁽¹⁶⁾. لقد أثرت الديكارتية وفلسفة القرن السابع عشر من حيث اصطناع المنهج الرياضي/الهندسي في طرائق تحليل الأفكار على نحو منطقي يكون فيه للسقطة حظ أوفر، وللعلامة (الدليل والحجة) سطة واسعة في التحليل المنهجي للقضايا.

إن هذا الإعجاب بالهندسة ومنهجها التحليلي نجد له حضورا كبيرا لدى الفيلسوف المسلم ابن باجة؛ إذ راعه الاتساق المنطقي وشغف به (في رسم الخطوط والسطوح والقطوع ووعي بوظيفتها الحيوية في تقويم الفكر الإنساني المقبل على البرهان... فإقبال ابن باجة على الهندسة والاستنباط الهندسي مسحه طاقة نادرة على التخلص من سائر أنماط الاستدلال والحجاج في غير العلوم الفلسفية)⁽¹⁷⁾. وهذا يؤكد أهمية الهندسة في حياة كثير من الفلاسفة القدماء والمحدثين، ومثال على ذلك مؤلف أصل الهندسة⁽¹⁸⁾ لهوسرل.

يتوافر مشروع بور رويال على كثير من الأمثلة التي نلاحظها في الاستعما السائد في التفكير، ويسعى إلى التوليف أو الربط ذاته بين القواعد التقليدية وتكوين الحكم. إن منطق الحكم (دون قواعد صورية) يسخر من منطق العقل

(16) ينظر ألكسندر ماكوفسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 330

(17) محمد إبراهيم الوزارد، تقديم كتاب التعليقات المنطقية لابن باجة، دار الكتاب العربي، تونس وليبيا، 1997، ص. 7.

(18) لقد نقله دريدا إلى الفرنسية عام 1962. 1962. L'origine de la geometrie de Husserl, Paris, éd. Puf.

(19) حول تريكو، المنطق الصوري، تر. محمود يعقوبي، ص. 89.

(المدرسيون). ويعدون العقل والمقدار والسكون والحركة والوضع والشكل من المقولات⁽¹⁹⁾، وتكون بدايات للأشياء حينما تربط بالمادة. ولكن (قانون بول رويال يمثل بلا شك المفهوم الأكثر بساطة ووضوحاً وأكثر قوة بخصوص دعوى القصدية)⁽²⁰⁾. لقد حاولوا تأسيس منطق⁽²¹⁾ بوصفه حساباً حول الأفكار.

يعد التفكير أمراً طبيعياً، ثم تنبثق بعد ذلك القواعد منه؛ وعليه فهو لا يتوافق مع الروح الصورية الخالصة، بل يناصبها العداء. وهذا ما نقف عليه في أشكال متباينة في دعاوى بور رويال. إذ لم يتحمسوا إلى أي صيغة خطاطية مع إقصاء استعمال المتغيرات وتفضيل الأمثلة الملموسة، وأن التدريب على قواعد التفكير تنأى من الاستعمال؛ وهذا ما يبرر النقد الذي وجه إلى نظرية القياس التي بانح في اصطنائها الفلاسفة المدرسيون.

الاسمية وحساب الأسماء

تعاملت الفلسفة التقليدية مع نظرية اللغة على أنها ترجمان للفكر. فلنسق السيميائي ما هو إلا تجل ملموس لما يعتمل في النفس، ويأتي دور العلامة اللسانية بوصفها حاملة للفكر وقادرة على إحضار ما هو غائب لتمثيل الداخل (الفكر) بواسطة الخارج (اللغة)، وتنسج تأملات فلسفة هوبز اللغوية في هذا السياق؛ إذ تنظر إلى الفكر ويضمّنه اللغة على أنها عمية حسابية أو جبرية كما هي لدى لايبنتز أو كوندياك مؤلف "لغة الحساب"، وإن كان لايبنتز قد انتقد دعاوى هوبز [1588 - 1679]، بل إنها تعد امتداداً لفلسفة ديكارت واسبينوزا في الإعلاء من شأن المنهج الهندسي في تفسير الأخلاق والمجتمع فضلاً عن القضايا العلمية. لقد دفع التوجه الاسمي لفلسفة هوبز القائلة بعدم وجود فكرة عامة بأن تقبل قبولاً لا تردد فيه التسليم باعتبارية اللغة والفكر على سواء؛ لأن الكلمة وحدها هي لفظة عامة⁽²²⁾ استجابة لدعاوى النزعة الاسمية التي كان

Sylvain Auroux, La philosophie du langage, p. 199

Ibid. p. 199.

voir Sylvain Auroux, La philosophie du langage, p. 219.

(23) ألكسندر ماكولسكي، تاريخ علم المنطق، بر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 342.

(20)

(21)

(22)

ينتصر إليها هوبز. وإن كان جون لوك قد قدم دعوى "الاعتباطية" تقديمًا جريئًا لا لبس فيه، بل تناوله في صميم إشكاليته؛ وهذا كفيل بأن يضعنا مرة أخرى أمام المصادر الخفية التي امتحت منها فلسفة دو سويسير اللسانية. من هوبز إلى كارناب ومرورا بلامبير سعى جلهم سعيًا فيه بعض الجبر إلى بناء أنساق منطقية تنطلق من التفكير حول العلامة وفلسفة المعنى، ولعل ذلك يرجع إلى إحساس متعاظم بقصور اللغة الطبيعية، وعجزها عن الاضطلاع بواجبها على نحو تام.

يرى ماركس وإنجلز بأن هوبز هو صانع النسق لمادية بيكون. ففي فلسفة هوبز (فقد العالم الحسي سحره الأصير، وأصبح عالم الحساسية التجريدية للمهندس. وتمت التضحية بالحركة الفيزيائية على مذبح الحركة الميكانيكية، وأعلن أن الهندسة هي العلم الرئيسي... طورت منطق الفهم الصارم دون هوادة... وهي بوجه خاص قد أجهزت على الأفكار المسبقة المنتمية إلى مذهب التأليه الطبيعي (thérstes) في مادية بيكون)⁽²³⁾. لقد لاحظ هوسرل بأن هوبز هو واضع "سيكوفيزيقية أنثروبولوجية"⁽²⁴⁾، ويعد سباقًا إلى تطبيق الفعل المنعكس على السيورورات النفسية؛ وذلك (لأن الأساس الفيزيولوجي للإحساس هو حركة انعكاسية)⁽²⁵⁾، ولهذا عد هوبز واضع أسس علم النفس الحديث. إن إدراك الكيفيات المحسوسة ذات طبيعة ذاتية، ولا علاقة لها بتقديم الواقع الموصوعي؛ وهو لا يقصي المدركات الحسية من المعرفة، بل هي تمثل الخطوات الأولى لها، ثم تسبق الذاكرة هذه الأحاسيس التي تمثل محتوياتها التجربة؛ وإن كنت التجربة غير قادرة على شمولية المعرفة.

وفي خضم هذا التصميم لهرمية المعرفة لا ينسى هوبز دور اللغة ووظيفتها. فلولا اللغة ما كان للعلم أن يقرر قواعد عامة لنظرياته. ولهذا كله فإن المعرفة لا يمكن تصورها في ظل فلسفة هوبز الاسمية خارج نطاق السيميائيات؛ إذ إن التواصل بين البشر لا يحدث بمعزل عن العلامات التي ترتبط بتمثيلات الأشياء.

[ماركس وإنجلز، العائلة المقدسة، ص. 155.]

(24) ينظر يوسف سلامة، المنطق عند إدموند هوسرل، دار حوران، سورية، ط. 1، 2002، ص. 67.

(25) ألكسندر ماكوفلسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 344.

(26) المرجع السابق، صص. 344 و345.

وأبرز هذه العلامات هي الألفاظ اللغوية؛ إذ إن اللفظ الواحد يشمل جميع الأشياء المتشابهة على كثرتها، ولهذه الأسباب تتوافر لدى البشر علامات متشابهة، ولها دلالة على أشياء كثيرة متشابهة؛ وذلك ما يتيح النسق اللساني؛ ومن هنا تتبين لنا القواسم المشتركة في المعرفة بين الدس.

إن هذه المطرحة الهوبزية ذات نزعة اسمية واضحة واضحة المعالم. (لا وجود للعام في النشاط الموضوعي، والألفاظ وحدها هي حاملات العام، ولا يوجد الكلي إلا في الألفاظ. ولكن إطلاق الألفاظ على الأشياء (تسميتها بها) هو شأن من شؤون البشر. فسائر الشعوب لا تشير إلى الأشياء نفسها بالاسم نفسه)⁽²⁶⁾. تقوم هذه المتصورات الاسمية على فرضية أن البشر قد تواضعوا على مواصفات إضفاء هذه الأسماء على هذه الأشياء بهذا المنحى أو ذاك. وعليه فإننا يمكننا أن نحدد مصدر أسماء هذه الأشياء بأنه نابع من نشاط الخيال الإنساني المتدفق والخلق. ومن الطبيعي أن يفضي بنا هذا الاعتقاد مع هوبز إلى التسليم بأن الكليات لا تكاد تبرح الألفاظ؛ وهكذا يبدو أن العلوم حينما تنتهي إلى إقرار قضايا عامة يظهر بأن ذلك مصدره البشر. (وليست الحقائق الأولى في العلم إلا حقائق تحكيمية (تعسفية)، فهي تعتمد تماماً على اتفاق بين الناس على تسمية شيء معين)⁽²⁷⁾. إن هذه المقاربة السيمائية ذات المنطلقات الاسمية لنظرية 'الألفاظ التحكيمية' التي هي قوام نسقية هوبز في مجال المعرفة العلمية تتعامل مع الوقائع التي يتيحها لنا العالم على أنها تمثل عالم الأجسام المفردة، أما الكليات فهي من بنات إبداع ذهن الإنساني وخياله.

النزعة الاسمية

إذا كانت النتائج التي تنتهي إليها التجربة يمكن ستكشف أخطائها بمزيد من البحث فإن العلم بوصفه ذلك الضرب من المعرفة الكلية يكون على العكس من التجربة. إنه يتطلع دوماً إلى بناء حقائق ثابتة من الصعب تقويضها. إن هذه المقاصد لا تتحقق إلا بالعمل عن طريق الأسماء المشتركة. وسيجد برتراند

(27) م. س.، صص. 344 و345.

(28) بنظر زكي نجيب محمود، برتراند رسل، دار المعارف، مصر، ط. 2، د. ت.، ص. 70.

راسل⁽²⁸⁾ في اسمية أوكام ونصله أكبر الفائدة في التحليل المنطقي. إن النزعة الاسمية تتعامل مع الفكر على أنه عملية تقوم على الفصل والوصل بين الأسماء. فالفكر هو علامات حسابية أو لغة الحساب على النحو الذي سيؤكدده المنطق الرمزي؛ وهذا يعني أن النزعة الاسمية لدى هوبز أثارت مسألة مهمة.

سيقرر المنطق الرياضي (أن كل نسق منطقي هو نسق أوليات، وليس نسقا بديهيا)⁽²⁹⁾. وإن كان هوبز ظل متعلقا بتعريف التصورات. (ولما كانت الأسماء وفقا لنظريته تقام على نحو تحكي بواسطة اتفاق سابق بين الناس للدلالة على الأشياء بهدف تبادل الأفكار وتوصيلها حول هذه الأشياء، فإن من الواجب لإذن تحديد دلالة هذه الأسماء بكل دقة وبطريقة ثابتة، وتلك هي مهمة عملية التعريف المنطقية)⁽³⁰⁾. لقد وجد هوبز في فكر الروافيين بعض صالته، ومن ذلك حقيقة التضايف الحميم بين اللغة والفكر، كما أنه حاول أن يربط بين التصورات والأسماء والقضايا والأحكام.

إن السيرة الفكرية كما أشرنا في السابق هي عملية حسابية على جمع العلامات وطرحها وفق تركيب سيميائي خالص تفضي فيه القضايا التي تجمع فيها الأسماء إلى الحكم الذي يتم فيه تحديد الأشياء والتعرف إلى كيمايتها؛ حيث لا سبيل إلى الإقرار بصدقها أو كذبها ما لم تكن مضوية ضمن قانون تركيب لا يؤمن بأن ما درج عليه الاعتقاد في المنطق من أن الصدق أو الكذب ليسا صفات لمرجع العلامات من حيث هي أشياء، بل إن بعدها الأنطولوجي يتمثل في الخطاب أو الأقوال؛ ولهذا فإن النظرة الذرية لا تستطيع تحديد صدق الأسماء أو كذبها ما لم تكن علامات بوصفها قضايا.

وللتدليل على ذلك يمكن القول بأنه (إذا كان فرد من الأفراد إنسانا قد أصبح يطلق عليه اسم آخر يناظره، ذو ما صدق (أفراد) أوسع نطاقا. وتستطيع الأسماء أن تكون ذات ما صدق أوسع أو أضيق بحسب اتساع أو ضيق الدائرة التي تشير إليها من الموضوعات المتشابهة. فالأجناس والأنواع لا تتعلق إلا بالأسماء. فالأسماء

(29) سالم يموت، العقلانية الممارسة بين القد والحقيقة، دار الطليعة، بيروت، ط. 2، 1989، ص. 80.

(30) المرجع السابق، ص. 345.

(31) م. ن.، ص. 345.

وحدها هي التي تستطيع أن تكون كلية، وبالتالي تستطيع أن يكون لها درجة أكبر أو أصغر من العموم، وما صدق أوسع أو أصيق نطاقا. فليست الأجناس والأنواع إلا أسماء⁽³¹⁾. إن فلسفة اللغة لدى هوبز موسومة بالنزعة الاسمية، وأن منطقها يتصف بالروح السيميائية؛ لأنه يقوم على نظرية العلامات التي يصنفها إلى علامات طبيعية معطاة يستطيع العقل أن يهتدي إليها عن طريق الأقيسة والاستدلالات وعلامات وضعية من إبداعات البشر الذين يبتكرون ألسنتهم للإبانة عن مكنوناتهم. وكل ما تتصوره الأذهان هو عبارة عن أسماء ليس إلا بخلاف ما درج عليه منطق أرسطو وفكر العصور الوسطى.

فإذا كانت الأسماء غير ثابتة فهي تفضي إلى السيميوزيس، ولا تكون في نظر هوبز - مؤهلة لحمل رسالة لعدم؛ لأنها تتباين من فرد إلى فرد آخر ومن حقبة إلى حقبة أخرى مثلما هو الحال بالنسبة إلى بعض المفاهيم الأخلاقية والسياسية والقانونية التي تكون مدلولاتها في الغالب تتسم بالالتباس والغموض. وكلما كانت الأسماء محددة الدلالة كانت قادرة على خدمة العلم. وهذا لا يعني أن تلك الموضوعات الأخلاقية والسياسية والقانونية تخرج عن حد العلم، بل إنه سعى إلى مقاربتها بمعطيات المنهج الهندسي التي اعترف سبينوزا بجميل هوبز حينما سار على هديه في بسط فلسفته الأخلاقية. إن ما هو جدير بالاهتمام تصنيفه للأجناس من الأشياء التي تستطيع أن تنتزع مفهوم الاسم، وهي أربعة: (1) - الأجسام (corpora)، (2) - الأعراض (accidentia)، (3) - الظواهر (phantasmata)؛ (4) - الأسماء ذاتها (nomina ispsa). ويمكن أن تسمى تلك الأجناس نظرية المقولات عند هوبز (أوسع أصناف الموجودات جميعا)⁽³²⁾. وفي إطار تصوره لنظرية الكلام من منظور لنزعة الاسمية فهو لا ينسب بعض العلامات اللسانية إلى مفهوم الاسم مثل: كل وبعض، بل تكوّن - في نظره - أجزاء من أسماء فقط؛.

وعليه فإن الأسماء تكون بسيطة ومركبة ومفردة وجزئية وكلية⁽³³⁾. إن الفلسفة

(32) ألكسندر ماكوفسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء لسين وإبراهيم فتحي، ص. 347.

(33) م. د.، ص. 347.

(34) Ernest Cassirer, Logique des sciences de la culture, Cinq études, trad. Jean Carro et Joël

الاسمية واعية بما يمكن أن يلحق مفهوم الاسم من غموض حينما يولي المرء نظره شطر النحو والمنطق والبلاغة والرياضيات، ولكن هوبز يرى بأن الاسم في علم النحو لا تتعدد مدلولاته بخلاف المنطق الذي يمكن فيه الاسم الواحد أن يتخذ صيغ تعبيرية عن طريق عدد من العلامات التي تعني شيئاً واحداً. ولهذا يعتقد بأن الحقيقة⁽³⁴⁾ توجد في العلامات، وليس في الأشياء. والأسماء في المنطق شبيهة بالجمل في النحو فمعها ما هو بسيط ومنها ما هو مركب؛ غير أن الأسماء المركبة في المنطق مثل: الإنسان كائن رامز؛ فهو يتألف من أسماء بسيطة تتمثل في "الإنسان" و"الكائن" و"الرامز"؛ ومن هنا ندرك رأي هوبز في ماهية التعريف التي يحصرها في التحديد الذي يجعلها مختلفة عن دلالات أخرى.

إن وظيفة التعريف وعايته تنصرف إلى الحكم الذي يستطيع في حالة الإمكان أن يفكك محموله إلى وحدات الموضوع؛ وفي حالة عدم الإمكان يكتفي بشرحه. والغرض من ذلك كله إضفاء خصيصة الوضوح على المعنى أو استدراجه إلى دائرة المهم. بيد أن (ما يقوله هوبز عن التعريف متناقض. فالتعريف من ناحية يجب ألا يكون إلا شرحاً للاسم... لكن يطلب هوبز من ناحية أخرى أن يكون التعريف واقعياً، ولا اسماً فقط، حين يقول: "إن كل ما له علة أوجدته، العلة يجب تعريفه بواسطة هذه العلة وبواسطة ذلك النحو في ظهوره"⁽³⁵⁾. إن أبرر ما يميز فلسفة هوبز نظريته حول الكلام؛ ولا غرو أن تجد حضوره في الفلسفة التحليلية؛ إذ يشير إلى الأفعال الكلامية حينما يقف على نظرية الأحكام؛ إذ يلقي أن تركيب العلامات (لألفاظ) تفضي إلى فعل كلامي مثل ما توقف عليه أوستين كالرجاء أو السؤال أو الطلب أو الوعد أو الوعيد أو الشكوى وما إلى ذلك.

إن الفعل الكلامي ينقل إلينا أمزجة المتكلمين المتبينة، ولكن هذه الأفعال الكلامية ليست بالضرورة حاملة للمعنى؛ وهذا النوع لا يمكن أن يرقى إلى مرتبة اللغة، بل هو ضرب من اللغو. تنسبه الوضعية المنطقية إلى خطاب الميتافيزيقا. وكما قلنا فإن الفلسفة التحليلية وجدت ضالتها في فكر هوبز الذي يعتقد بأن العلم

Gaubert, Paris, éd. Cerf, 1991, p. 208.

(35) ألكسندر ماكوفسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، صص. 348، و349.

(36) المرجع السابق، ص. 350.

لا يسلم بالتركيب لسميائي إلا إذا عبر عن قضية أو حكم. فالقضية مدفوز يتضمن اسمين ينطويان على علاقة تربط بينهما. (والمحدث يريد التعبير بواسطة هذا التركيب من اسمين عن أنه يفهم الاسم الثاني باعتباره دالا على الشيء الذي يدل عليه الاسم الأول بدرجة متساوية. أو عن أن الاسم الأول متضمن في الثاني)⁽³⁶⁾.

حساب الأسماء

لقد استبدل هوبز مفهوم المعاني الكلية بالأسماء؛ وهذا يندرج في إطار فلسفته الاسمية التي تعاملت مع الفكر على أنه "حساب الأسماء"، وحصر نشاطه في الجمع والطرح. ومن هذه الأسماء ما هو بسيط وما هو مركب (فحيما نضيف إلى الاسم البسيط: "جسم" اسمين آخرين هما "حي" و"عاقل"، فإننا نحصل على اسمين أكثر تركيبا هما "حيوان"، ثم "إنسان". ففكرة الإنسان هي على هذا النحو مركبة من أفكار سابقة)⁽³⁷⁾. وإذا تأملنا مفهوم حساب الأسماء فهو يجمع بين بعض التصورات المنطقية القديمة وبين المنهج العلمي الذي يستقيه هوبز من الهندسة، بل إنه يعيد صوغ بعض المفاهيم المنطقية كمن ينظر إلى حدود التصورات على أنها جمع للأسماء أما تعميمها فهو طرح لها.

يتابع تفسيره للقضية من حيث إنها عملية تجميعية لاسمين يطلق عليهما في أدبيات المنطق بالموضوع والمحمول. (وهو يقترح لكي يبرهن على فكرته أن يفهم الحكم السالب باعتباره جمعا يضيف اسما ما إلى اسم آخر سالب، فهو لا ينسب السلب (النفي) إلى رابطة الكينونة. وفي النهاية يفسر القياس بأنه قضيتان تشتركان في اسم (الحد). وفي النهاية يصبح كل حكم وفقا لنظريته جمعا لاسمين، وكل قياس جمعا لثلاثة أسماء)⁽³⁸⁾. إن المسألة لا تتعلق بعملية استبدال مصطلح بمصطلح آخر، وإنما إحلال سلطة الرياضيات محل سلطة المنطق. إن المنهج الرياضي يكسب الاستدلال قوة في تقرير النتائج الصحيحة أكثر مما نلتمسها في

(37) م. ن.، ص. 351.

(38) م. ن.، ص. 352.

(39) المرجع السابق، ص. 352.

قواعد المنطق. فإذا سلمنا مع كانط بأن أحكام الرياضيات نابعة من الحدوس الخالصة التي تتأسس عليها تصوراتها التي تؤلف مادة الأحكام التركيبية القبلية، فهي لا تقوم على أساس تجريبي.

وهذا ما جعل هوبز يعتقد بأن الرياضيات قد بلغت شأواً كبيراً لم يبلغه أي علم آخر. يلاحظ مؤرخو المنطق بأن (نظرية الأغاليط المنطقية عند هوبز فهي نظرية مبتكرة وأصلية. وهي على التسليم بأربع فئات من الأسماء: كل ما له مسمى هو اسم إما لجسم، أو لعرض، أو لظاهرة، أو لاسم. والقضايا الصادقة هي القضايا التي تتألف من اسمين لجسم، أو من اسمين لعرض، أو من اسمين لظاهرة، أو من اسمين لاسم. وأي تراكيب أخرى لا بد أن يشوبها الخطأ. وعلى هذا النحو تكون القضايا التي تجمع بين اسم لجسم واسم لعرض كاذبة، وكذلك القضايا التي تجمع بين اسم لجسم واسم لظاهرة أو اسم لاسم)⁽³⁹⁾. إن فلسفة هوبز مثلها مثل كثير من الفلسفات الحديثة قامت على أساس دحض بعض ركائز التراث الفلسفي في القرون الوسطى، وقد أفاد من يكون حينما كان متفاعداً، وكان يختلف إلى بيته، ويستقي منه ثورته على الفلسفة الأرسطية وعلى التراث السكولائي.

وكل ذلك من أجل إعادة بناء العلم على أسس فلسفية جديدة تبدأ من مناهضة عقم المنطق الأرسطي والانتصار للفكر التجريبي وللمنهج الهندسي الذي رآه صالحاً (لعرض نتائجه عن الديمقراطية لتجنيء كالبراهين التي لا سبيل إلى دحضها)⁽⁴⁰⁾. إن هذا النزوع الجديد في بناء علم مغاير تكون له مقاصد جليلة ذات طبيعة نفعية وضع الفلسفة أمام مهمات صعبة؛ وكان عليها أن تدفع بالعلم إلى حدوده القصوى لكي يتمكن من تحقيق جميع مراميه. وقد انبثقت هذه الروح من تطور العلوم والمعارف الإنسانية؛ حيث تراجع الفكر الميثولوجي والتفسير الميتافيزيقي للظواهر الطبيعية، وطفقت الذات الإنسانية في أخذ الصدارة والمركز في الكون، والتحكم في الطبيعة عن طريق تسخيرها لمصالحه.

(40) بظر الموسوعة الفلسفية لمختصرة، نق. فؤاد كامل وجلال العشري وعبد الرشيد لصادق، مر. زكي نحيب محمود، دار القلم، بيروت، ص. 500.

(4) ألكسندر ماكوفسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وبراهيم فتحي، ص. 354.

ومن هنا سنحد الارتكاز على العلامات الطبيعية يكتسي بعدا مهما في فلسفة هوبز لكونه سيركز على مفهوم العلية في التحليل العلمي لحركة الأجسام في الكون، وانطلاق من اسميته وماديته التي تقارب كثيرا الفلسفة الرواقية لم يسلم بوجود علة إلا ما تعلق بالحركة التي (هي العلة الواحدة الكلية لكل ما يحدث في العالم ولكل تغير. وتنوع الأشكال صادر عن تنوع الحركات... فهو يقدم لها التعريف الآتي: "الحركة هي مغادرة موضع والوصول إلى موضع آخر" (41). إن هذه الفكرة ذات امتدادات أرسطية؛ إذ يتبع هوبز الخطوات المنهجية في التحليل العلمي؛ وذلك انطلاقا من تجريء الظواهر إلى عناصرها الأولية التي تألفت منها؛ ثم محاولة إعادة تركيبها؛ وعلى الرغم من أن هذا المنهج يتصف بالميكانيكية إلا أن ثمراته بدأت تؤتي أكلها في فلسفة كانط التي حددت أسس المنهج العلمي في العميتين التحليلية والتركيبية؛ إذ يختلف تطبيقها حسب تنوع الظواهر التي هي موضع البحث والدرس.

لم يكن هوبز بدعا فيما رسخته فلسفة القرن السابع عشر وبخاصة لدى ديكارت واسينوزا من أن أعلى مراتب التصور المنهجي تتمثل في اصطناع طرائق التحليل الهندسي؛ وبهذا أكدوا وجوب اقتداء جميع العلوم والمعارف بالمنهج الهندسي؛ حيث يسهم في مساعدتها على استنباط قواعدها العامة وحدودها وتصوراتها. فالفلسفة - في نظره - هي (معرفة الآثار أو الظواهر انطلاقا من عللها أو مبادئها) (42). لقد حاول هوبز أن يمتحن صحة دعواه بخصوص ما طرحه في فلسفته السياسية. وكان حريصا على التمييز بين ما دعاه بالمنهجين العلمي والتعليمي. إن المنهج التعليمي يقوم على البرهان الذي (هو قياس أو سلسلة من الأقيسة مبنية على تعريف الأسماء، ويستمر إجراؤها حتى النتيجة الأخيرة) (43) يقع منطق هوبز فيما بين النزعتين التجريبية، المخالصة والعقلية المحضة.

فهو من جهة ينتصر إلى جميع تمثيلات الإنسان بما في ذلك تلك المفاهيم الأكثر تجريدا مثل الأفكار الرياضية؛ حيث تعزى إلى التجربة الحسية، وفي

Voir Ernest Cassirer, Logique des sciences de la culture, Cinq études, trad. Jean Carro et Joël Gaubert, Paris, éd. Cerf, 1991, p. 180

(43) المرجع السابق، ص. 356.

(44) م. ن.، ص. 357.

المقابل فإن الأنساق العلمية ومناهجها لا تشيد إلا ضمن حركة عقلانية تستند في نظر هوبز إلى . لعمليات الاستنباطية التي يقوم بها التحليل المنطقي انطلاقاً من المقدمات الصحيحة التي تستمد معطياتها من الوقائع التجريبية، وهي تمثل رصيد الأفكار ومحتويات المفاهيم. (إن لنزعة العقلية والتجريبية، وللاستنباط والاستقراء، وللتحليل والتركيب جميعاً مكاناً متساوياً في فلسفة هوبز، ولكنها تمكث فيه متجاوزة دون مصالحة أو توفيق. وذلك يعد تناقضاً داخلياً في نسق مفاهيمه)⁽⁴⁴⁾. ولكن هذه الدعاوى ستمهد الطريق للأنساق الفلسفية التي تلتها من أجل التحزب لإحدى النزعتين.

طلائع اللغة الرمزية

لقد رأى لايبنتز بأن العبرة تسعفنا في الحديث عن الأشياء فيما بينها بوصفها حيثيات الكم والنوع والشدة. ويعد بأن اللغات هي (أحسن مرآة للفكر البشري، وإن تحليلاً دقيقاً لدلالة الأشياء فهو أحسن الأشياء قدرة على كشف عمليات الإدراك)⁽⁴⁵⁾ علماً بأن لايبنتز أخذ موقفاً وسطاً بين فلسفة أرسطو وفلسفات ديكارت وهوبز؛ حيث آمن بفكرة الجوهر، الفرد الممثل في "الموناد" لكونها ذرات تتألف من وحدات لا متناهية لها القدرة على التمثل، ويرجع التصورات الناشئة عنها إما إلى المصادرات وإما إلى التجربة. فهو صاحب نظرية "الأساس العقلي للاستقراء"، ولا غرو أن يأخذ الاستدلال الاستقراء لديه طبيعة عقلية نسقية خالصة تجد ضالتها في الأنموذج الرياضي. (والرياضيات عبارة عن صيغة ترميز symbolization لغوية مستقلة بشكل حقيقي، رغم أنها لا تملك المجال الدلالي أو الطاقة التعبيرية للغة الطبيعية)⁽⁴⁶⁾. ولهذا كنه افتتن القرن السابع عشر بالتطلع إلى بناء لغات رمزية عالمية (لغة الإسبرانتو الحديثة) تحاكي منطق الحساب، وتتخلص من عبء اللغات الطبيعية.

(45) C. Clément, Encyclopédia Universalis, V 10, 1985, PP 1085-1091

(46) ر. ه. رويتز، موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب)، تر. أحمد عوض، ص. 194.

(47) Jean Molino, Sémiologie et formes symboliques, in Encyclopédie philosophique

لا نجد لايبنتز يجاري أرسطو في تصويره لمفهوم الحقيقة القائم على مطابقة الفكر للواقع الخارجي كما هو معلوم في المنطق الأرسطي، وإنما يتصور أن صدق الأفكار وحقيقتها ما كان متضمنا في العقل نفسه، وما خلا من التناقضات الجوانية. لقد رأى كاسيرر بأن الحقيقة لدى لايبنتز اكتست طابعا جديدا؛ وهذا ما يجعله معيارا للحكم الذي يكتسي معنى. فمن العقل تنبثق كل الأفكار والتصورات. إن الحقيقة شغلت بال الرياضياتي قبل الفيلسوف؛ لأنه لم يحاول أن يتهرب من صعوبة سؤال الحقيقة، وكان يطلب بتحديد ماهيتها.

ومن هنا ندرك مدى حرصه على أن يكون الحكم المنطقي ذا معنى وضرورة؛ لأن سلطة المفهوم هي وحدة التركيب العام الذي يتكون عن طريقه، ولا يقبل أن يكون منبثقا من شتات الأمثلة المفردة. وعليه فالقضايا لديه ضرورية وقوامها مبدأ عدم التناقض؛ حيث تصدر حكما على أساسه بالكذب على كل ما يتضمن تناقضا وبالصدق على كل ما يناقض الكذب؛ وهناك قضايا عرضية قوامها مبدأ السبب الكافي؛ إذ نكتفي بالتسليم بحقائق الواقع، ولا نستطيع أن نتأكد من صدق الوقائع ووجودها ولا نقف على صحة العبارات ما لم يوجد سبب كاف يضيف مشروعية على هذه الوقائع ووجودها؛ وإن كان ليس من السهولة بمكان الاهتداء إلى معرفة كنه الأسباب. وعليه فإن العوالم السيميائية التي تنتمي إلى حقائق العقل تكون ضرورية؛ بينما تكون الأنساق السيميائية التي تنتمي إلى حقائق الواقع عرضية وعكسها ممكن بخلاف حقائق العقل التي يكون عكسها مستحيلا.

ارتكز منطق لايبنتز الذي هو معرفة العلامات على منظور النزعة الذرية، فدافع عن فكرة أن موضوع القضية يتضمن محمولاته. إن سيميائيات لايبنتز قائمة على الدلالة والتواصل. وقد اعترفت للحروف - (caractères) أو الدوال بالاستعمال اللساني الحديث - بالسمات المراثية التي تمثل الأفكار، وبالاعتباطية، ومنح العلامات وظيفة معرفية على نحو غير مسبوق في تاريخ المعرفة الإنسانية، ووصف هذا النمط من الفكر بـ "الاعتقاد الأعمى" (pensée aveugle)⁽⁴⁷⁾؛ إذ يرى أن استعمالنا للعلامات وإغفالنا للعادة، بوساطة حروف اختزالية، هو تحديد يفقدنا إلى حقيقة الأشياء ضمن مبدأ الانسجام والاتصال واللاتشابه؛ وهي المبادئ التي

universelle, puf, 1998, Paris, p. 2063.

(nous utilisons des signes et nous omettons d'habitude, par abréviation de préciser dans (48)

رسمت معالم النسق الفلسفي لايبنتز الذي لم يتنكر للمنطق التقليدي ولا سيما حرصه على خصيصة تعريف الحدود؛ وهكذا لم يكن هذا في وعينا الحاضر ماثلا لإدراك تصورهما الواضح، ونحن نعلم أو نعتقد بأنه يقع في حوزتنا⁽⁴⁸⁾، ولكنها تميز بين المنطق بوصفه أداة للحكم والابتكار؛ وهو بذلك يقدم نقدا لجون لوك الذي خلط بين المنطق والدراسات الاشتقاقية والمعجمية في التفكير اللغوي. فالمعرفة تطلق من الأجزاء وأجزاء أجزائها وهي تمثل منطقاً ذا طبيعة بنوية تتحكم في مبدأ الكلية، ولكن نجد في المقابل بأن فلسفة لايبنتز لم تكن رهينة الوقائع؛ وإنما اثبتت على منطق العلاقات الذي ينظم الوقائع والموجودات.

سعت هذه الفلسفة إلى تجفيف منابع المضامين المادية، وأرست دعائم الاتجاه الرمزي في المعرفة الذي تبلور كثيراً في فلسفة إرنست كاسير ذات البعد البنوي والسيمائي. فالأفكار هي رموز للواقع؛ ومن هنا نلغ فيه يرفض النظرية الانعكاسية، ويختلف في فهمه للعدد (فإذا كان في البداية يعتبر العدد مجموعاً لوحدات فقد أصبح يعتبره علاقة بين مقادير... فالأفكار لا تعكس لوجود الموضوعي في جميع جوانبه وخصائصه، بل هي لا تقدم لنا إلا معرفة كاملة بالعلاقات القائمة بين عناصر هذا الوجود بعد ترجمتها، إن صح القول، إلى لغتها الخاصة)⁽⁴⁹⁾. كان عصر لايبنتز يترقب ترقباً حذراً لفض بعض الخلافات المتعلقة باللغة قصد تطوير المعرفة وتفعيل التجارة؛ حيث سعى اللغويون والفلاسفة إلى تطويرها حتى تكون قادرة على حمل مشروع المعرفة الطموح من أجل تجاوز الرؤية الضائية التي كانت تحوم حول اللغة الطبيعية التي تمتلك خصيصة التقطيع؛ ولكنها ليس في مستطاعها أن تستنفذ كل الأشكال لحاملة للمعنى⁽⁵⁰⁾. وهذه الأشكال ينبغي أن تتصف بمواصفات الوضوح التي اشترطتها الديكارتية في كل معرفة. إن إدراك الحقيقة في نظر لايبنتز لا يخرج عن ابداءة والوضوح.

notre conscience présente leur conception explicite, sachant, ou croyant, que nous l'avons en notre pouvoir) (de cognitione, veritate et Ideis).

(49) ينظر ألكسندر مكرولسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 381
Noël Mouloud, Langage et structures, Essais de logique et de sémiologie, éd. Payot, Paris, (50)
1969, p. 60.

ينطلق لا ينتز من أن اللغة والواقع كليهما موندات ليس بالضرورة أن تكون هناك روابط تجمع بينهما. وهذا يشير شكوكا قوية في حقيقة الكونية النسقية التي لا يُتصور بأن هذه الموجودات الجوهرية لا توجد بينها الروابط المطبوعة على الرغم من أن لا ينتز لا ينكر بأنه يتطلع لمثل هذا الاتساق بين هذين المونداتين، ويحذر أن يحصل انسجام قبلي بينهما، ويتحقق من أجل خلق حالات التوازن. ولهذا كله كانت الدعوة إلى بناء لغة رمزية عالمية مطلبا ملحا في القرن السابع عشر كما أشرنا إلى ذلك من قبل. ولا غرو أن يكون هذا الهجس المتمثل في بناء لغة واصفة إرهابا لميلاد المنطق الرمزي؛ حيث (شرح المطلق بتحديث التقنيات محولا بذلك الاستدلال (استعمال الكلام) إلى عملية حسابية والحال أن أي اختزال يأخذ هذا المنحى لن يمر دون أن يشير إشكالات مختلفة)⁽⁵¹⁾. إن دالمبير الذي يتشيع إلى النزعة الحسية يربط الجبر بالأفكار، وأن العلاقة بينهما من صنع الإنسان عن طريق ملكة التجريد التي يتوافر عليها.

إن جبر الفكر لا يحتوي إلا ما اصطنعه الفرد مما يجعله أقرب إلى اليقين المطلق والوضوح التام؛ وعليه فإن لمتصورات المجردة تنبثق من فضاء التفكير الخالص. وشيئا فشيئا صارت المعرفة المجردة وبخاصة موضوعات العلم أقرب إلى اليقين من أي معرفة أخرى ليس لها سهم كبير في التجريد، وبخاصة تلك المعارف ذات النزعة الحسية التي يغلب عليها الالتباس والاحتمال.

المعرفة الرمزية؛

ساعدت الرياضيات لا ينتز كثيرا في بسط رموز سهلة بالقياس إلى ما اصطنعه نيوتن؛ ولا سيما أنه اخترع آلة حاسبة أكثر دقة من تلك التي ابتكرها باسكال، وهو صاحب حساب اللامتناهيات. ولهذا سيقوده الحساب المنطقي إلى التقرير الآتي: فكل قضية صادقة إذا تم صوغها صوغا دقيقا ومليما فإنها تحتوي على موضوع لها. وعليه فإن العلامة هي بمثابة الشيء الذي يعبر عن شيء آخر، ولكن على شرط أن تكون هناك علاقة نسقية ثابتة بين العلامة وما يمكن أن يقال عن

(51) يار أشار، سوسيلوجيا اللغة، تر. عبد الوهاب نرو، دار عويدات، بيروت، ط. 1، 1996، ص.

الشيء الآخر؛ ولا سيما أن لايبنتز لا يضيف الوجود لواقعي على الكليات كما جرى الاعتقاد في منطق العصور الوسطى، وإنما يرى أن الشيء المفرد هو وحده الذي يتصف بتلك الخصيصة.

يشيد كاسيرر بالمعرفة الرمزية التي وضع لايبنتز لبناتها الأولى التي أحدثت - في نظره - قطيعة مع متصورات نظرية الانعكاس تنضاف إلى براعة الاهتداء إلى مبدأ التناقض الذي كن مرتكزا أساسا لتفسير القضايا التي تتعلق بحقائق العقل ومبدأ السبب الكافي الذي يتصل بحقائق الواقع. وعليه اتجه المنطق مع لايبنتز إلى بناء العلم ذاته، ولم يعد آلة يعرف بها الصدق والكذب؛ ولكن ما واجهه فلسفة العلم هو بأي لغة يتحدث العلم؟ هل يتكلم بلغتنا الطبيعية؟ أم أنه قادر على بناء لغته الرمزية التي تتجاوز معوقات اللغة الطبيعية؟ إن الخطاب العلمي لا خيار له خارج تين اللغتين.

لا تهتدي المعرفة الرمزية إلى الحقائق الأبدية انطلاقا من معاينة الوقائع؛ ولكنها تقوم على أساس النسقية المحايدة التي تؤمن بجوانية الأفكار الفطرية المعطاة؛ ولهذا ينبغي لها أن تنشأ من عالم الظواهر والأشياء وما يقوم بينها من علاقات بينها. إن نسقية اللغة الرمزية لدى لايبنتز لا تؤمن بوجود طفرات في عالم الطبيعة، وإنما تسلم بالمنطق المتدرج الذي يتابع المونادات اللامتناهية التي تتفاضل بينها على أساس وضوح تمثالاتها⁽⁵²⁾.

إن العلامات بوصفها أفكارا تكمن في النفس أول مرة قبل أن تتحين، وتتخذ شكل الاستعداد. ومن هنا نلغي لايبنتز يساير المتصورات الديكارتية فيما يتعلق بوجود الأفكار الفطرية التي ستنقضها فلسفة لوك نقضا. إن منطق لايبنتز يعلي من شأن مبدأي الهوية والسبب الكافي، فهو لم يحدث قطيعة مع المنطق الصوري. بل صاغ مبدأ الهوية على أساس أنطولوجي. وفي الوقت نفسه فإن مبدأ لتناقض⁽⁵³⁾ ما هو إلا الوجه الآخر لمبدأ الهوية. ("كل شيء هو ما يكونه" أو "أ هو أ" و"ب هو ب" إلخ. ونجد عنده كذلك صيغة أنطولوجية لمبدأ التناقض تسيّر على النحو السابق: "يمنع أن يوجد شيء وألا يوجد في آن معا" أو "إن أ

(52) يصير ألكسندر ماكوفسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 383.

(53) المرجع السابق، ص. 386.

لا يمكن أن تكون لا أ' و'أ ليست لا أ'. ولكنه يقدم إلى جانب هذه الصيغة الأنطولوجية صيغة أخرى منطقية خالصة: "كل قضية إما أن تكون صادقة وإما أن تكون كاذبة"⁽⁵⁴⁾. إن المنطق لدى لايبنتز بوصفه تسمية أخرى للسيمانيات على حد تعبير بورس يحصر صدق الأفكار في عدم احتوائها على التناقض الذي يمثل الحقائق العقلية، وتصبح لديه قصايا إذا كانت ضرورية. بيد أن ذلك قد أسلم لايبنتز إلى الاعتقاد بأن (بإمكان طرق آلية لتركيبات من الأقيسة أن تحل محل البحث عن الماهية. وهذا ما يلزم من كل منطق ماصدقي)⁽⁵⁵⁾. لقد أرجع كل معرفة استنباطية وكل أساس القياس إلى مبدأي الهوية والتناقض.

إن قانون السبب الكافي يمثل حقائق التجربة التي تطال حقل الموضوعات الواقعية، ومن ثم فهو يتطابق لديه مع قانون العلية. وينتهي إلى أن ("لا ظاهرة يمكن أن تكون حقيقية أو واقعية ولا حكم يمكن أن يكون صادقا أو صحيح دون سبب كاف، لكونها أو كونه على هذا النحو لا على خلافه)⁽⁵⁶⁾. إن سيمانيات لايبنتز لا تجاري تسمية الرواقيين وفلسفة هوبز، ومن هنا فقد ظلت فلسفة لايبنتز محافظة على نزعتها العقلية التي تربط بين العلل المادية والأسباب المنطقية؛ ذلك لأن مجال قانون العلة الوقائع الفعلية.

انتقد هيجل مبدأ الهوية لدى لايبنتز؛ حيث لم يأت بأي جدة في نظره، وكان نقطة ضعف في منطق. كما أنه يقف في وجه تطور الأشياء واختلافها. هل كان هيجل محقا في نقده لمبدأ الهوية لدى لايبنتز، ووصفه بالعقم؟ لا يرى ألكسندر ماكوفلسكي بأن صيغة هذا المبدأ تقف فقط عند حدود مقتضيات التعبير عن أ هو عينه أ. (أي أن موضوع الحكم ومحموله هما عين التصور الواحد، بل هي تتطلب التعبير عن علامات موضوع الحكم الملازمة له والباطنة فيه، لا العلامات التي ليست باطنة فيه أو التي تناقضه)⁽⁵⁷⁾. وخلافا لجون لوك يشكك لايبنتز في قدرة التجارب الحسية على بناء نسق معرفي يتسم بالكسبة والضرورة؛

(54) ينظر ألكسندر ماكوفلسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 384.

(55) جول تريكو، المنطق الصوري، تر. محمود يعقوبي، ص. 46.

(56) المرجع السابق، ص. 385.

(57) م. ذ.، ص. 386.

ولهذا فإن المعرفة الحسية التي تطاول الوقائع التي تنسم في الغالب بالعرضية والجزئية لا تضاهي المعرفة العقلية التي تشيد على سلطان العقل ومبادئه، وتصوغ الحقائق الضرورية. (وهو يقول إنه لا ينبغي أبدا الثقة في التجربة المحض، أي في الأحكام المستنبطة بالاستقراء من الواقع، بل ينبغي أن يقوم الحكم على مبادئ العقل، وأن تسير الاستدلالات متوافقة مع الأدلة (الحجج) العقلية)⁽⁵⁸⁾.

تكتسي الأحكام التحليلية أهمية كبيرة في منطق لايبنتز فهي صادقة لكونها بديهية، وتسهم في إدراك المضمون الجوهرى لتصور الموضوع الذي يكون بدوره مطابقا لعلاماته. (إن لايبنتز يقول إن المحمول متضمن في الموضوع من حيث إنه علامته. فالمحمول يكشف في الحكم عن مضمون الموضوع، ويترتب على ذلك أن المحمول مطابق جزئيا أو كليا للموضوع)⁽⁵⁹⁾؛ ولهذا كله فإن الأحكام التحليلية تماثل أحكام الهوية⁽⁶⁰⁾. ومن ثم ندرك بأن لايبنتز وإن كان فاتحة لميلاد المنطق الرمزي إلا أنه لم يتنكر لدور المنطق الصوري وقيمه العلمية بحجة أن المرء يمكن أن يستغني عنه في أثناء مغامراته العلمية، وتقديم حلول علمية لما يعترضه من مشكلات عويصة عن طريق الاستعانة بذكائه الفطري.

لقد تجسدت استمرارية عقلانية لايبنتز مع فلسفة كريستيان فولف التي أضفت على الفلسفة الألمانية اللغة التي طالب هيجل بأن تتكلمها مما جعل كانط يصفه بأنه محلل بارع؛ لأنه لطالما نتصر للنسق وتراتبته مما حدا به إلى تبني وضوح ليس بالضرورة أن يكون مصدره العقلانية الديكارنية؛ ولا غرو أن يتكئ عليه كانط في نقد ديكارت ومتصوراته العقلانية؛ وذلك من منطلق العقلانية اللايبنتزية التي رأت بأن المعارف تستنبط استنباطا منطقيا خالصا من قانون التناقض ومبدأ السبب الكافي. فإذا (لم تمتلك الأشياء سببا كافيا فسيظهر شيء ما من لا شيء، وذلك ينطوي على تناقض)⁽⁶¹⁾. يرى بلوكيت أن جوهر الحكم لا يكاد يخرج عن ثبات الهوية أو نفيها بين موضوع الحكم ومحموله. (وقد يسرت له تلك النظرية

(58) م. ن.، ص. 388.

(59) م. ن.، ص. 388.

(60) م. ن.، ص. 388.

(61) ينظر ألكسندر ماكوفسكي، تاريخ علم المطلق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 390.

في طبيعة المفهوم مهمة معالجة العمليات العقلية بروح "الحساب المنطقي" (62) الذي سيكون له دور حاسم في إشاعة الاهتمام بدغة الحساب وتشبيد المنطق السيميائي.

السيمياءات ولغة الحساب

لقد مهدت فلسفة ديكرات الطريق أمام التفكير الفلسفي لبأخذ مسألة اللغة في حسابانه، ويبدع أسئلة جديدة تتجاوز ما انشغلت به السيميائية المسيحية والإسلامية على سواء؛ إذ بدأت تلوح في الأفق تلك الدعوة إلى لغة فلسفية عالمية شاملة لقيت حماسا كبيرا لدى لايبنتز الذي عمل على تطويرها؛ كما كن هوبز يظفر إلى اللفظ على أنه وعاء التصورات والأحكام والاستدلالات، ومن دون العلامات اللسانية لا يمكن أن تتجسد آليات الفكر الإنساني. وسنلاحظ أن تجريبية لوك وإيقونية باركلي تعدان الألفاظ علامة للأفكار. ولعل ذلك ما يضيفي المشروعية على حلم لايبنتز في دعوته إلى خلق لغة عالمية شاملة واحدة على عرار لغة الرياضيات؛ وذلك بعد أن يتم استخلاص العناصر المنطقية المحضة من اللغات المختلفة (63).

إن كوندياك [1715 - 1780] Etienne Condillac مثله كمث لوك قد أحدث ثورة كبلرية فأدرك العلاقة بين الفكر واللغة؛ إذ أوضح كيف تتم الربط بين الأفكار، وهو يعتقد أنه من المستحيل أن يتم النشاط الفكري في غياب اللغة ورموزها، فهو يرى (64) أن اللغة الإشارية هي اللغة الأصلية (65) كالحركات وملامح الوجه ونبرات الصوت. إن الأنساق السيميائية غيراللسانية كانت العمليات الأولى التي اصطنعها الإنسان في تبليغ أفكاره، وتحقيق التواصل مع محيطه؛ وعليه وصف السيميائيون هذه الأنساق بأنها "لغات"؛ وكذا تصورهما كوندياك حينما أطلق على هذه العلامات لغة الفعل (Langage d'action)، ويركز في مؤلفه

(62) المرجع السابق، ص. 394.

(63) م. ن.، ص. 396.

(64) كان دندرياك معينا للأمير فرديناد بدم، فصنف له كتابا مختصرا في المنطق بعنوان "فن التفكير"

(65) Voir J. Kristeva, Le Langage est inconnu, Une initiation à la linguistique, éd. Seuil, Paris, 1981, p. 301.

"مقالة حول أصل المعارف الإنسانية" على أن اللغة البشرية الأولى بعد علامات الصراخ المعبرة عن العواطف هي لغة الفعل. يشن كوندياك هجوما على من يتشيعون إلى نظرية الذهن، ويسك مسلكية السيميائيات التجريبية والحسية في تصور العلاقة بين اللغة والفكر؛ إذ إن الوهم الذي سقط فيه بعض الفلاسفة اعتقادهم بوجود أفكار من بنات الذهن، ومستقلة عن التجربة الحسية.

إن الفكر - في نظر كوندياك - ليس محتاجا إلى مثل هذه الملكات النفسية التي توصف بالعاقلة. إن ملكة النفس لها من القدرة ما يجعلها تضيف الطابع السيميائي على الأشياء عندما تستدعيها بوساطة العلامات، أو تستدعيها إلى الوجود عن طريق سلطة التسمية. كيف تتعامل السيميائيات الكوندياكية مع أصل الأفكار وإشكالية المنهج؟ ولا غرو أن يطمح إلى أن يصبح 'نيوتن علم النفس'⁽⁶⁶⁾ مستعملا طريقة احتزال الظواهر المركبة في ظاهرة أساس وبسيطة. إن مقارنة كوندياك لهذين السؤالين لا تخرج عن تصوراته السيميائية الحسية، وإن كان قد عالج إشكالية المنهج في كتاب المنطق. إن مصدر المعرفة الإنسانية لا تكاد تفلت من علاقة الترابط بين الأفكار وعلامات اللغة، وبلغة السيميائيات المعاصرة بين الدال والمدلول. وأن العلوم ما هي إلا لغة سيميائية ذات طبيعة نسقية.

وما يعيبه كوندياك على بعض الأنساق السيميائية أنها لا تتوافر على ذلك الضرب من التماهي بين الأفكار والعلامات مثلما هو الحال في علم الهندسة حيث هناك تطابق تام بين الدال والمدلول؛ إذ لا مجال لمراوغات المعنى وانزلاقاته. إن العلامات لا تقدم لنا الواقع إلا بوصفه تجربة حسية مفردة معطاة. تنتهي لكوندياكية إلى الإقرار بالسيميائيات المحايثة وبلغة الحساب؛ لأن الذاكرة لا تستطيع أن تتسع إلى كم غير نهائي من التجارب الحسية المفردة والجزئية؛ إلا إذا خضعت إلى نسقية جوانية تتوحد فيها العلامات، وتصبح قادرة على الانمالات من مجرى التعدد المفتوح الذي يجعل المعرفة غير ممكنة. وعليه فإن السيرورات السيميائية للمعرفة تمكنا من خلق نسق (من ألفاظ الأجناس ذات الرتب العليا أو

Ernest Cassirer, Logique des sciences de la culture, Cinq études, trad. Jean Carro et Joël (66) Gaubert, Paris, éd. Cerf, 1991, p. 186.

السفلى. ونحاول أن ندخل فيها الأشياء المفردة بأجمعها، أي سائر الموجودات على وجه العموم. ومهمة العلوم مقصورة على أن تستبدل بالطريقة البدائية التي تطلق أسماء لفظية على الأشياء طريقة أكثر دقة ورهافة، فلسفة العلم هي بمثابة شبكة تقع فيها معطيات الإدراك الحسي⁽⁶⁷⁾. وفي هذا التصور بذور التفكير حول فلسفة اللغة وأهميتها في بسط المعرفة وإدراكها.

تدرس السيميائيات شروط المعرفة مثلها كمثّل المنطق أو الإبنيمولوجية، ويمكنها أن تستنتج أيضا تفكيرا أخلاقيا، تتساءل حول ما يمكن أن يؤكد بأن "الأشياء ينبغي أن تكون هكذا ولا تكون على نحو آخر"، وتوضح بأي كيفية نصنف أنساق القيمة ونحكم بها⁽⁶⁸⁾؟ ومن المنظور التجريبي فإن جميع أفكارنا تستمد وجودها من الإحساس. فالعمليات العقلية ما هي إلا تحولات تنتاب إحساسات الحواس، فالانتباه مثلا ينشغل فيه الوعي بإحساس واحد، ويعمل على إبعاد غيره من الإحساسات⁽⁶⁹⁾. ومن هنا نقف على تبرم الفيلسوف من الأحكام التي لا حجة لها سوى أنها أحكام مسبقة.

والحقيقة أننا مازلنا نرى العقلانية الديكارتية تحتفظ بحضورها في الخطاب الفلسفي بعمامة والخطاب العلمي بخاصة حينما تؤكد الفلسفة بأن صفاء الذهن ووضوح الأفكار وبساطتها سيسلمنا التفكير الإنساني إلى أسباب السعادة. على الرغم من أن كوندريك لا يفهم من البساطة إلا ما كان مصدره الحس خلافا لما يراه ديكارت، ولا يبدي رضاه لما درج عليه الفلاسفة من تبجيل مفرط للعقل إلى درجة أنه يقاد إلى تبرير بعض الأخطاء التي هي نتاج تركيب فسد؛ وهو يوجه نقده إلى ديكارت؛ ولهذا فإن السبيل إلى إنقاذ لعقل من فساد الأفكار هو إعادة بنائها؛ وإذا استعرنا عبارة كرسيفا قلنا بأنها عملية هدم بناء.

إن السيميائيات التي تشيد على لغة الحساب ينبغي لها أن تكون ذات طبيعة محايثة مجالها الفنون كلها؛ لأن (كونديك) يتخذ لنفسه في لغة الحساب قاعلة يلتزم بموجبها ألا يدخل من الخارج أي تعريف أو أي مبدأ، وبأن يستولد جميع

(67) ينظر ألكسندر ماكوفسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 397.

(68) Jean-Marie Klinkenberg, Précis de sémiotique générale, éd. De Boeck, Université et larcier (68) s.a. 1996, Bruxelles, p. 23.

(69) ينظر الموسوعة الفلسفية المختصرة، علما إلى العربية فؤاد كامل و آخرون، ص. 385.

الحقائق من عملية الحساب⁽⁷⁰⁾. ولئن سلم كوندياك مع لوك بأن المعنى مصدره الإحساس؛ إلا أن المعنى المركب وإن أتى من فكرة بسيطة بوصفها علامة قدرة ومتعلقة بها تستقبلها النفس عبر المداخل الحسية فهي خاضعة لنوع العلاقة التي يقيمها الفكر استجابة لحاجات الإنسان اللفعية؛ كما أنه يخالف لوك في أن هناك إحساسات قبلية سلفها في الطفولة قبل أن تستخلص من الأفكار.

يتدرج المعنى وفق المراحل الآتية داخل الحياة العقلية التي تحكمها نظرة حسية خالصة دون أن تكون منطلقة من تصور مادي للفهم السيميائي للعالم؛ لأنها ترسم في أسر اللاأدرية. إن التفكير الإنساني لا يمكنه الوصول إلى معرفة ماهية الأشياء.

الانتباه	تشكل الذاكرة	بدء الإحساس	التفكير
----------	--------------	-------------	---------

إن تحليل المعرفة الإنسانية ينطلق من تحليل الأحاسيس والأفكار؛ فليس (التفكير نفسه إذن إلا إحساس محمول معدل)⁽⁷¹⁾؛ بيد أن ميل "الموسوعة" في القرن الثامن عشر كان يتجه نحو البحث في أصل العلوم وتطورها على نحو نلهمه في مؤلف دالمير "الخطاب التمهيدي"؛ وهذا البحث لا يتم في معزل عن اللغة التي لا تنحصر لدى كوندياك في التعبير عن الأفكار وحدها، بل تنصهر في قلب التفكير نفسه على العكس من لوك الذي كان يرى أن الفكر ينشأ أولاً ثم تليه اللغة. إن سمو العلوم وتباين درجاتها مشروط بدقة العلامات اللسانية؛ ولهذا فهي تخصص كلها للبرهان. فالقضايا الرياضية والمنطقية وأحكامها على الأشياء تغدو في نظر كوندياك مهجاً واحداً. ومن هنا تتأتى أهمية فلسفة اللغة والبحث في إشكالاتها

كان كوندياك يصير عن تصور تجريبي في نظريته للمعرفة وكذا علم النفس التكويني الذي أسسه؛ حيث نجده لا يقاسم لوك الرأي في مسألة التجربة الباطنة. فمحتوى الحياة العقلية لديه تعدد الإحساسات مصدراً وحيداً لها، وقام بتفسير تجريبية جون لوك، ولكن قدم تصوراً للمنطق أكثر اتحاماً من لوك. ولكن في المقابل نلفي كوندياك يشيد نسقاً سيميائياً بقاء على متصورات حسية للواقع

(70) ينظر إميل برهيه، تاريخ الفلسفة، تر. جورج طرايشي، 93/5.

(71) ينظر ألكسندر ماكوفسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم محي، ص. 396.

توصف بأنها اختزالية ومسطحة ومفتقرة إلى الدقة.

انكب التفكير الفلسفي في القرنين السابع عشر والثامن عشر باتجاهيه التجريبي والعقلي على مدارس إشكالية الفكر واللغة، وكان لها منزلة خاصة في نسقية كوندياك التي أخذت ببعض من دعاوى يكون في نظرة المعرفة التي تتأني مما هو مفرد وجزئي، وأن القضايا العامة في النهاية هي محصلات لملاحظة الوقائع الجزئية؛ بيد أن كوندياك يخصص الفرضيات بعناية خاصة في السيرورات المعرفية⁽⁷²⁾. لقد وسم عصر التنوير السيمانيات بميسم النزعة التجريبية في نظرية المعرفة والمنطق، وتجلت في أدبيات ديدرو ودالمبير التي كانت الاتجاه الحسي باديا عليها.

إن فلسفة عصر الأنوار أبدعت "نظرية اعتباطية العلامات" من منطلق أن هناك قابلية للتواصل الطبيعي في العالم، ويؤلف في الآن نفسه الركيزة الإيقونية لعلامات المؤسسة كما أنها تسمح بمراجعتها في إطار الممارسة⁽⁷³⁾. ننطلق فلسفة دالمبير من نزعة حسية قوامها إن جميع الأفكار مرجعها الحواس. كما أنها تطالب بوضع جدول للأفكار البسيطة حتى يمكننا الوقوف على علاقاتها الممكنة حتى إنه لا يقترب من متصورات المنطق للايتنزي ذي الاتجاه الرياضي. ولا غرو أن يقدم مقارنة سيميائية للتصورات التي يراها (ليست إلا علامات مختصرة لوقائع التجربة)⁽⁷⁴⁾. مما سيجعل الكانطية لاحق تصدى للسيمانيات التجريبية وفي ضوء النظريات الدلالية.

تحظى الأفكار البسيطة بمنزلة خاصة من حيث هي ماهيات مفردة تسنعصي معرفتها في أثناء التحليل المنطقي؛ ولهذا فإن الأفكار المركبة وحدها التي تقبل تحزئتها إلى أفكار بسيطة. ولا يمكن الاستناد إلى تمييز التعريفات إلى واقعية واسمية لكونها لا تتصف بالدقة المطلوبة. (فتفسيراتنا العلمية ليست واقعية ولا اسمية، فهي ليست إشارات أو علامات نهبا نحن للأشياء، كما أنها ليست معرفة بماهيتها الباطنة، إنها تفسر طبيعة الشيء كما نفهمها نحن، لا باعتبارها مطابقة لما

(72) المرجع السابق، ص. 397.

(73) Lia Forigari, La sémiotique empiriste face au Kantisme, trad Mathilde Anquetil, éd. (73) Mardaga, Liège, p. 9.

(74) ينظر ألكسندر ماكوفسكي، تاريخ علم لمنطق، تر. نديم علاء الدين وبراهيم فتحي، ص. 399.

هي عليه في الواقع⁽⁷⁵⁾. ولكن التفكير السيميائي لم يكد يخرج عن دئرتي الاسمية والواقعية.

(75) المرجع السابق، ص. 399

الفصل الثالث

رهان السيميائيات الحسية

أحدث جون لوك [1632 - 1704] ثورة كوبرنيكية في معالجته لعالم الفكر، إذ اهتدى إلى طرائق تفسير ظاهرة لفكر من حيث منشؤها وتطورها؛ حيث قام مشروعه الفلسفي على نقد الأفكار الفطرية وإيضاح طرائق بناء الأفكار والتأمل في مسائل اللغة؛ ومن ثم الوقوف على رسم معالم السيميائيات عن طريق ربطها بنظرية المعرفة؛ وذلك بدراسة إمكانات المعرفة الإنسانية وتخومها التي ستجد تعبيرها في نسق الفلسفة النقدية الكانطية على نحو معمق. وقد ساعده تحرره في العلوم ولطب بخاصة على إخصاب التأمل الفلسفي؛ ولا سيما أن الفلسفة كما قال أوجست كونت: إنها تنتهي من حيث يبدأ العلم الذي يمتلك القدرة على تقديم أحوبة لبعض العضلات التي تعترض طريق الفلسفة.

لم يشايح لوك أرسطو وديكارت في القول بوجود أفكار فطرية، وإنما دعا إلى ضرورة تأمل ملكة الفهم لدى الإنسان. يستعين لوك لدحض بعض المبادئ المنطقية التي تنسب إلى الأفكار الفطرية مثل مبادئ الهوية والناقض بعجز مدارك لطمس في الإحاطة بها، وربما حتى لدى الراشدين الذين لم يكن لهم حظ وافر من المعرفة. إن لوك يركز على أحد هذين المبدئين في نقض التسليم بوجود الأفكار الفطرية من منطلق أن أصحاب هذه الدعوى لا يستطيعون الإقرار بأن النفس البشرية قادرة على معرفة جميع هذه الأفكار. لقد خصص الجزء الثالث من "مقال في الفهم الإنساني" لفلسفة اللغة، وشأنه شأن هومز يعرف الألفاظ بأنها علامات دالة على الأشياء التي تمثلها.

ينطلق جون لوك من المصادرة الآتية: ليس للعقل موضوع مباشر يستطيع أن يقيم عليه نسقا فلسفيا سوى ما يتوافر عليه من أفكار خاصة به حيث هي الإمكان الوحيد الذي يقدر على تأملها والاستدلال عليها. وإذا حكمت المنطوقات التجريبية فإن العقل لا يتضمن أي شيء لا يمر على الحس. إن ما يهم الذهن هو الوقوف على الأفكار السليمة ولا سبيل إلى طلبها إلا إذا انقاد العقل إلى

مكوناتها الثابتة، واهتدى إلى روابطها القارة. إن الفكرة السليمة تتأى أن تكون نتاج انقياد الأشياء قسرا إلى الأحكام المسبقة؛ وهذا ما دفع لوك إلى رفض الأفكار الفطرية التي قوامها الأحكام المسبقة. لقد عد لوك الأفكار البسيطة بأنها الأفكار الأولية التي لا يعلمها إلا بالخبرة، وهي التي تتألف منها الأفكار المركبة. وأن التفكير وحده يستطيع أن يصل إلى الإرادة وغيرها من العمليات الفكرية وليست النفس.

إن إدراكنا لحركة أو الامتداد أو الصلابة أو البرودة أو الحرارة تمثل أفكار الإحساس البسيطة، وهناك أيضا أفكار التفكير البسيطة مثل الإرادة والذاكرة ولا تنبأ، وحين تجتمع أفكار الإحساس البسيطة وأفكار التفكير البسيطة تؤلف الأفكار البسيطة التي لا ينبغي النظر إليها على أنها العناصر الواقعية للأشياء⁽¹⁾. ولهذا يصنف لوك تبعا لذلك الأفكار إلى (ثلاثة أنواع من الأفكار: الأحوال (الأعراض) والجواهر والإضافات (العلاقات). والأحوال (الأعراض) أفكار عن الأشياء التي لا تمتلك وجودا مستقلا، ولا تحمل في باطنها أساسا دائما (لا تقوم بأنفسها) مثل (الطيور والحمر). والجواهر هي معاني الأشياء التي تمتلك وجودا مستقلا (تقوم بأنفسها) مثل (الإنسان والخروف)، والإضافات (العلاقات) هي الأفكار التي تظهر بدءا من عقد مقارنة بين أشياء كثيرة. وإليها تنتمي تصورات العلة والفعل ولعلاقات الزمانية والمكانية والهوية والاختلاف إلخ⁽²⁾. ولكن كيف يتم نسبة الصحة والسطان للأفكار؟ ينبغي لوك أن تكون الأفكار على هذا النحو، وإنما الأمر يتعلق بالأحكام؛ غير أن توماس ويد الخصم العيد لدعاوى هيوم لا يشاطره رأيه فهو يعتقد أن الأحكام هي التي تتسم بطابع الأولية وليست الأفكار أو التصورات.

ظلت الرياضيات المعرفة التي تثير دهشة الفلاسفة من حيث انسجام مفاهيمها واتساق دعاواها، بن حلم بعضهم بإنشاء لغة كونية تحاكي لغة الرياضيات في عالميتها وانتظامها لداخلي. وعلى هذا النحو كانت لرياضيات الأنموذج الأعلى "لسيمبائيات المتعالية". لقد سبق لديكارت وسبينوزا أن وضعوا لبنات النسق

(1) ينظر إميل برهيه، تاريخ الفلسفة، تر. جورج طرايشي، 4/ 334 و335.

(2) ألكسندر ماكوفسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، صص. 360، 361.

السيميائي في التأمل الفلسفي من خلال ما أسماه سبينوزا بالمنهج الهندسي؛ كما لا ننسى بأن الفلسفة الديكارتية أسهمت في تشييد صروح الفلسفة والعلم على مرتكزات اليقين الذي يماثل اليقين الهندسي؛ وذلك بمحاولة إضفاء البعد الحسابي على المكان وأشكاله مما أغراها في فصل الميتافيزيقا عن الطبيعة، وتطبيق هذه المنهجية على علوم الطبيعة. وعليه فإن لوك يصنف المعرفة إلى ثلاثة أصناف: حدسية وبرهانية وحسية.

إن المعرفة الحدسية لا تضيف إلى خبرات إضافات جديدة؛ لأنها تكتفي بتحليل ما هو حاصل في علمنا سلفاً، ولا نحتاج إلى وسائط فكرية لإدراك الحقائق إدراكاً مباشراً من قبل العقل. تتم المعرفة الحدسية بلا وساطة أفكار؛ ذلك أن العقل لا يتطلب جهداً فكرياً للوقوف على الحقيقة كما تقف العين على الضوء. وكما يقف العقل على التمييز بين الأبيض والأسود وبين الدائرة والمثلث وأد العدد (2) لا يساوي (3). ومثل هذه المعرفة كما بصفها لوك تتسم باليقين والوضوح؛ ولهذا فهي تنسب إلى العبارات التكرارية لكونها قضايا تستند إلى مبدأ الهوية من صيغة (س هي س)؛ إذ يكرر المحمول فيها الموضوع، ولا تتضمن أخباراً جديدة. فالإنسان هو الإنسان والنفس هي النفس وما إلى ذلك من الأمثلة.

تختلف المعرفة البرهانية عن المعرفة الحدسية في كونها لا تهتدي إلى مواطن الاختلاف والاختلاف بين الأفكار امتداءً مباشراً. وهنا لا بد أن تندخل الأفكار الوسيطة لإدراك هذه الدرجة من المعرفة التي يصفها لوك بالبرهانية. فإذا جاز لنا أن نقارب بين المعرفة الحدسية ودلالة المطابقة أو الممثلات فإن المعرفة البرهانية تندرج في منطق نوع مخصوص من العلامات يسمى بالدلائل؛ وعليه لا ينبغي أن تنافس الدلائليات التي قوامها البراهين السيميائيات الحدسية التي قوامها مبدأ المطابقة؛ ولا سيما من حيث الوضوح واليقين.

تأتي المعرفة الحسية في مرتبة تجعل منها سيدة المعارف في طلب موضوع العالم الخارجي. يتمثل الفكر لدى البشر بينما تختلف حساسياتهم من حيث أطراد قوانين الفكر وخضوع الأفراد لسلطتها. وهذا ما يجعل عمليات التبليغ ميسورة بين الأفراد فتداول الأفكار أمر ممكن مثلما هو الحال بالنسبة لقدرة أي نسق سيميائي على التوصيل، ولعل اللسان أكثر الأنساق السيميائية قدرة على التوصيل. لقد

تعرضت الاستعارات إلى الامتهان والاحتقار من قبل الخطاب العلمي؛ وذلك انطلاقاً من كتابات لوك التي دفعت الفلسفة إلى الإمعان في إقصاء الاستعارة، بل حتى البلاغة التي لم تجد حظاً قليلاً في معجم لالاند، وكانت العلوم الرياضية من أكبر الحوافز على تبني هذه الدعوى التي بدأت في التراجع مع الفلسفة التقويمية والتأويليات والسيمياثيات؛ حيث استردت مجدها الصانع، وأصبح لها حظوة في الجدل الدائر داخل خطاب فلسفة العلوم.

طرح لوك مسألة وظيفة العلامة التي أثير حولها نقاش قديم؛ ولا سيما العلامة اللسانية هل تتضمن وظيفة تواصلية كما حرصت عليها اللسانيات العامة والوظيفية بخاصة أم أنها تتضمن وظيفة معرفية؟ ولهذا التساؤل علاقة بإشكالية اللغة والفكر؛ بيد أن الفلسفة القديمة لم تعترف للعلامة بالدور المعرفي، وأسلمت لها بالوظيفيتين المعرفية والتواصلية التي تحتل منزلة كبيرة في أنثروبولوجية كانط⁽³⁾. وهاتان الوظيفتان مساعدتان، وليست بأدوات معرفية. إن لأفكار لوك حضوراً قوياً في فلسفة هيوم التي تقرر أن المعرفة الإنسانية كلها تبدأ من الانطباعات. وقد انطلق توماس ريد في الاعتراض على ما سينكره باركلي بخصوص المادة وهيوم بخصوص العلة من مصادرات فلسفة لوك التي ترى أن الإنسان يولد صفحة بيضاء، وأن التجربة هي التي تملأ هذه الصفحة.

إيقونية باركلي

إن النزعة الاسمية لفلسفة باركلي قادت إلى تأمل المعرفة تأملاً سيميائياً حسياً؛ حيث لم يكن يؤمن بوجود علامة الشيء خارج الإدراك الحسي، وذلك من مطلق أنها استبدلت الأفكار العامة المجردة بالعلامات العامة التي تستطيع الحواس تقديمها لنا. وقد فسر إدراك الأجسام إدراكاً بصرياً على أنه محصلة استدلالية عن تلازم بين الإحساسات البصرية وإحساسات الحركة التي تقوم بها العينان أو مداخل الحس الأخرى. وقد قاده هذا التصور إلى بناء سيميائيات حسية ونظرية تكوينية في الإدراك الحسي للمكان أو للمسافات بين الأجسام أو

Jean Molino, Sémiologie et formes symboliques, in Encyclopédie philosophique (3) universelle, puf, 1998, Paris, p. 2062.

الأشياء .

إن هذا الإدراك ناتج عن علاقة مترابطة بين الإحساس البصري والحركة، وبلغت هذه العلاقة لفرط تكريرها منزلة العادة. إن ما نبصره من مسافات لا صلة بواقعية المكان كما ينصرف ذلك في الغالب الأعم إلى اعتقاداتنا؛ غير أن بركلي يستدرك حينما يرى بأن دلالة المكان هي معنى مركب لا يتأتى فقط من الإحساسات البصرية. ولكن يقع بركلي (في مغالطة منطقية، فهو يستبدل الجانب السيكلولوجي بالمسائل الأنطولوجية والمعرفية، وينتهي بذلك إلى تحويل المكان إلى مجموع إحساساتنا... وهو يقرر: "إن المنضدة التي أكتب عليها موجودة، ومعنى ذلك أنني ألمسها...")، فوجود الأشياء المادية مائل في قابليتها للإدراك الحسي وحده. ولم يكن بركلي مثاليا ساذجا يقول إن الذهن هو الأول، ولكنه كان لا ماديا ينفي وجود المادة نفسه. وما نسميه جوهرًا ليس في الواقع عنده إلا أفكارا (إحساسات)..⁽⁴⁾ بما أن الإنسان محفوظ لكونه يتوافر على ملكة تمكنه من القدرة على التجريد وتحصيل الأفكار العامة التي لا وجود لها إلا من حيث إنها علامات بما في ذلك إدراكنا للأشكال الهندسية.

وفي إحدى محاورات بركلي يوجه على لسان فيلونوس وهو يحاور هيلاس المادي نقدا للمعاني المجردة، وينتصر للأشياء المحسوسة (عندما أقرأ كتابا فإن ما أدركه إدراكا مباشرا هو مجموعة الحروف، ولكنني أدرك في الوقت نفسه إدراكا غير مباشر أو عن طريق هذه الحروف المعاني التي تثيرها في ذهني كلمات مثل الله والفضيلة والصدق... فليس من شك في أن حروف الكلمات أشياء حسية، وتدرك بالحواس)⁽⁵⁾. وعلى هذا الأساس فإنه لا يستسيغ الخلط بين الشيء المادي وصفاته المحسوسة، بل يرفض فكرة وجود معانٍ مجردة.

استندت السيميائيات الحسية إلى الصور البصرية والأصوات المسموعة والروائح والطعوم والحركة لبسط فكرة نفي وجود جواهر مادية نفيا مطلقا. إن التسليم بالأفكار العامة سواء أكانت أشكالا هندسية مثل الدائرة والمربع والمثلث

(4) ألكسندر ماكوفلسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحى، ص. 370.

(5) بركلي، المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس، تر. وتق. يحيى هويدي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1976، ص. 33.

مستحيلة لكونها عناصر يتخللها لتناقض، ويضاد بعضها بعضاً؛ حيث لا يمكن أن فكرة عامة إلا في الحالة التي نقبل بأن فكرة جرئية ما تؤدي دوراً يضطلع بتمثيل الأفكار التي تدخل في دائرة الجنس نفسه، ويحصل ذلك إذا نحن غصبنا الطرف، وصرفنا النظر عما يجعل الفروق بينها ماثلة. وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال الآتي: أنى للفظ أن يلبس لبوس التعميم، ويضحى علامة دالة على فكرة عامة، ونحن لاحظنا بأن الأفكار العامة مستحيلة؟! إنه علامة على بعض الأفكار الجزئية ليس إلا. إن سميات بركلي التي أنكرت وجود المادة والأفكار العامة، وحاولت أن تحتفي بفلسفة العلامة التي لا تقدم تلك العلاقة الميكانيكية بين العلامات وما تحيل عليه في العالم العياني.

لا وجود - في نظر بركلي - لما يسمى بالجواهر المادي في هذا العالم⁽⁶⁾. وكل ما هو موجود هو الصفات المحسوسة بوصفها إحساسات ذاتية، وهي تعتمد على العقل. فهو ينفي وجود مطابقة بين العلامة ومرجعها؛ ومن ثم فهو ينفي واقعية الأشياء كما تبدى لإحساستنا البصرية في المكان. ولقد أفضى به تأمله النظري إلى الإقرار بأن الطبيعة تتألف من العلامات التي هي آيات دالة على الحضور الإلهي وعظمته.

إذا كانت الفيزياء تتعامل مع مفاهيم المادة والمكان والزمان على أنها ظواهر طبيعية محسوسة مرتسمة في النفس إلا أنها لدى بركلي هي مجرد أفكار عامة تتصف بالتجريد. إن تصورات بركلي تربك فلسفة العلامة حينما تنفي وجود أفكار عامة في الذهن؛ ولهذا يصعب امتلاكها، وتطالبنا بالبحث عن نظرية للعلامات العامة قصد محاولة التخلص من التصورات الوهمية عن الأفكار العامة المجردة. إن فكرة استبدالها بالعلامات العامة للدلالة على كثرة الموضوعات الفرعية لها ما يعضدها في العلوم التي تسعى إلى تقديم قواعد وعلاقات ونظريات عامة بناء على معاينة وقائع عينية من الموضوعات؛ لهذا فإنها تصطنع العلامات والرموز بدل الأشياء.

إن ما هو متاح للمعرفة الإنسانية في نظر بركلي - سوى العلاقات والأفكار الجزئية الدالة عليها. ويمضي بركلي في مقارنته السيمائية للإحساسات

(6) باركلي، المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس، تر. وتق. يحيى هويدي، ص. 28.

البصرية التي يراها علامات دالة على إحساس اللمس المحتملة؛ ومن ثم فهي تتصف بالذاتية الخالصة. إن فلسفة بركلي ذات النزعة الاسمية تبلع مدى أوسع مما وصلته فلسفة هوبز، وترتكز على نظرية العلامات في تقديم تصوراتها للكثير من المعضلات الفلسفية. ومن ذلك أن تلك الأفكار المجردة العامة مثل المكان والزمان لا يوجد ما يقابلها في الواقع الذي يعد بمثابة الأمبراطورية السيميائية التي تأسرها بعلاماتها ورموزها، وتشكل عالمنا السيميائي الذي يتيح لنا أن نضع حدوداً لتسمية العلامات اللسانية لعدد الوقائع الفردية والجزئية. ولكن كيف نفسر الأشياء المادية التي تحيط بنا، ونحيا فيها؟

إنه يراها مجرد أفكار لا تستطيع أن تخبرنا عن الواقع. فهي لا تعدو أن تكون شبكة سيميائية وأشكالاً رمزية قد يكون لها دلالة ذات طبيعة احتمالية قد يكون لها بعض الضرر كما يكون لها بعض النفع. إن العالم الذي يحيط بنا، والذي نعيش في داخلها حسب بركلي يمكن أن نصفه بالعوالم السيميائية التي تموج بحركة العلامات التي لها دلالة علمية قياساً إلى وجودنا. فهي تكتفي بها الحد، ولا تتجاوزه لكي تحصل لها الجرأة لأن تمدنا بشيء عن هذا الواقع عينه. على الرغم من النقد العنيف الذي وجه إلى مثالية بركلي التي وصفت بالتطرف؛ لكنها منحت للممارسة العملية داخل تصوره، وأن هذه الفلسفة سيعاد بها الاعتبار في الفلسفة البراغمية الأمريكية.

قصور العلامة وعجز الفكرة الذهنية

إن نقد تصور العلية يمثل محور فلسفة هيوم [1711 - 1776]؛ إذ يتأتى قصور العلامة من حيث إنها فكرة لا تتمخض عن الانطباع المباشر. إنها تنتج عن المراس مترسمة في الذهن في شكل صور وذكريات؛ ولهذا يميز هيوم بين العلامات (الأفكار) التي تسبق من إدراك العقلي المباشر والعلامات التي لا تمثل فعالية الانطباع الأولي لكونها تستعيد خبرات سابقة، ومن ثم فهي تفتقر إلى الوضوح والدقة. وهكذا تتضح علة قصور العلامة؛ لأنها نتاج الصور الذهنية وتالياً فهي مفارقة للإحساس المباشر.

لا تكاد تخرج إدراكات العقل البشري - في نظر هيوم - عن لانطباعات التي هي إدراكات حسية وعاطفية وانفعالية؛ حيث تنهال على العقل انهياً لا قويا

وعن الأفكار التي هي علامات ضامرة لاندفاع الانطباعات المتدفقة على النفس أول مرة. وتبعاً لذلك فإن التصورات السيميائية من منظور هيوم تنقسم إلى علامات انطباعية قوية وعلامات - أفكار ناقصة وفاترة. وهي من البدهة بحيث لا يختلف اثنان على التمييز بين الإحساس والتفكير.

وعلى الرغم من أن العلامات - الأفكار قد تزول إلى درجة من القوة والتأثير فهي تكاد تعامى علامات الإحساس في أحيان كثيرة؛ وعليه فإن هيوم يفرق - أيضاً - بين هاتين العلامتين، ويصنفها إلى إدراكات بسيطة ومركبة. فالبسيطة لا تتجزأ عناصرها على خلاف الإدراكات المركبة التي (يمكن تحليلها إلى أجزاء متميز بعضها من بعض؛ فإنه وإن يكن اللون الخاص والطعم والرائحة كلها صفات متحد بعضها مع بعض في هذه التفاحة. فمن اليسير أن ندرك أنها مختلفة إذ يمكن على الأقل أن تميز بعضها من بعض)⁽⁷⁾. تلتقي فلسفة هيوم بفلسفة لوك في الإقرار بأن المعرفة البشرية كلها يأتي مصدرها من الانطباعات.

إن العلامات المجردة هي عملية تجريد الأفكار العامة من الكم والكيف بجميع درجاتها الجزئية؛ وهذا لا يعني أن الأشياء (التي توصف بالعلامات المجردة) لا تفقد انتماءها إلى نوع معين خالجه إبدالات في امتداداته الزمكانية أو صفات عرضية أخرى. إن العلامة المجردة (الفكرة) (عن الإنسان تمثل الناس على اختلاف أحجامهم واختلاف صفاتهم، وهو تمثيل لا يستطيع القيام به إلا بإحدى طريقتين، فإما أن تمثل دفعة واحدة كل ما يمكن تصوره من أحجام ومن صفات، وربما ألا تمثل فرداً جزئياً على الإطلاق)⁽⁸⁾. ومن ثم لا ينبغي تبرير قصور العلامة بالاحتماء بذلك الرأي الذي يزعم أن العقل يتوافر على إمكانات غير محدودة وقدرات لا نهائية.

هل العلامة المجردة لا تمثل كما ولا كيفا في أي درجة جزئية محددة؟ يشكك هيوم في سلامة أي استدلال ينتهي إلى إثبات هذه النتيجة. إن التجرد من هذه الصفات أو المقولات حسب أرسطو (الكم والكيف) لا يعني البتة أنه

(7) دفيد هيوم، رسالة في الطبيعة البشرية، تر. زكي نجيب محمود، صص. 1، 2. ضمن كتابه حول دفيد هيوم، دار المعارف، مصر 1958، صص. 172، 173.

(8) م. س.، ص. 17، عن زكي نجيب محمود، (م. س.)، ص. 175.

مقطوع الصلة عن خبرات سابقة. لا يطمئن هيوم إلى تصنيفات الانطباعات إلى تلك التي تمثل الأشياء المادية (الأشكال والأحجام والحركة والصلابة)، وهي تشير على السواء لدى الفلاسفة وعامة الناس إلى الوجود المتميز والمتصل بينما هناك ضرب من الانطباعات التي تمثل الألوان والروائح والطعوم والأصوات والحرارة والبرودة؛ وهي تماثل الضرب الأول لدى السواد الأعظم. وأخيرا هناك انطباعات التي تنقل لنا الآلام واللذائذ التي تحدث نتيجة تأثير الأشياء في الأجساد. وهي مجرد إدراكات لدى الفلاسفة والسواد الأعظم من الناس. إن هذا الضرب الأخير من الانطباعات (يمثل كائنات متقطعة الوجود ومعتمدة في وجودها على من يلزمه)⁽⁹⁾. لا يفرق هيوم بين هذه الأنواع من الإدراكات الحسية على مختلف أنواعها من حيث طريقة وجودها في حدود ما تتحكم به الحواس.

إن الألوان والأصوات والحرارة والبرودة كما تبدو للحواس لا فرق بينها وبين ما هو عليه حركة الأجسام وصلابتها؛ من حيث طبيعة وجودها (من الواضح أن الألوان والأصوات وما إليها هي في أسسها شبيهة بالآلم ينشأ عن حز أجسادنا بجسم صلب، وباللذة تنشأ عن الدفء يبعث من النار، وأن الفرق بين هذه وتلك لا ينبني على إدراك الحس ولا على العقل، ولكنه وليد الخيال؛ لأننا ما دمنا نعترف لكلا النوعين معا بأنهما ليسا سوى إدراكات حسية عن الطريقة الخاصة التي تنشكل بها أجزاء الجسم وتتحرك، فمن أين يمكن أن يجيء ما بينهما من اختلاف؟)⁽¹⁰⁾. وسنلغي فكرة الارتباط الضروري بين الظواهر هي فكرة العلية.

لا نحتفظ العلامة - الفكرة في صورتها المثلى لدى هيوم بحيوية ظهور الانطباع الأول في العقل، ويكون مجالها الخيال؛ بينما إذا ظلت العلامات تحتفظ ببعض الحيوية الأولى، وتتراوح بين الانطباع والفكرة فيكون مجالها الذاكرة؛ وهكذا تكون العلامات الصادرة عن الذاكرة أقوى حيوية من العلامات التي ترد إلينا من الحيال. وعلى الرغم من هذا لاتباين في درجة الحيوية بين علامات الذاكرة وعلامات الخيال لا تستطيع (أن تحقق لنفسها ظهورا في العقل

(9) دفيد هيوم، رسالة في الطبيعة البشرية، تر. زكي نجيب محمود، صص. 192، 193. ضمن كتابه حول دفيد هيوم، ص. 178.

(10) م. م. ص. ص. 193، عن زكي نجيب محمود، (م. م. ص. ص. 178، 179).

ما لم تكن قد سبقتها، ومهدت لها الطريق انطباعات مقابلة لها، إلا أن الخيال ليس مقيداً بنفس الترتيب والصورة اللذين حاءت عليهما الانطباعات الأصلية، على حين أن الذاكرة مقيدة بهما على نحو ما، دون أن يكون في استطاعهما إحداث أي شيء من التغيير⁽¹¹⁾. لكن كيف نواجه حالات التغير والعبور والتقلب التي تكاد تلازم الانطباعات؟ هل العلامات الحاملات لهذه الانطباعات قادرة على بناء نسق معرفي متماسك ومنسجم؟

يشكك هيوم في قدرة التخمينات والاستدلالات العقلية على النفاذ إلى عمق الوقائع دون أن تستند إلى الخبرة، كما أن إدراك لعللة واستنتاج ظهور اللاحق من وجود السابق لا دخل للعقل فيها. وهذا الأثر ينتج عن مبدأ العادة القائم على تكرير الفعل؛ ومن ثم لا ينبغي الاطمئنان لوحود فكرة العلة، وإنما يتعلق الأمر بالوقوف على أحد مدئ الطبيعة البشرية. يضمن هيوم العادة مثلما سنلفي بورس يوليها أهمية كبيرة في المنطق. (... فكل الاستدلالات التي نقيمها عن الخبرة إنما هي نتيجة العادة لا نتيجة التمدلل العقلي)⁽¹²⁾؛ لأن العادة هي وحدها الكفيلة بأن تضفي الوظيفة البرغماتية على الخبرة. ومن دونها سيظل الجهل يستبد بفهمنا، ويسدل ستاره علينا، فيحجب عنا فهم الواقع. فالعادة هي الدليل المرشد للحياة البشرية كما يعتقد هيوم.

ينكر هيوم فكرة الضرورة التي تُنسب إلى حركة لمادة وفعلها؛ ولا سيما ما تعلق بفاعلية سببيتها. إن فكرتنا (عن الضرورة والسببية تنشأ كلها عن الاطراد الذي نلاحظه في عمليات الطبيعة؛ حيث ما تنفك الأشياء المتشابهة بصاحب بعضها بعضاً، ويتحتم على العقل بفعل العادة أن استدل شيئاً إذا ما ظهر شيء آخر... فليس لدينا أية فكرة عن أي نوع من الضرورة أو لارتباط)⁽¹³⁾. فالاستدلال لا ينبني إلا على التصور. أما فيما يخص نداعي الأفكار فنقوم في نظر هيوم على المشابهة والمحاورة في زمن الوقوع أو مكانه ولعلية. وعلى الرغم من إيمان

(11) م. س.، ص. 9، عن ركي نجيب محمود، (م. س.)، ص. 181.

(12) دفيد هيوم، بحث في العقل البشري، تر. زكي نجيب محمود، صص. 42، 46، ضمن كتابه حول دفيد هيوم، ص. 185.

(13) م. س.، صص. 82، 83، عن ركي نجيب محمود، (م. س.)، ص. 198.

هيوم بالتجربة إلا أن بصمات النزعة الاسمية بادية على آرائه.

استجابت السيميائيات الحسية لرهان التجربة التي نبذت متصورات المعنى القائمة على أسر الصور الذهنية؛ إذ انقادت السيميائيات إلى توجهات النزعة التجريبية التي ركزت على الداخل بالعودة إلى الأفكار؛ إذ أنزلوا الانطباعات الحسية منزلة عليا، ونبذوا الأفكار الفطرية؛ بيد أن هناك ميلا في فلسفة اللغة إلى تغيير الزاوية من أجل النظر إلى مثل هذه المسائل نظرة تأخذ في حسابها الأعراف الاجتماعية التي تحيط بعوالم اللغة. ومن هنا شكك هذا الاتجاه في معدن الفكرة ومفهومها؛ وعليه فإنه بدل الانخراط في مناقشة الأفكار ورفضها طفق التركيز على العلامة بدل الفكرة، وأن هذا الاختيار له تبعات إستيمولوجية تستند إلى إستراتيجية جديدة تتعامل مع اللغة تعاملًا سيميائيًا غالبًا ما يتلبس بلبوس التصورات الاسمية.

على الرغم من أن لوك تبني رؤية حسية إلا أن دعواه في جوهرها قائمة على فلسفة لغوية ذات أبعاد سيميائية، وأن ما أشار إليه بخصوص الأفكار وطبيعتها التجريدية وما يترتب عليها من علاقات وقدرة على التعميم والتعقيد تنصرف إلى اللغة وعوالمها. لقد ورثت السيميائيات على يد هومز ولوك وهيوم وأشياهم عقيدة راسخة تسلم بأن ما هو معقول ينحصر فقط في مجال الحس، وأن تحليل الأفكار لا يصبح عمليا ما لم تستند هذه الأفكار على قاعدة الانطباعات الحسية. إنه من المعلوم لدى المتضلعين من فقه الفلسفة التجريبية بأن عالم الأفكار المنبوذ ظل يشغل بال التحريبيين حتى جاء فلاسفة من أمثال كواين Quine فجردوا الأفكار من اهتمام فلسفة اللغة، وأحلوا محلها ما ندعوه بالأنساق السيميائية الدالة.

الفصل الرابع

سيمانيات التعالي

لقد بدأ تيار سيميائي يظهر في نهاية القرن الثامن عشر داخل أدبيات الثقافة الألمانية بعدما عرف القرن التاسع عشر بزوعا نحو نقد النسقية الأرسطية لدى ديكرت وبيكون وجون لوك، وتجلّى فتور الحماس لمنطق أرسطو انطلاقا من نقد نظرية القياس، ولكنه يلتقي في تصوراته العقلية مع النزعة التجريبية التي وسمت الفلسفة الإنجليزية بميسمها كما أن هذا التيار يقترب مع النزوع الإيديولوجي الذي كان يهيمن على الفلسفة في فرنسا. إن ليا فورميجاري Lia Formigari⁽¹⁾ أظهرت العلاقات المتباينة بين الكانطية والسيميائيات التحريية انطلاقا من المفهوم الكانطي للتمثل والنظريات الدلالية؛ ثم عاجت على هردر بوصفه ناقدا لكانط ومتشيعا للفلسفة الشعبية، وكذلك وقفت على إسهامات لامبير من خلال علاقة الفكر باللغة في الفلسفة الألمانية.

إن الفلسفة التقليدية المثالية وتاريخها كانت هي الأخرى ميالة إلى حجب (occult) هذا الخط في بحوثها. ومن هنا يمكن أن نعد سيميائية لامبير Lambert بوصفها آخر المحاولات الكبرى لتأسيس نظرية عامة في العلامات بموجب نسق العلوم؛ حيث نلّقي تصورا محدودا في الأرغانون الجديد⁽²⁾ لهذه المعرفة التي تقوم على أسس نظرية قوامها البحث عن تعيين الأفكار والأشياء، بل هي محاولة لاختزال نظرية الشيء إلى نظرية العلامة⁽³⁾ التي أريد لها أن تلقي الضوء على ما كان يلتبس من مفاهيم عامة، وغالبا ما كان هذا الالتباس مقصودا في ذاته أو لغيره. إن السيميائيات كانت مطالبة بالعودة إلى منطق الحساسية والتمثيل الواضح للعلامة خدمة للنزوع التجريبي الذي بدأ يطبع فلسفة القرن السابع عشر في توجهاتها العامة. ثم هناك المسارات النظرية لعلم النفس التجريبي التي وقفت على مختلف الاعتراضات المشككة من وجهة النظر اللسانية التي تلّقي بزعة التعالي الكسبية

Voir Lia Forigari, La sémiotique empiriste face au Kantisme, Liège.

Lia Forigari, La sémiotique empiriste face au Kantisme, p. 77.

Voir S. Auroux, La Philosophie du langage, p. 118

(1)

(2)

(3)

ذات الامتداد الميتافيزيقي.

يتمثل الهدف الثاني وهو أكثر طموحا من الهدف الأول في تمييز العناصر التي لها صلة بأزمة الأنموذج الأمبريقي في فلسفة اللغة، والإسهام - أيضا - في إيضاح العلاقات القائمة بين اللسانيات والفلسفة. وذلك لكي يتم الانتقال من مسار السرعة التجريبية إلى مسار النزعة المثالية؛ ثم مساءلة الأسباب التي فرقّت بين اللسانيات والفلسفة سواء أكان ذلك من المنظور المنهجي العلمي أم من المنظور المؤسساتي.

وحتى الآن لأن هذه العملية تم النظر إليها من زاوية تطور فلسفة التعالي وتأثيرها في فلسفة اللغة. ولكي نقف على هذه المواضع وتجلياتها من الأجدر تأمل الفلسفة المثالية ما قبل كانط وما بعدها بغية إدماج نظريات اللغة ضمن إطار محدد من قبل علم النفس المعرفي بوصفه فرعاً معرفياً أساسياً في التفكير الفلسفي الذي يقدمه على أنه تفكير متأمل حول العلوم الوضعية. ولعل ذلك ما اصططنعناه ونحن نعود إلى الأفكار العامة حول السيميائيات التي جسدها تاريخ المنطق قبل كانط.

تتلخص أولية المقترّب النظري في أزمة مفهوم "التعالي" في الفلسفة الكانطية، وما تبع ذلك من التأويلات المختلفة التي سلفها في أثناء تطبيق مفهوم التعالي داخل النظريات اللغوية. ولا سيما أن التعالي تعرض لمساءلات بوصفه أنموذجاً معرفياً ظل لمدة قرنين يشكل معلماً نظرياً يحيل على المذهب الدلالي للنزعة التجريبية التقليدية. وإذا نحن تساءلنا عن منزلة المنطق في هذا "الهرم الفلسفي" لم نجد إضافة نوعية يمكنها أن تزيد هذا النسق الفلسفي شموحاً؛ حيث يعترف كانط بأن لا إضافة بعد منطق أرسطو، وحتى عندما نقف على الحديث عن المنطق المتعالي لدى كانط فهو لا يكاد يخرج عن إطار الصورية التي تهتم بالمقولات القبلية التي ما هي إلا صورة للمعرفة في مقابل مادتها التي تتألف من العناصر التجريبية⁽⁴⁾.

أكدت بحوث جون لوك اعتباطية الأسماء من منطلق أن الأفكار البسيطة هي معطيات أولية للتجربة. فالأفكار البسيطة هي نفسها بالنسبة لجميع الناس

(4) ينظر جول تريكو، المنطق الصوري، تر. محمود يعقوبي، ص. 47.

الذين لهم توجه واحد، فلا يحتاجون إلى تحديد. فأسماءهم ليست موضوعا محل مناقشة وجدل (controversé). فاعتباطية العلامات اللسانية ينبغي توكيدها على الدوام داخل التطورات النظرية المتعاقبة من جون لوك إلى هردر. إن استمرارية العلاقة بين العلامات الطبيعية والعلامات المؤسساتية تمثل شكلا مكتسبا أو حتى مقدمة منطقية (prémisse). ولا بد من الإشارة أن الفلسفة الشعبية التي انتصر لها هردر كانت تغلب عليها النزعة التلقيفية؛ ولكنها في المقابل فسحت مجالا واسعا لكل من فلسفتي اللغة والتاريخ للهيمنة على الفلسفة الألمانية ردحا من الزمن.

فالكيفيات ما هي إلا علامات تتواصل بها الأجساد. ومن هنا يمكن القول بأن الإدراك هو ضرب من القراءة للعلامات الطبيعية. فهي علامات قابلة للتواصل كما يسميها هردر، وتقدم على أنها تمثيل دائم يستدعي التأويل. إن النظرية العامة للتواصل السيميائي بواسطة العلامات الطبيعية التي نلفيها لدى باركلي (Berkley) وهامان (Hamann) ذات الوجهة التيولوجية والإعجازية وفي وجهتها الحسية تشكل قاعدة عامة لكل سيميائيات هذه الحقبة. كما أنه لا يجب إغفال الفائدة المتوخاة التي نستخلصها من علم الفراسة (physiognomonie) ودراسة العلامات التعبيرية للمواطن؛ وهذه النتائج تتقاسمها الثقافة الفلسفية والعلمية والبيولوجية والجمالية. فالعلامات الطبيعية تمثل المعلومة الأولية حول العالم. إن هذه المعلومة توجه السلوك الإنساني. إنها القاعدة التي تركز عليها كل العلامات اللسانية؛ وهي في الأخير تعد ضمانا لكل دلالة.

هناك قطيعة أنثروبولوجية بين ما هو طبيعي وما هو اعتباطي؛ ذلك لأن المؤسسة السيميائية التي تسم ارتقاء (avènement) الإنسان بوصفه حيوانا ثقافيا ووضعه في إطار السيرورات الأنثروبولوجية التي تخص الطبيعة ذاتها. ولكنها لا تعرف أبدا القطيعة المعرفية (gnoséologique). وعلى الرغم من أن فلسفة الأنوار أنجزت نظرية "اعتباطية العلامات" إلا أنها ارتكزت بطريقة أو أخرى على السند الدلالي حول قابلية التواصل الطبيعي في العالم. فهي تشكل في الآن نفسه المرتكز الأيقوني للعلامات المؤسساتية، وتسمح بالتحقق منها في إطار الممارسة.

إنه من الصعب توسيع هذه الأيقونية إلى الروابط التركيبية بموجب تأميس تشاكل (isomorphisme) بين تركيب الألسن والتنظيم الصوري للتمثيلات الأولية

والمشتقة التي تدل عليها. لسر هناك أي حد حلي (ostensive) أو ممكن بالنسبة للعلاقات الزمكانية أو حتى لروابط السببية مثلا. وهو ما كنا نسميه لمدة طويلة بشكل (forme) للسان لا يتيح ذلك الضمان للكونية التي بموجبها يصبح اللسان أداة للعلم والمعرفة، وإذن يكون ضامنا للعلاقة بين اللغة والعالم؟

إن التماثل بين البنية الفكرية والبنى النحوية التي تم صوغها نظريا من قبل التراث العريق للنحو العام (grammaire générale) التي أتاحت الضمان اللازم (requis)؛ وهذا ما يفسر ذلك التعايش السلمي (وفي بعض الحالات حدوث التطابق الواضح) بين المعرفة "الأمبريقية" وبين النحو "العقلاني". تحنك النزعة الكانطية لهذا التعايش في ترجمة مفهوم جديد للشكل بوصفه عنصرا متعاليا وإذن فهو غير مشروط. وهذا يعني بداهة بأنه لا يتعايش مع تصور اللغة بوصفها إنجازا لتجربة أيقونية وسميائية مشكلة ومتحولة.

يمكن إجمال بعض الإجابات للتحدي الذي تفرضه نزعة التعالي حيال النظريات اللغوية في ثلاث إجابات: الإجابة الأولى. وتتمثل في السعي لإعادة تأسيس "النحو العام" في ضوء المنطق الكنطي المتعالي، ومن منطلق أن "النحو العام" يعطي قونين مشتركة تعم ألفاظ الأمم كلها حسب الفارابي⁽⁵⁾. ويتعلق الأمر بإعادة تسوية أو إعادة تصنيف للأشكال النحوية بموجب القائمة الجديدة للمقولات، ولكن ذلك يشكل في الحقيقة ثورة منهجية مهمة؛ ولا سيما أن بتفينست كان قد دشن حملة تشكيك في كونية المنطق الأرسطي؛ لأن هذا المنطق انبنى من بركات لغة يونان التي لها خصائصها بحيث يتعذر تعميمها على جميع لغات الأمم الأخرى. مثل الأمر نفسه بالنسبة للفلسفة التي أعيد تعريفها بوصفها منهجية للمقاربة المتعالية للمعرفة، وتتميز كما هي عن العلوم التجريبية. فالنحو العام (الفلسفي) يعلن تخيه عن المنهج التجريبي بعية إعادة بناء الشروط المتعالية للسان. مثل هذا الموقف الذي بموجبه يسهم المنهج الماقلبي على وجه الاحتمال بإسقاط النحو العام من حظوته (discredit) من قبل اللغويين ذوي النزعة المقارنة (comparatisme). إن فقدان هذه الحظوة انتهى بالارتداد (rejaillir) إلى النحو العام ما قبل الكنطية على نحو لم يكن معهودا فيما سبق، ولا يمكن أن

(5) ينظر إحصاء العلوم، ص. 16.

يطبق أي منهج قبلي.

الإجابة الثانية: وهي مطروحة من قبل فلسفة اللغة ذات التوجه المثالي، والتخلي عن التصور لأداتي للسان. إنها حاولت أن تحدد اللسان ليس بوصفه جهازا تحليليا (dispositif analytique) بحيث تتطابق عن طريقه الذات مع العالم، ولكن بوصفها قوة مستقلة ليست فاعليتها مشتقة من البنى البيولوجية للذات ولا من بنى العالم. بل هي على العكس من ذلك مبنية في ذاتها مثلما هو الحال بالنسبة للذات كما هو الحال أيضا بالنسبة للعالم. فاللسان عنصر متعال عن التجربة. وهذا الاتجاه يمثلته همبولدت على وجه الخصوص، ويقع في صلب النقاش اللساني في عصر الرومانسية.

الإجابة الثالثة: ويمكن وصف هذه الإجابة بالقوة المادية. إن العنصر غير الاعنطاطي للأشكال اللسانية يسند إلى البدء العضوي للإنسان، فهذا الحل كان موجودا ضمنا لدى بعض الكتاب من أمثال كونديلاك (CONDIALLC) تحت ضغط نرعة التعالي الكانطية التي أصبحت جلية لدى هردر (HERDER)، وبخاصة ما اتصل بمتصوراته في فلسفة التاريخ⁽⁶⁾. وبالتعارض مع المفهوم الكانطي للأشكال المتعالية يمكن أن نترجم بواسطة الوعي الذاتي المعجسد وجوانيته داخل الألسن عنصر العالمية الذي يضمن بفضل اطراده (uniformité) شبكة مشتركة من مقاييس تحديد وإعادة تحديد الموضوعات وعلاقاتها. إن التطابق (congruence) بين اللغة والعالم متحقق سواء أكان على مستوى "ذري" عن طريق نسبية أيقونية دلالية (وهو ما كان عليه الحال في إطار النزعة التجريبية الكلاسيكية) أم على مستوى شكلي.

الكانطية والمنطق المتعالي

تنقسم المعرفة إلى قسمين في الفلسفة الكانطية إحداها تهتم بـ "بناء المفاهيم" وتلك غاية المعرفة الرياضية التي تستدعي الحدس القبلي أو الموضوع القبلي الذي يتعلق به، والأخرى تشغل بـ "بالنظر في المفاهيم" وتلك غاية المعرفة الفلسفية

(6) Voir P. Pénisson, Kant et Herder, "Le recul d'effroi de la raison", in Revue germanique internationale, 6/1996, p. 70

التي لا تكاد تتجاوز حدودها لكي تتطلع إلى متعلقاته الحدسية. فالكانطية حريصة على تأكيد مسألة أن المعرفة تنبع من الحدس لا من التصورات، (فتكون المعرفة الفلسفية عبدة عن معرفة لغوية يغلب عليها التحليل، وقضاياها التركيبية لا تزيد في علم ولا تأتي بجديد، في حين تكون المعرفة الرياضية عبارة عن معرفة حدسية يغلب عليها التركيب، وقضاياها المختلفة يتسع بها العلم وتحمل الجديد)⁽⁷⁾. إن بناء المفاهيم هو تحصيل الزيادة في المعرفة وعند طه عبد الرحمن يقابل لفظ "الإنشاء" للدلالة على هذه الزيادة.

إن كل معارفنا عبارة عن أحكام. والحكم هو إدراك وقوع النسبة بين أمرين أو إدراك لا وقوعها؛ إذ يعرف لالاند الحكم بأنه (قرار ذهني يثبت به العقل مضمون الاعتقاد، ويقلبه إلى حقيقة). حيث تنقسم الصفات التي تلحق الموصوفات إلى ذاتية وموضوعية. والحكم هو (إيقاع النسبة بين شيئين أو رفعها سواء كان ذلك نتيجة إدراك حسي مباشر أو نتيجة برهان عقلي)⁽⁸⁾. يحدد كانط مراتب الأحكام فيما يأتي:

- 1 - هناك أحكام هوية مطلقة يتكرر فيها تصور الموضوع في المحمول = أ، وهي تحصيل حاصل بسيط (الذهب هو الذهب).
- 2 - هناك أحكام هوية واقعية يسميها كانط بالأحكام التحليلية. وهي بخلاف أحكام الهوية المطلقة؛ حيث يصبح مفهوم موضوعها محمولا فيها. (الذهب أصفر)
- 3 - هناك أحكام تركيبية. (الكثافة السببية للذهب = 19,5). فهي تضيف إلى معرفتنا بموضوع الحكم جديدا، وتثريه بأوجه جديدة معطاة في المحمول.

يصنف كانط الحكمين الأخيرين إلى أربعة أحكام: 1 - تحليلية بعدية (متخيل صرف؛ لأنه لا يمكن أن يوجد حكم تحليلي تجريبي)، 2 - تحليلية قبلية، 3 - تركيبية بعدية، 4 - تركيبية قبلية. أما الأحكام الثلاثة الأخرى فهي

(7) ينظر طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء وبيروت، ط 1، 1998، ص. 35.

(8) جميل صليبا، علم النفس، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط. 3، ص. 523.

واقعية⁽⁹⁾. يحكم كانط قانون التناقض في الأحكام التحليلية 'بمتنع أن يكون لموضوع محمول يناقضه'.

وبخلاف تصورات لايبنتز التي كانت تتعامل مع المحسوسات على أنها معقولات، فإن كانط أشار إلى ضرورة التمييز بينهما من منطلق حرصه على التمييز أيضا بين لحساسية والفهم وفق منظور الاستطيقا المتعالية التي تضطلع بمدارسة الصور القبلية للحساسية. وإذا ربطنا هذه الإشكالية بنظرية الحكم. فكيف تكون الأحكام القبلية ممكنة؟ علما بأن الحكم⁽¹⁰⁾ هو نتيجة إثبات علاقة بين حدين أو نفيها؛ ولا يمكن أن يصبح للقضية معنى إلا به. إن (الحكم التركيبي البعدي هو حكم تجريبي معتاد، ويمكن أن يكون جزئيا أو كليا. بينما يأتي الحكم التركيبي القلي في النهاية، وهو ما اضطلع كتاب نقد العقل الخالص على حل مشكلاته)⁽¹¹⁾. وفي الإطار هناك إمكانات للأحكام التركيبية القبلية التي تعد الإشكالات الجوهرية في النسقية الكانطية؛ بهذا فهي ذات طبيعة سيكولوجية تتعلق بالواقع، أما صوابها المنطقي فتربط بالحق. تقوم الفلسفة النقدية - حسب بنيكه - على قاعدة فحواها (أن المعرفة تصدر عن الحدس لا عن التصورات)⁽¹²⁾. ولكي يتم استيعاب خطاب "نقد العقل الخالص" لا بد من تمثيل مرتكزاته واستيعابها، وتنحصر هذه المرتكزات⁽¹³⁾ في الأنطولوجية الكلاسيكية ومجرات العلم الحديث كما حددها غوتفريد مارتان.

لطالما أشاد كانط بمنطق أرسطو لكونه لم يهمل لحظة من لحظات الذهن، وشمل محتويات المنطق كله. فأضفى عليه هالة الكمال حتى إن كثيرا من مؤرخي المنطق لم يروا بأن كانط صاحب إضافة نوعية في المنطق، بل صنفوه في خانة المنطق الأرسطي؛ ولا سيما أنه كان يحدد ميدان المنطق فيما ينبغي أن تكون

(9) ألكسندر ماكوفلسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، صص. 401 - 421.

(10) ينظر بول موي، المنطق وفلسفة العلوم، تر. مؤاد حسن زكريا، دار بهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، د. ت.، ص. 32.

(11) ألكسندر ماكوفلسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، صص. 401 - 421.

(12) المرجع السابق، ص. 414.

(13) Voir Gottfried Martin, Science moderne et ontologie traditionnelle chez Kant, trad. J. Cl. (13) Piguet, éd. Puf, Paris, 1963, p. 7.

عليه الوقائع لا البحث في الواقع ذاته ولا في مضمون الفكر. فتعامل معه على أنه قانون، وليس بألة كم درج النظر إليه في العصور الوسطى ولدى بعض فلاسفة المسلمين. وهو لا يسهم في إغناء منهجيات البحوث العلمية، ويكتفي بأن يكون قانونا يعرف به صحيح قضايا العلم. وعليه فإن المنطق بوصفه سبيلا تمهيديا يكون مدخلا للعلوم فحسب، وعلى الرغم من أننا نفترض من دون شك الحكم عليها (لكن اكتسابها ينصرف - على وجه الخصوص - إلى ما ندعوه موضوعيا بالعلوم)⁽¹⁴⁾. إن الفكر يحتاج لا محالة إلى علم يشيد قوانينه الضرورية؛ ولكي يحافظ العلم على نسقه الموضوعي يفترض أن يناقض الفهم معطيات الملاحظة. ولهذا سيتم الاحتفاظ بمبدأ عدم التناقض بوصفه المعيار السليم لصحة التفكير.

حاولت فلسفة كانط أن تؤسس "نظرية التجربة"، بل أرادت أن تعرض عقلانية فولف ونظرية الذهن لديه بواسطة بالنزوع التجريبي السائد؛ ولا سيما أن كانط يعترف بأن هيوم قد أيقظه من سباته العميق التي كان يعيش فيها قبل مرحلة "نقد العقل الخالص". ولم يكن كانط بدعا من فلاسفة عصره الذين كانوا يرغبون في تحقيق أصالتهم عن طريق التميز والخروج عن عقلانية فولف ولايبنتز. إن هناك مقاومة لسحر تطبيق أنموذج الرياضيات على الفلسفة. بيد أن التجربة التي كان يجابه بها الفولفية لا تكاد تنفصل عن المتصورات المثالية التي تلبس لبوس الموضوعية.

ناقش كانط في رسالته 1770 التي تمثل موضوع الساعة آنذاك؛ حيث كان يدور حول مبادئ صور العوالم المحسوسة والمعقولة، فأشار إلى (أن المعنى العقلي الصرف لا يقبل الإرجاع إلى الانطباع السلبي في الحس كما يشاء التجريبيون، أكثر مما يقبل الإحساس الإرجاع إلى معنى مختلط)⁽¹⁵⁾. هناك سؤال جوهري هل العلامات منقادة للأشياء اقيادا تمليه ضرورات التجربة؟ تلك دعوى أشياخ الملسفة التجريبية لا تتوافق مع التصورات التأملية لفلسفة العلم وأسسها النقدية التي تنسب الأحكام الرياضية إلى الحدس الخالص للمكان إذا تعلق الأمر بالهندسة والحدس الخالص للزمان إذا ارتبط بالحساب. وعليه هل العلاقة

Kant, Critique de la raison pure, trad. Jules Barni, revue P. Archambault, préf. Luc Ferry, (14) éd. GF- Flammarion, Paris, 1987, p. 38.

(15) إميل برهيه، تاريخ لفلسفة، تر. جورج طرايشي، 251/5.

التي تربط بين العلامة والشيء تتمثل في الحدس أم في التركيب؟ إن هذا السؤال يجيب عليه لا يمتز إن مبدأ عدم التناقض هو الذي يملئ تلك العلاقة. ولكن كانط يشترط في المعرفة الإنسانية⁽¹⁶⁾ التي هي نتاج الحساسية والفهم ألا تطاول المطلق.

إن عدم تعصب كانط للرياضيات وتطبيق مساهجها على الفلسفة إنما كان يستهدف الفلسفة الفولفية المحلصة لروح لا يمتز الرياضياتية؛ ولا يعني ذلك أنه قد أدار ظهره للمنطق الذي لم يشملها بتأملاته النسقية المتعالية، وتبقى المسألة اللغوية الإشكالية الغائبة من فلسفته. لكنه وقف في "نقد العقل الخالص" على حضور الأحكام لتركيبية القبلية في الرياضيات وفي العلوم الطبيعية الخالصة والميتافيزيقا. ولهذا خص مقولتي الزمان والمكان بوصفهما صورتين قسيتين للحدس الحسي باهتمام بالغ لكونهما يعددان شرطين مهمين يسمحان للرياضيات أن تصبح علما ممكنا؛ إذ إن التمثل الأصلي للمكان يندو لديه (حدسا قسبيا، وليس بمفهوم)⁽¹⁷⁾، كما جعل تطبيق مقولتي الزمان والمكان (ممكنا على الأشياء، كما تملك أحكام العلوم الطبيعية الخالصة قيمة معرفية؛ لأن الصور القبلية لمقولات الفهم هي شروط إمكان تلك الأحكام، ولكن الأحكام الميتافيزيقا تخلو من أية قيمة معرفية، لأن مثل العقل ليست هي الشروط الضرورية لإمكان لتجربة)⁽¹⁸⁾. لقد كان كـر من لا يمتز وهيوم يعتقدان بأن الرياضيات هي عملية ارتقاء علمي للمنطق.

تمثل الضرورة والكلية معياري المعرفة القبلية، ويلاحظ ألكسندر ماكوفلسكي تأثير محاورة ثباتيتوس لـ أفلاطون؛ حيث ظهرت فيها الضرورة والكلية بوصفها معياري المعرفة العقلية، وتضمنان يقينية الحقيقة المطلقة للأحكام. وعليه تأتي المعرفة القبلية التي تملك الكلية الدقيقة المتسقة والضرورة واليقين المطلقين. إن المعرفة التجريبية يمكن لها أن تتوافر على حد من الضرورة حسب جون ستيوارت ميل.

Lucien Goldmann, Introduction à la philosophie de Kant, éd. Gallimard, Paris, 1967, p. (16) 176.

Kant, Critique de la raison pure, trad. Jules Barni, éd. GF- Flammarion, Paris, 1987, p. 85. (17)

(18) 151 - ينظر ألكسندر ماكوفلسكي، تاريخ علم لمطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص.

إن الكلية والضرورة لا تسمحان - في نظر كانط - بأن تكونا مرتكزين للبرهان، ولا يمكن استخلاص القبلية من الكلية التي ينفي أوبرفغ أن تكون تحريية وإنما قبلية، وهذا تأويل فيه كثير من الالتباس⁽¹⁹⁾.

ينتقد ألكسندر ماكوفلسكي منطق كانط ويرى أن مقدماته تعسفية يقبلها بدون براهين. فهناك مفهومه المثالي النزعة للتجربة في مقابل مفهومه العقلي النزعة للضرورة المطلقة والكلية المطلقة. تحتوي المعرفة القبلية التي تمتلكها الذات على: 1 - صورتني الحدس الحسي (المكان والزمان)، 2 - مقولات الفهم، 3 - مثل العقل، 4 - الأحكام التحليلية، 5 - الأحكام التركيبية من قبيل "لكل شيء علة".

ما هو هدف "نقد العقل الخالص" من تسليط الضوء على الصور القبلية للمعرفة وعلى قيمتها، أو قصر إمكان المعرفة على مجال التجربة؟ كان هدف كانط دحض مذهب الشك عند هيوم والدفع عن كدية قضايا المعرفة العلمية الأساسية وضرورتها، وبذلك أصبحت الطبعة الأولى من "نقد العقل الخالص" دراسة الصور القبلية للمعرفة. أما في الطبعة الثانية وبعد ظهور كتاب "نقد العقل العملي" ركز على قصر المعرفة الإنسانية على مجال التجربة الممكنة وانتقص من حقوق العقل النظري. ومهما يكن فإنه ينبغي النظر أيضا إلى أن "نقد العقل الخالص" هو كذلك (نقد للغة سواء أكانت عادية أم عالمة)⁽²⁰⁾؛ وذلك عندما نجعلها في مواجهة بعضها بعض.

إن الهدف الأساس من مشروع كانط الفلسفي هو التوفيق بين المذهب العقلي والتجريبي. فالحكم التحليلي والتركيبى قد يكون الحكم الواحد بعينه على الصعيد السيכולوجي تحليليا بالنسبة لفرد وتركيبيا بالنسبة لفرد آخر حسب مستوى معارف كل منهما. كما أن حكما معينا - حتى بالنسبة إلى الفرد الواحد - تركيبيا ثم يصير تحليليا بعد إثراء معرفته بالموضوع. غير أن هذا النقد لدعوى كانط غير سليم لأنه لا يميز هذه الأحكام على أساس تكوينها السيכולوجي ولكن على طبيعتها المعرفية. (فالأحكام التحليلية لا تستند إلا على تدليل صوري منطقي وهو

(19) المرجع السابق، ص. 403.

Jean-Marie Vaysse, Le vocabulaire de KANT, éd. Ellipses, Paris, 1998, p. 3.

(20)

ليس إلا شكلا جديدا للتعبير عن فكرة معينة يكشف عن مضمونها، في حين إن الأحكام التركيبية تأتي بشيء جديد، ولا تكفي بتقديم شكل جديد للفكرة المعينة الواحدة). إن ألكسندر ماكوفلسكي يستقد تقسيم كانط للأحكام إلى قبلية وبعدية؛ لأن كل الأحكام - في نظره - دون استثناء تقوم على أساس تجريبي في نهاية المطاف. فهي انعكاس للواقع بما في ذلك القضايا الرياضية.

لعل أهم مسألة وأعقدها عالجهما "نقد العقل الخالص" هي الاستنباط المتعالي للمقولات. وقد عاد إلى مناقشتها في الطبعة الثانية. إذ يرى (أن هناك كثيرا من الأحكام التركيبية القبلية، وهي ذات أهمية مطلقة بالنسبة إلى ظواهر الطبيعة بآجمعها، وهذه الأحكام في جملتها تشكل العلوم الطبيعية المحضة. والمقدمة الضرورية لهذه العلوم هي وجود مقولات تعتبر صورا للفكر، تمتلك قيمة معرفية بالنسبة إلى كل الظواهر الطبيعية وكل مجال الحدس الحسي)⁽²¹⁾. إن أهم ما ورد في منطق كانط⁽²²⁾ تمييزه بين الأحكام التحليلية والأحكام التركيبية.

كان كانط يقصد بالفلسفة الخالصة⁽²³⁾ كل ما هو في ذاته وغير مرتبط بالتجربة؛ ولهذا كانت المقولات الكانطية - التي وصفها شوبنهاور بالاختلاقات الزائفة - مجرد متصورات قبلية للفهم متأتية من سلطان الملكة المعرفية التي يتوافر عليها الإنسان. وهل هذه الملكات تكتسي طبعاً فطرياً على نحو ما نلفيه لدى أرسطو وديكارت؟ إنه يجاري في هذا المقام جون لوك إذ لا يسلم بفطرية المقولات. إن تجريد كانط لمقولات الفهم من تبعات التجربة يعود إلى مفهوم العبة التي انتصر لها هيوم⁽²⁴⁾ دون أن يسقط في نزعته الشكية؛ وليس أدل على هذا الاستقلال عن هيوم هو إرجاعها إلى مفهوم القبلية.

لقد تعامل مع نشاط وحدة التنوع على أنها سيرورة يضطلع بها الفهم، ولا

(21) ألكسندر ماكوفلسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء لدين وإبراهيم فتحي، ص. 405.

(22) روبر بلانشي، المطق وتاريخه من أرسطو إلى راسل، تر. خليل أحمد خليل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر والمؤسسة الجامعية للدراسات والبحوث والتوزيع، لبنان، 1980، ص. 335.

(23) ينظر إيمانويل كانط، أمس ميتافيزيقا الأخلاق، مع تعليقات فيكتور دلبوس، تر. محمد فتحي الشنطي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1970، ص. 34.

(24) ينظر إيمانويل كانط، نقد العقل لمحض، بر. موسى وهبة، مركز الإنماء القومي، لبنان، د. ت.، ص. 52.

يتلقاها تلقيا سلبيا، وليست معطاة سلف ضمن موضوعات الحدس الحسي. ولكي يقاوم سحر هيوم عليه فإنه يواجهه بتصورات لوك التي تنظر إلى التجربة على أنها انطباعات منفصلة وغير متماسكة، ولا تحقق وحدتها في صور مركبة وتامة إلا بوساطة الذهن؛ بيد أن كانط يتعامل مع المعرفة على أنها (توحيد المتغير في كل واحد، ويستلزم التحليل دائما تركيبا سابقا، فالفهم لا يحلل إلا ما قام هو بتركيبه من قبل. ويستطيع الفهم أن ينجز التركيب بوسائل مختلفة، فهناك من لوسائل قدر مساو لمقولات الفهم)⁽²⁵⁾. ومن هنا ندرك لماذا نسب كانط الوعي التجريبي إلى الفردي؛ لأنه قاسم مشترك بين أفراد البشر. ولا غرو أن تكون معرفة⁽²⁶⁾ "نقد العقل الخالص" مرثكزا صامحا للتداول العملي.

يراهن المنطق المتعالي على الأنماط القليلة في عملية الاستنباط؛ وذلك بغية معرفة الأشياء التي لا تحصل إلا إذا متلكنها في رصيدنا المعرفي صور الحدس ومقولات الفهم⁽²⁷⁾. إن الاستنباط لمتعالي يسعى إلى إدراك القواعد العامة التي تضبط معرفة مجالات الطبيعيات والإنسانيات بالاستناد إلى خامات العقل وإمكاناته في الوصول إلى تحليل الوقائع والظواهر القابلة للمعرفة بما في ذلك قدرته على إضفاء الطابع الموضوعي على أشكال المعرفة الذاتية. وهذا المنحى على درجة كبيرة من الصعوبة حينما يتعلق الأمر بالبحث عن "موضعة المعنى" داخل مثل هذه الأشكال المعرفة الممكنة؛ ولا سيما أن الكانطية لا تركز على المصادر المادية في بناء القيمة لمعرفة الموضوعية لمقولات المهم التي يمكن أن تخضع لشروط البرهان حسب كانط. ولكن أنى للفهم أن يشيد متصوراته خارج حدود التجربة؟ وأنى له أن تحقق مجالا مستقلا وواسعا بعيدا عن المعطيات لتحريبيه؟

إن أنواع التركيب التي تتمخض عن الفهم بوساطة المقولات التي هي مبادئ الفهم الخالص يحصرها كانط فيما يأتي: (1) تركيب الحدس (بديهيات الحدس وهي تقابل مقولة الكم)، (2) تركيب الاستنساخ reproduction [الصور المتقابلة الأولية أو توقعات الإدراك الحسي (وهي تقابل مقولة الكيف)]، (3) تركيب

(25) ألكسندر ماكرويلسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 405.

(26) Kant, Critique de la raison pratique, trad. François Picavet, éd. p.u.f., Paris, 1966, p. 14.

(27) Kant, Critique de la raison pure, trad. Jules Barni, éd. GF- Flammarion, Paris, 1987, p. 109.

التعرف (توعد التجربة وهي تقابل مقولة الإضافة)⁽²⁸⁾. إن الوحدة المتعالية للوعي كفيّة بالجمع بين الأشكال من التركيب. وحتى يصبح المنطق المتعالي فعالاً ينبغي أن يتحول إلى طريقة منهجية في البحث كما سيتحقق ذلك في سيميانيات بورس. إن تحقيق القيمة الموضوعية لهذه الوحدة، للمتعالية التي تبدو - في نظر ألكسندر ماكوفلسكي - ذاتية علماً بأن كانط يفهم الموضوعية على أنها كل ما (هو كلي وضروري ومنطقي في كل وعي... وهذه القضية الكانطية تجمعها عناصر مشتركة بمذهب ابن رشد في العقل الكلي المشترك بين البشر جميعاً، وهو مذهب يرى أن البشر ليسوا أهلاً لمعرفة إلا نظراً لأنهم مشاركون في هذا العقل الكلي)⁽²⁹⁾. كيف يتعامل الإدراك الواعي المتعالي مع كثرة الانطباعات الحسية المتباينة من التمثيلات؟ إن كانط ينفي أن يكون العقل قادراً على إدراك ما يباظر هذه التمثيلات، فهي ليست موضوعاً للمعرفة. وعندما تحقق الوحدة كليتها، ولا تتم معرفة الأشياء إلا إذا توافرت وحدة صورية للوعي. (فحين لا نمتلك "الموضوع"، وننتقله إلا عندما نربط بين كثرة الحدس (الحسي) في وحدة تركيبية تتخذ صورة المفهوم. إن الوحدة التركيبية للموضوع عند كانط هي الوحدة الصورية المحضة للوعي، وهي التي تتولد بواسطة النشاط (الفاعلية) التركيبية للوعي)⁽³⁰⁾. لا يتوانى كانط على إضفاء الدلالة الموضوعية على مقولات الفهم في تحليله المتعالي؛ وذلك بعد شرطاً للتسليم بموضوعات التجربة الممكنة.

على أي قاعدة يستند الإدراك المتعالي الذي يتباين مع الوحدة السيكلوجية للوعي؟ هناك مقولة شهيرة لكانط تجيب على هذا التساؤل، وفحواها "إن المفاهيم بدون حدوس حسية، كما أن لحدوس الحسية بدون مفاهيم عمياء"⁽³¹⁾. إن الوحدة المتعالية التركيبية للإدراك الواعي ضرورية "لوعي في عمومته". (وكل وعي تجريبي يمتلك هذا "الوعي في عمومته" من حيث إنه صورته الضرورية)⁽³²⁾. ولهذا فهي تنصف بالموضوعية لكونها تمثل قاعدة للتركيب الموضوعي الذي تنبثق

(28) ألكسندر ماكوفلسكي، تاريخ علم المطلق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحى، ص. 406.

(29) المرجع السابق، ص. 408.

(30) م. ن.، ص. 406.

(31) ينظر إبراهيم زكريا، "كانط" أو الفلسفة النقدية، مكتبة مصر، 1963، ص. 84.

(32) ألكسندر ماكوفلسكي، تاريخ علم المطلق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحى، ص. 406.

منه السيميوزيس من حيث هي موضوعات دالة، وحينما تكون هذه العلامات المتناسلة تابعة من التجربة فإن قوانينها تستمد من هذه الوحدة المتعالية للإدراك الواعي.

إن مقولات الفهم قميئة بتوكيد وجود الطبيعة وقوانينها، وإلا أصبح الإدراك أمام فوضى الإحساسات العارمة التي لا قرار لها. ولهذا تعد مقولات الفهم قوة داعمة للنسقية النقدية المتعالية التي مكنت الكانطية من التغلب على الكم الكبير من الإحساسات والانطباعات وصياغة مجموعة المبادئ التي توجه استعمال ملكات الذات في المعرفة. وكانط واع بالفروق بين القاسون الذي ابتدعه أبيقور والأرغانون الذي صطنعه أرسطو (وإذ ينصب اهتمام المنطق العام على قواعد الفكر عامة، بصرف النظر عن كل مضمون، لا يمكن أن يكون إلا قانون، فهو ينم عن ادعاءات فاسدة حين ينبغي أن يتقوم كأرجانون، ويحكم ويقرر في الموضوعات)⁽³³⁾. ولعل عصب الإشكالية الفلسفية التي تتمثل في علاقة الذات العارفة بموضوع المعرفة، نلني كانط يتعامل معها بمهارة فكرية.

فعندما ينسب إدراك النسق الموجود في الطبيعة إلى الذات العارفة فهو يخالف السائد، ويقر بأن (كل مفاهيمنا عن العالم الخارجي وأحكامنا عليه تتشكل بدءاً من مقولات الفهم: وهي مفاهيم قبلية محض)⁽³⁴⁾. غير أنها لا يمكنها أن تطبق على الشيء في ذاته. وفي المقابل هناك من الفلاسفة مثل شوبنهاور من يضيف على مفهوم القبلية صبغة نفسانية استدفع أنصارها إلى ضم المنطق إلى علم النفس؛ ولا سيما بعدما أن طبق علم النفس التجريبي التفسير الكمي⁽³⁵⁾. كما أنهم يعلنون الاختلاف بين مفهومي القبلية والبعدية على أساس الطبيعة السيكلولوجية لملكة الإنسان المعرفية، وعلى أساس التباين النفسي بين التمثلات نفسها.

لا تختلف قوانين الفهم عن قوانين الطبيعة لدى كانط، وحينما تدرك الذات هذه القوانين فإنما تدرك في الواقع صنيعها في الطبيعة. وعليه فإن الذهن هو الذي

(33) ينظر تعليقات بيكتور دلبوس على هامش كتاب كانط 'أسس ميتافيزيقا الأخلاق'، تر. محمد فتحي الشيطي، ص. 33.

(34) ألكسندر ماكوفسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 408.

(35) عد الرحمن بدوي، المنطق الصوري والرباعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط. 3، 1968، ص. 250.

يعزى إليه تشييد الطبيعة والتجربة. (فليس فكرنا هو الذي يطابق الطبيعة عندما يعكسها بل على العكس، فالطبيعة (في جانبها الصوري) هي التي تطابق قوانين فكرنا وصوره)⁽³⁶⁾.

لقد قسم كانط مقولات الفهم (إلى أربع طوائف (الكم والكيف والإضافة والجهة)، يواصل تقسيم كل منها إلى طوائف فرعية، وعلى هذا النحو حصل على جدول يضم اثنتي عشرة مقولة:

أولاً: مقولات الكم: 1 - اوحدة 2 - الكثرة 3 - الجملة

ثانياً: مقولات الكيف: 1 - إيجاب (وجود) واقعية 2 - نفي 3 - حصر

ثالثاً: مقولات الإضافة: 1 - الجوهر والعرض 2 - العلة والمعلول 3 - التفاعل (الفعل المتبادل)

رابعاً: مقولات الجهة: 1 - إمكان - استحالة، 2 - وجود - لا وجود، 3 - ضرورة الجواز، مع ضدها الامتناع (اللاوجود) والمصادفة

... إن الحكم هو وظيفة نوعية للفهم. فهناك من مقولات الفهم قدر ما هنالك من صور الحكم)⁽³⁷⁾. ولعل هذه التصنيفات ستوحي لبورس بتصنيف العلامات على نحو غير مسبوق في تاريخ التفكير السيميائي. إن كانط لا يعتقد بقدرة تطبيق مقولات الفهم على الأشياء في ذاتها. وإن كان شوينهاور⁽³⁸⁾ لا يرى في مقولات كانط إلا اختلاقات مزيفة لا يستشي منها سوى مقولة العلية.

بدأت العلاقة بين الرياضيات والمنطق تتوطد مع لايبنتز إلى درجة أن أصبحت الرياضيات لدى المثاليين والماديين في القرنين الثامن عشر ولتاسع عشر أنموذجاً لكل العلوم حتى هيمن على العقلانية المعاصرة (وهم بناء فلسفة مطابقة للعلم)⁽³⁹⁾. إلى درجة أن كانط رسخ هذا الوهم باشتراطه لحقيقة العلم أن تكون حاملة لمضمون رياضي؛ ومن هنا لا تستطيع لسيكولوجيا أن تنزع صفة العلم

(36) ألكسندر ماكوفلسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فحجي، ص. 409
Kant, Critique de la raison pure, trad. Jules Barni, éd. GF- Flammarion, Paris, 1987, pp. 136-137

(38) ألكسندر ماكوفلسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فحجي، ص. 410

(39) سالم يفوت، العقلانية المعاصرة بين النقد والحقيقة، ص. 43.

لكون أن ظواهر الوعي لا يمكن أن تستجيب للأشكال الرياضية في عملية التطبيق. وفي المقابل يرجع أشتياغ النزعة المنطقية مثل هيجل القبلية إلى أسسها المنطقية وليس إلى تصورها النفساني.

إن الموضوعي - في تصور كانط - ما تضمن في الوعي الكلي. وأن التجربة تتألف من مادة الإحساس التي يصوغها الفهم فإن أحكامها موضوعية وكلية وضرورية. وهناك فرق بين مادة التجربة وشكلها. فإذا كانت أحكام الإدراك الحسي تعرى إلى الذات العارفة، وتوصف بالعرضية فإن ضم كانط لمبدأ العلية الكلية إلى عالم التجربة بوصفها شرطا من شروط إمكاناتها إنما كان يهدف إلى تقويض النزعة الشكية لدى هيوم. ولا بد أن ندرك بأن كانط لا يقرن التجربة بطابعها المادي وبالفلسفة الخالصة.

يعتقد كانط بأن عوالم التجربة الخارجية هي من بناء الذهن، ولعل النظرية الفولفية كانت ماثلة أمامه، وفي المقابل فإن العوالم السيكلوجية الداخلية لا تستجيب طوعا إلى مقولات الفهم، وتصبح تاليا متأبية على المعرفة. يعد كانط المقولات محض تصورات قبلية للفهم لا تصدر عن التجربة، بل عن الملكة المعرفية للإنسان. وإنه يعد (من أهم المؤثرين في بورس الذي كان يخصص ساعات عديدة مدة سنوات لمدارسة نقد العقل الخالص حتى كاد يحفظه)⁽⁴⁰⁾. إن الكانطية فلسفة ظاهرانية⁽⁴¹⁾ تقول بوجود الشيء في ذاته حسب شوبنهاور، وتمتزج بالنزعة القبلية حسب فريس.

شككت الكانطية في قدرة معرفتنا على الإحاطة بالواقع الموضوعي. فهذه المعرفة لا تستطيع أن تفلت من قبضة الوعي، ومن هنا تكتسي المعرفة روحا بنوية وطبيعة محايدة وتتضمن إقرارا صريحا بوجود تخوم للمعرفة البشرية. ولكي نفهم مقاصد النص الفلسفي الكانطي لا بد من إقامة حوارية بين النصوص الفلسفية التي سقت كانط والتي تلتها ضمن ما يعرف بالتأص⁽⁴²⁾ الفلسفي الذي لا يجعلنا نفهم

(40) محمد مفتاح، مفهوم الحقيقة عند شارل ساندروس بورس الحقيقة لمجتمعية، مجلة فكر ونقد، س. 1، ع. 2، أكتوبر 1997، ص. 51.

(41) ينظر ألكسندر ماكرفلسكي، تاريخ علم المنطق، تر. بديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 414.

(42) Michel Bernard, L'intertextualité philosophique, in Encyclopédie philosophique universelle, Le discours philosophique v. IV, éd. puf, Paris, 1998, p. 1822

النص الكانطي بمعزل عن الخطاب الفلسفي لهيوم؛ ولا سيما مفهوم العلية علم بأن هذا التناص لا يلتزم بالحرفية المفهومية التي نلفيها لدى حوارية باختين وتناص كرستيفا وبارت؛ وإنما يستلهم فكرته العامة التي تنافي فكرة الإبداع المطلق للأفكار والمفاهيم، وتتعارض مع وجود أبوة نصية مطلقة، وما نعينه هنا - على وجه التحديد - بالتناص الفلسفي ما اتصل بتدخّل الأنساق السيمائية ذات الطبيعة الفكرية. هناك شبكة نصية حركت النص الكانطي في الاتجاهين من أجل الوصول إلى إنجاز عمل نظري يضطلع بنقد العقل.

لقد توقف كانط عند محطة مهمة من الأسئلة الكبرى التي بلورها النص الفلسفي لجون لوك؛ حيث رأى أنه لا ميسل إلى طلب المعرفة الممكنة إلا من جهة ما تضعه بين أيدينا التجربة الحسية. ذلك هو السؤال الفلسفي الذي تضمنه "مقال في الفهم الإنساني"، وأجبر النص الكانطي على أن يدور على النص اللوكي لينتهي إلى أن المعرفة القبلية كالسراب الذي يحسبه الفيلسوف الظمآن مادة معرفية موضوعية يمكن القبض عليها؛ ولكنه إذا أعمل آلة النقد فيها اقتنع بأنها ضرب من المحال الذي يتسرب كالماء من خلل قبضة اليد. ولكن إذا اقتنعنا بأن هرم النسق الفلسفي كانت قاعدته الخلاصة الفلسفية لجون لوك نكون قللنا من شأن منزلة النسقية الكانطية التي كانت تبحر في الاتجاه المضاد، وتطارد فلسفة حاملة بالقبلية المتعالية التي تبحث عن جملة الصور والشروط الجوهرية التي هي ضرورة من ضرورات التجربة القابلة للتجسيد. إن القبلية المتعالية هي حصص متبن ينضاف إلى جوهر فلسفة جون لوك التي كانت بمثابة الإرهاصات الحقيقية لميلاد السيمائيات الفلسفية التجريبية على الرغم من أن كانط ما لبث أن تجاوز هذه المحطة لتحقيق قرادة نسقته الفلسفية.

على الرغم من أن كانط يقر بأن المنطق اكتمل على يد أرسطو ولم يتقدم خطوة إلى الأمام على من أتى بعده إلا أنه ينسب إلى لايبنتز وولف دفع المنطق العام إلى التقدم. ولهذا فهو يجمع مبادئ العقل من الدعاوى الأرسطية واللايبنتزية. يحدد كانط النسقية المنطقية في الصور للتفكير في مبدأ عدم التناقض الذي يتطابق مع مبدأ الهوية، وينزله المنزلة الأولى لكونه يمثل حقيقة الخطاب بوصفه معرفة تتوافر على خصيصة الاتساق الذاتي. وهذه المتصورات ذات طبيعة بنوية، ويأتي في الرتبة الثانية مبدأ السبب الكافي الذي ابتكره لايبنتز؛ ثم يأتي

أخيراً مبدأ الثالث المرفوع. (وتذهب نظرية كانط إلى أن مبدأ التناقض والهوية مهيمنان على القضايا الإشكالية، أما مبدأ السبب الكافي فهو مبدأ الأحكام) (تعبير عن إثبات أو نفي دون نظر إلى ضرورة أو إمكان)، كما أن قانون الثالث المرفوع هو مبدأ الأحكام الضرورية⁽⁴³⁾. إن قوانين العقل ومبادئه تعرضت إلى قراءات مختلفة عبر تاريخ الفلسفة والتفكير النسقي.

ن. كانط مثله مثل بيكون تبرم من الإفراط في التحمس لنظرية القياس الأرسطية التي بالعت فسفة العصور الوسطى في التمكن فيها إلى درجة أنها أصبحت ضرباً من التأمل المترف والعقيم. وعليه فإنه يجردها على نحو ما فعل بيكون من أي امتياز في تقدم العلم وتطوره ولبحث عن الحقيقة التي كانت قبلة العلم والفلسفة على سواء. ولعل نظرية القياس التي أفسدها المنطق السكولائي دفعت الفلسفة الحديثة إلى نبذها وعدم التحمس لاستعمالها. (فالمنطق عنده يجب أن ينهض على المبادئ الآتية: الحكم هو الصورة الأولى الأساسية للفكر، ولا يصلح الاستدلال إلا في بناء الأحكام، ولا تشكل المفاهيم الدقيقة الكاملة إلا على أساس أحكام واستدلالات سابقة، وهذا هو السبب في أن نظرية المفهوم يجب أن تكون اللحظة النهائية في نسق المنطق)⁽⁴⁴⁾. لقد كان يرى كانط بأن صورة الفكر لا تتعلق بمحتواه، ولا تتوقف عليه، بسبب أن المنطق هو عمية تجريدي للمعرفة، ولا ترتبط صور الفكر بالواقع الموضوعي، وإنما تتحدد علاقة قوانين صور الفكر بمقتضيات الفهم ذاته؛ وهذا يفضي إلى أن يصبح المنطق ذا طبيعة معيارية. وقد انتقد هذه التصورات الكانطية انتقاداً عنيفاً لكونها لا تتماشى مع أصالة نسقه الفلسفي، وقدرته على التخلص من النزعة التوفيقية التي تترواح بين العقلانية والتجريبية.

تعاملت النسقية الكانطية مع المنطق على أنه (رحابة وقوة استقرائية صورية أرسطوطاليسية [Aristotélicienne] متنامية وكاملة، ولهذا يقترح منطقاً متعالياً، موجهاً إلى الاعتبار إلى الأشكال المكونة للتمثيلية والمعرفة)⁽⁴⁵⁾. وعلى الرغم من

(43) ألكسندر ماكوفسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 419.

(44) المرجع السابق، ص. 420.

(45) فرانسوار أرمينكو، المقاربة التداوية، تر. سعيد علوش، مركز لإنماء القومي، بيروت، 1986،

ذلك ظهرت نقود كثيرة للعقل في ألمانيا بعد كانط؛ حيث انتقد أشياخ لوك كانط من الفلاسفة⁽⁴⁶⁾ الذي يوصفون بالشعبيين من أمثال جوناتان جوهان هونريش فيلدر J. G. H. Feder؛ حيث قالوا بإمكانية معرفة القبلي والفصل بين المعني والعقل الفعال، أي بين الظاهرة والنومان (phénomène et noumène).

منطق المعنى الخالص

حينما تحرر المنطق على يد هوسرل من النزعات الصورية والميتافيزيقية والنفسانية التي كانت تصطبغ الطرائق المنهجية للعلوم الطبيعية ذات المنحى الاستقرائي بدأ الطموح إلى بناء علم دقيق للفلسفة تحت تأثير التفكير "الرياضياتي" يتجسد انطلاقاً من نقد نفسانية برتانو وبلورة تصور لفينومينولوجية أخذت على عاتقها تجاوز النزعة النفسية والنسبية التاريخية والفكر البراغماتي وثنائية الذات / الموضوع ضمن إستراتيجية معرفية بالغة التعقيد من حيث إنها أتت في سياق تاريخي كان لفكر الغربي يعيش على وقع أزمة الذاتية واللاعقلانية، ويعاني أزمة روحية⁽⁴⁷⁾ نظراً لفشله في جعل المنطق نظرية للعلم.

تتعامل الفينومينولوجية مع الظواهر كما يتجه إليها الوعي، ويضفي عليها قصداً معيناً، فالوعي هو وعي بشيء ما. إن الواقع والعالم كليهما يعينان بعض وحدات المعنى التي لها مشروعية الوجود؛ هذا إذا كانت وحدات المعنى ترتبط ببعض التسلسل داخل الوعي المطلق والخالص الذي يمنح بموجب جوهره هذا المعنى أو ذاك، وتضفي المشروعية على المعنى⁽⁴⁸⁾، وبعد أن صار العلم جملة من الإجراءات الاستنباطية ذات الخصيصة النسقية بات من الضروري أن تستحيب إلى هذا الضرب من المنطق الخالص الذي يضع المعنى في أولوياته الإستراتيجية. إن المعنى تعد ركيزة أساسية في الفلسفة الفينومينولوجية. (فهو ماهية الشيء اللانهائية،

(46) Voir Lia Fongari, La sémiotique empiriste face au Kantisme, p. 75.

(47) ينظر يوسف سلامة، المنطق عند أدوموند هوسرل، سورية، دار حوران، ط. 1، 2002، ص. 337.

(48) Edmund Husserl, Idées directrices pour une phénoménologie, trad. Paul Ricœur, Paris, éd. (48) Gallimard, 1991, p. 183.

وهو ما يستهدفه الوعي في علوه⁽⁴⁹⁾. إن مقارنة المعنى من منظور التحليل الفينومينولوجي يخضع إلى التمييز الذي حاول هوسرل أن يبرزه بين المنطقيين الصوري والمتعالي وبين المقولتين الخالصتين للمعنى وللموضوع. إن قيمة مقولات المعنى وقف على العناصر الأولية التي هي قوام كل النظريات على الإطلاق.

تتعلق مقولات المعنى بحالات الأشياء مثل عددها وكثرتها ووحدتها وعلاقتها وموضوعها وجنسها وهويتها وجزئها وكلها وما إلى ذلك. وهي في النهاية تمثل عالم المفاهيم التي ترتبط بالمقولات الخالصة للموضوع بوصفها نظريات تنضاف إليها مقولات المعنى. ومن هنا يتعين علينا فهم نظريات المعنى على أنها جملة لترابطات الاستدلالية التي تسعى إلى تحديد القضايا المعلومة. ولكي ننتج معرفة موضوعية ينبغي تشييد منطق خالص للمعنى لا تقف مفاهيمه عند حدود المواصفات الخصوصية لمحتوى من محتويات المعرفة، بل تباشر عمليات البحث الدؤوب عن ماهية المفاهيم حتى يتسنى لنا ترسيخ معنى يتسم بالوضوح، ويتجنب ضبابية الألفاظ عن طريق التمثيلات الحدسية للماهيات بعد أن يتم إيقاظ التصورات المنطقية للمفاهيم العلمية من انزلاقها إلى غيابات السيكلوجية التي دأب مل على صنيعها. وهكذا فإن هوسرل وضع المعرفة على بساط البحث (لا لصياغة "نظرية" للمعرفة، بل لإقامة الماهية على أسس ثابتة)⁽⁵⁰⁾. إن هذه النظرية وضعت حدا للفصل⁽⁵¹⁾ بين الشيء والوعي؛ إذ لا يوجد الشيء بمعزل عن الوعي.

كيف يستطيع المنطق الخالص معاينة حقيقة المعنى أو بطلانها؟ إنه يتوسل إلى ذلك بواسطة البنى الصورية المقولاتية للمعنى؛ ولكن المعاني ليست بجرائر معزولة، وبما أنها كذلك فمن اللازم مدارسها وفق العلاقات التي تترايط معها دون

(49) سامي أدهم، إستمولوجيا المعنى والوجود، نقد التطورية، مركز الإنماء القومي، بيروت، ص. 19.

(50) جان فرانسوا ليونار، الظاهرانية، تر. خليل الحر، دار المنشورات العربية، سلسلة ماذا أعرف؟، بيروت، ص. 16.

(51) Voir Remo Bodel, La philosophie au XX siècle, Paris éd. Flammarion, 1999, p. 146.

أن تكون رهن وجود الأشياء والموضوعات وحالاتها. علما بأن معنى الموضوع من منظور الفينومينولوجية لا يصبح ذا طبيعة واقعية ما لم يكن هناك علم للمنطق يتجاوز دائرة حدود مناهج العلوم الطبيعية التي لا تفضي إلى قوانين تتسم بالدقة والصرامة. (إن هوسرل يلتزم معنى الصرامة في ماهية العلم ذاته، أي باعتباره نسقا من المعرفة محكم البنيان، ترتبط خطواته ارتباطا تصاعديا، بحيث تتراكم كل نتيجة تم التحقق منها وفق نتيجة أخرى قد تحققت من قبل)⁽⁵²⁾. ولهذا دفعته هذه الصرامة إلى رد النظريات التي لها صلة قوية بالمنطق الخالص إلى جملة محدودة من القوانين المبدئية التي تستمد كيائها من المفاهيم المقولاتية. إن موضوعات المنطق الخالص التي يشير إليها ما هي إلا المفاهيم والأحكام التي لا علاقة لها بالنفسانية.

إن فهم المنطق الخالص لهوسرل يسمح لنا بفهم أفضل ومريح لسيميائيات كارناب، وفي هذا السياق نلقي جورج كالينوفسكي⁽⁵³⁾ Georges Kalinowski في أثناء مدرسته لعلاقة السيميائيات بالفلسفة يعود إلى مرتكزات فلسفية قديمة وحديثة، أما القديمة فيحصرها في أرسطو والرواقيين وأما الحديثة فيمثل لها بهوسرل وكارناب؛ ذلك أن هوسرل استطاع أن يضطلع بما لم يضطلع به أرسطو حينما أعينه الحيلة في التمييز⁽⁵⁴⁾ بين المفاهيم والأحكام السيكلولوجية من جهة وبين الأحكام المنطقية من جهة أخرى. وإن وجه الخلاف بين هوسرل وفريج يتحدد في إطار أن هذا الأخير (لم يضع وجود العالم بين قوسين، ولم يشترط اختبار هذا الوجود انطلاقا من محتوى الوعي المتعالي)⁽⁵⁵⁾. إن المنطقات السيميائية الهوسرلية انتهت في الأخير نهاية أفلاطونية حينما سلمت بأن قوانين المنطق هي قبلية مثالية، لا يمكن أن تكتفي بأن تكون فنا معياريا؛ وإنما تسعى إلى أن تحقق حرمة العلم المستقل عن النزعة النفسية، وتعرض المنطق عرضا

(52) سعيد توفيق، الخبرة الجمالية، دراسة في فلسفة الحمان الظاهرية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط. 1، 1992، ص. 27. وما اقتبسناه هنا هو نص هوسرل الذي يطرحه في مؤلفه حول المطلقين الصوري ولمتعالي.

Voir Georges Kalinowski, Sém. otique et philosophie, p. 21.

Ibid, p. 24.

Ibid, p. 40

(53)

(54)

(55)

نسقياً⁽⁵⁶⁾، ومحاولة إضفاء المشروعية عليه من وجهة نظرية المعرفة.

تمثل النزعة المثالية نقطة التلاقي بين هوسرل وفريج أكثر مما تجعل تصوراتهما الفلسفية والمنطقية متباينة؛ على الرغم من أن مشروع الهوسرلية كان قد رسم إستراتيجيته المنمثلة في بناء منطق خالص ومتطهر من النفسانية ليكون نظرية للعلم. يلتقي تصور هوسرل للمنطق مع تصورات بورس على أنه علم معياري وقاعدة لنظرية المنهج فضلاً عن أنه علم نظري بالدرجة الأولى؛ وإن كان بورس يركز على الفكرة التي فحواها: إن المنطق علم للواقع. ومن هنا يتبين لنا وجه الخلاف بين فينومينولوجية هوسرل وفينومينولوجيا بورس. تبدو فينومينولوجية هوسرل غامضة بعض الغموض بخصوص تصورها للحقيقة التي تتوافر على نسقية محايدة ومستقلة عن نسق الأشياء. إنها نتاج لعلاقات منطقية خالصة مكتفية بترباطاتها الجوانية؛ بينما نلقي نسق الأشياء يستمد كينونتها الموضوعية من هذه النسقية المحايدة للحقيقة.

إن هذه المتصورات النسقية المحايدة للحقيقة لا تكاد تنفصل عن مبدأ القصدية. (وهذه القصدية هي عملية نزوع وخروج من الذات المطلقة، وهي من مكونات البنية الأساسية للوعي. فالوعي هو نزوع وهو تجاوز ما هو فيه، فالوعي الموجود في ذاته بطريقة مطلقة، لا يكون شيئاً في الفينومينولوجيا، فهو قصد ونزوع نحو موضوع عال أو نحو معنى الموضوع)⁽⁵⁷⁾. كما لا يمكن أن نفعل أن فينومينولوجية هوسرل قد فتحت آفاقاً جديدة لمنطق المعنى الذي لا يطلب فقط من منظور الحدوس الحسية، وإسما يجب البحث عنه ضمن حدوس للعلاقات ومنطقاتها البنوية.

لقد فتح هوسرل في البحوث المنطقية أفقا واسعا لتأمل مسألة اللغة ودراستها. فكان هذا التأمل ذا منطلقات سيميائية ودلالية ضمت إليها مباحث الأسماء والملفوظات القضائية والاستدلالات والخطابات العلمية والنظريات بوصفها لغات واصفة؛ لأن اللغة تعد من الأدوات الرئيسة لمساعدة في مجال

Edmund Husserl, *Recherches logiques*, t. II, trad. Hubert Ebe, Lothar Kelkel & René Schérer, Paris, éd. Puf, 1962, p. 6

(57) سامي أدهم، إستمولوجيا المعنى والوجود، نقد التطورية، ص. 22.

التفكير، وفي إطار المتصورات المبهجة التي تقتضي استعمال الدلالة استعمالاً سليماً عن توظيف الكلمات المختلفة توظيفاً لا يبعث أي غموض في عمليتي الفهم والتفسير، ولا يعيق الإجراء العلمي الذي يتوخى بناء المنطق الخالص؛ وهذا يقتضي أن تمتحن الفلسفة اللغة امتحاناً يسر السيل أمام البحث المسطقي.

إن نظرية التعبير لدى هوسرل تنتظم مع فكرة العلامة التي تنقل بعض المعيش الطبيعي سواء أتمثل في الإدراك أم في الرغبة أم في الإحساس⁽⁵⁸⁾. لقد ميز هوسرل بين المعنى وما هو معيش. وهو تمييز كانت له نتائج محدودة على لغة المنطق المعاصر التي تحررت من هيمنة النزعة النفسية ومن الأدبيات اللسانية. هل يمكن أن تكتسي المفاهيم دلالتها في ظل وجود مفاهيم ذات نزعة نفسانية ومفاهيم أخرى ذات نزعة منطقية؟ إن العلامة اللسانية بوصفها قرينة للمعيش النفسي تضطلع بوظيفتين⁽⁵⁹⁾: إنها تدل على المعاني من جهة، وتعين من جهة أخرى الموضوعات (الأشياء).

إن هوسرل مثله كمثل كانط يعتقد بأنّ لدعوة إلى فكرة التداخل بين العلوم أضرارها أكبر من منافعها؛ وهذا الضرر يلحق بالفلسفة أكثر مما يصيب العلوم التي تحتكم إلى التجربة؛ ذلك لأن العلوم التي توصف بالتجريبية تستمد مرجعيتها من خارج نسقها؛ حيث تضي عليها بعض المشروعات بخصوص الموضوعية؛ إذ لا تجد أي إكراه تمليه عليها الذات بخلاف ما هو عليه الحال بالنسبة للخطاب الفلسفي الذي لا يجد فكاً من إكراهات الذات التي تلقي بظلالها عليه. ومن هنا ينظر أشيع الفصل بين العلوم إلى أن ذلك التداخل هو مطية للمزائق؛ ولذلك كله سيبين لنا أن مطلب تحكيم علم الحساب كفيل بتخليص المنطق من أرزاء النزعة الصورية كما سيكون ديدن هوسرل وفريج بخصوص أصول الحساب.

Voir Georges Kalinowski, *Sémiotique et philosophie*, p. 49.

Ibid, p. 52.

(58)

(59)

الفصل الخامس

جبر العلامات والمنطق السيميائي

أشار جورج مونان⁽¹⁾ في الثمانينيات إلى الفراغ الكبير والحساس في تاريخ السيميائيات نظرا لعدم وجود دراسات جدية وعميقة تخص سيميائيات ش. س. بورس؛ لأنها كانت مجهولة في أوساط الباحثين الناطقين بالفرنسية إلا نفرا قليلا منهم أما في الثقافة العربية فتكاد تكون منعدمة إلا في أواخر التسعينيات، إن نظرية بورس تنصف - حسب مونان - بالصعوبة والتعقيد ويجهاها الاصطلاحي الثقيل⁽²⁾، وإن كان تساءل ما إذا كانت هذه السيميائيات لها تأثير حاسم في السيميائيات التواصلية⁽³⁾؟ إن سيميائيات بورس ذات الأبعاد الثلاثية لا تستند إلى اللسانيات فهي ذات منطلقات فلسفية⁽⁴⁾ تركز على مقولات أساسية وتراثية؛ كما افتتح جيرار دولودال⁽⁵⁾ القسم الثاني من كتابه الموسوم بـ الفلسفة الأمريكية الذي خصصه للفلسفات الكبرى في العصر الذهبي في أمريكا، ببورس الإنسان والأثر ليقدم جزءا من سيرته الذاتية وكذا العلم والمنطق لديه وفينومينولوجيته وسيميائياته وميتافيزيقته، وبالمثل تناول سيميائيات تشارلز موريس⁽⁶⁾؛ حيث يرى دولودال بأن لالاند أقرب من بورس بالمثل الذي نرى فيه بأن برغسون قريب من وليام جيمس.

لقد تأثر بورس بنقد العقل الخالص إلى درجة أنه تشرب حروفه، وكاد يحفظه عن ظهر قلب، وأدرك خطورة دعوى كانط الفلسفية والمنطقية المتمثلة في الكيفيات التي تصبح فيها الأحكام التركيبية الأولانية ممكنة. وبما أن نسقية كانط

(1) وذلك في الفترة التي كتب فيها مؤلفه حول "مدخل إلى السيميائيات"

(2) Voir Claudine Tiercelin, La sémiotique philosophique de Charles Sanders Peirce, in Questions de sémiotique (sous dir. Anne Hénault), éd. Puf, Paris, 2002, p. 23

(3) Georges Mounin, Introduction à la sémiologie, éd. Minuit, Paris, 1970, p.8.

(4) Gérard Delédalle, À la source de la sémiotique triadique, in Recherches sémiotiques, RS.SI, vol. 21 (2001) N° 1-2-3, p. 212.

(5) voir G. Delédalle, La Philosophie Américaine, éd. De Boeck Université, Editions Universitaires France, 1990, PP. 131-4-142.

(6) voir G. Delédalle, La Philosophie Américaine, PP. 204-207

كانت تفكر مليا في الكثرة وعلاقتها بالكلية والنسق العام فقد جعلت بورس يرسم معالم نسقية سيميائية قوامها ابحث في علاقة القضايا الكلية بعالم الجزئيات الفعلي، ويرى أن نظرية المعنى هي نظرية مطلقة سابقة على السيكلوجيا؛ ومن ثم صارت مرادفة للسيميائيات ومتجاوزة لدعاوى لوك. وبدا من عام 1800 سيكتشف بورس مجددا مع ماك كول وفريج حساب القضايا الذي يرادف المنطق الرياضي؛ إذ (كان موضوعا للجدل الرواقي، والذي كان منطقة القرون الوسطى قد توصلوا إليه شيئا فشيئا)⁽⁷⁾. وعليه فلا يمكن تجريد السيميائيات المعاصرة من أصولها الفلسفية القديمة، وبذ كل مزية في التفكير المنطقي القديم.

تتمثل الدعوى المركزية في تفكير سيميائيات بورس بأنه لا يمكن أن يتم أي تفكير بمعزل عن العلامات من مطلق أن التفكير عن طريق العلامات قمين باستكشافه عبر الوقائع البرانية، وأن هذه الوقائع هي التي تضيي المشروع على إدراك الفكر والتعرف إليه؛ لأن ما لا يدرك لا وجود له. وعليه فإن التفكير ذو طبيعة سيميائية واقعية بالضرورة، بل إنه يعنقد بأن كل تفكير هو علامة، وأن العلامات - الأفكار (هي بحق موضوع بحث سيميوطيقي خالص)⁽⁸⁾. إن البحث السيميائي كما يتصوره بورس يسلمنا إلى تأمل (طواهر الوعي مثل: الإحساس والإدراك والانتباه والاستدلال. أي يقود إلى علم نفس (أو إلى ظاهراتية؟) المعرفة. وينتمي كل هذا في رأي بورس إلى مجال السيميوطيقا)⁽⁹⁾. إن هذا الضرب من الاستدلال هو الذي دفع بورس إلى النظر إلى السيميائيات على أنها مجرد اسم آخر للمنطق، ونراها اسما آخر للمنطق الواصف. وعلاقة التعدي فإن السيميائيات ستصبح منهجا في البحث غايتها تقصي "الحق" ومقارنته قصد تخليص العالم من خطر زواله ودفع الإنسان إلى لسعي وراء كماله عن طريق التدهي مع الكون والحلول فيه؛ وينم هذا التصور عن بعد اجتماعي وصوفي "تيولوجي" ثاو في سيميائيات بورس، وسيتجلى في بيان حلقة فيينا حول "الفهم

(7) ينظر روبر بلاشي، المنطق وتاريخه من أرسطو حتى رسل، تر. حليل أحمد خليل، ص. 418.

(8) مارسيلود أسكال، الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، تر. حميد لحمداني وآخرين، دار إفريقيا للشرق، المغرب، 1989، ص. 34.

(9) المرجع السابق، ص. 35.

العلمي للعالم'.

ولهذا يرى موريس بأن التحليلين المنطقي والسيميائي متماثلان إذا أخذ مفهوم المنطق في دلالة الواسعة كما يشير إلى ذلك بورس. أما إذ أخذ المنطق بمعناه الضيق والخاص فإنه يكون في هذه الحالة مجرد بعد من أبعاد السيميائيات، ومجرد فرع من فروع التحليل السيميائي حسب تشارلز موريس، وبخاصة ما تعلق بالقضايا التركيبية بالنظر إلى العلاقة بين العلامات؛ ولكن المنطق بمعناه الخاص يغدو علما صوريا يتمتع بالصدق بالضرورة على سبيل التقريب نظرا لعلاقته بشروط صدق التمثيلات.

إن المنطق كما كان يتصوره بورس يتسم بالانفتاح على كافة الطرائق التي تيسر السبل للباحثين بما في ذلك الانفتاح على إشعاعات القلب التي لا يعنفها العقل، والتسليم بالصدفة التي تعبر عن مظاهر الحيوية الموجبة في قانون التطور الطبيعي؛ ولهذا كنه فضل بورس وجهة نظر كينج في هذا الصدد، ونبذ دعاوى داروين وسبنسر ولامارك؛ وهذا ما يتسق مع تصورات بورس الكوسمولوجية التي بدورها من تطور العلوم الطبيعية، وليس من التأمل الفلسفي المحض. إذا كان وليام جيمس جاء إلى الداروينية بحماسة فإن بورس كان أكثر ترددا، ولم يقبل التطورية إلا عن طريق لامارك عكس جيمس الذي تأثر بداروين وجون ديوي بأوكسلي Huxley وسبنسر Spencer؛ وعليه فإنه يرى بأن العلم يقبل بالصدفة مهما كانت مرتكزاتها الميتافيزيقية أو الدينية⁽¹⁰⁾. ولكن مسعى المنطق يتمثل في دفع الشك وترسيخ المعتقد من حيث هو حركة متجهة إلى تحقيق الفعل.

إن فعل الفيلسوف سابق على استكشاف المنهج الذي ينبغي أن يحتذى من أجل تقديم صياغات جديدة للمنطق. وكان هاجسه متوقفا على مشروع "علمنة" الميتافيزيقا والبحث عن تفسير الظواهر وعللها قصد استكشاف الحقيقة استكشافا منهجيا بعيدا عن التأملات الخالصة التي تغفل ظواهر الواقع المعقولة. ولما كانت الطبيعة مسخرة للبشر من قبل الله فهي تفيض بالعلامات بوصفها آيات على وجوده بما في ذلك النظر إلى الإنسان في ذاته على أنه علامة. وستكون الدلائل السيميائية ضربا من البحث عن حقيقة الله وسر عظمته في خلقه بدءا من مدخل القوانين

الطبيعية التي حرص العلماء والفلاسفة على التطلع إلى البحث عن سببية غير آلية تؤكد التناغم بين الطبيعة وبين الدين والأخلاق والجمال ليس على أساس الاكتفاء بالوصف، بل السعي إلى استكشاف فكرة القانون استكشافاً منطقياً؛ ولا سيما إذا أخذنا في حسابنا الجو الذي صاحب فكرة نظرية التطور لدى داروين وسبنسر ولا مارك، وتأثيرها في المسارين الثقافي والفكري وبخاصة في أمريكا؛ بيد أن بورس نظر إليها من زاوية منطقية، وانتصر إلى دعاوى "كينج" التي تقول بأن التطور يحدث بكيفية فجائية، وهو انتصار من وجه آخر لنظرية الكوارث.

إن المعنى الذي يستخلصه السيميائي من علل الطبيعة هو خلاصة للسيميوزيس أو الدلالات اللامتناهية في الكون على وجود الله وعظمته، ولا ينبغي القبول بأن ما يطرحه الحتميون من قضايا هو مصادرات؛ ذلك لأن التفكير المنطقي لا يتولد من التعريفات والقضايا فحسب كما درج الاعتقاد على ذلك في أدبيات المنطق التقليدي؛ وإنما يستند إلى صور السيوررات التي تسهم في بناء المقدمات وصوغ النتائج؛ لأن التعريفات والقضايا تتجلى فعاليتها في النشاط الاستدلالي. وعليه فإن الاستدلال وتصنيفاته سيحظى بأولوية كبيرة في منطق بورس مما سيرسخ لديه فكرة معيارية المنطق.

هل المعنى هنا نتاج بحث ميتافيزيقي؟ إن بورس يرى بأن البحث عن "الحق" يعد موضوع المنطق كما أسلفنا القول. فالهدف الذي ينشده المنطق يتمثل في دفع الباحثين إلى تحديد الأسباب التي ينتهون بها إلى إدراك مبتغاهم وغايتهم. وهذا مبتدأ المنطق ومنتهاه في نظر بورس؛ كما أنه ينسجم مع فكرته التي ترى بأن الاستدلالات ضرب من السلوك المقيد بغية، وليست وظيفة المنطق محصورة في استنتاج القواعد. ولا غرو أن يعتقد بأن (اكتشاف حقيقة الله هو الشيء الوحيد الجدير بالاهتمام. وقد رأى أن المنطق هو العلم الوحيد القادر على الاضطلاع بهذه المهمة)⁽¹¹⁾؛ ومثل هذا الاعتقاد يؤكد أن فعل التفلسف سابق على المنطق من حيث هو دليل منهجي؛ لأن ربط المنطق بالغاية ليس تصوراً بعيداً عن شروط التفكير وسلامته.

فالقول بالغاية يتساق مع فلسفته الكوسمولوجية ذات النزعة التطورية ومع

(11) ينظر حامد خليل، المنطق البراجماتي عند تشارلز بيرس، ص. 22.

تيولوجية سيميائية لا تتنافى مع حقائق البحث التجريبي، وتنطلق من أن النسقية قبية ومحكمة تتوافر على خصائص الاتساق في ذاتها وتتوافق مع الجمال والبهاء، ولكنها وإن كانت فكرة معطاة سلفاً إلا أن نشأتها الأولى هي حالة العماء التي تدفع المنطقي إلى استكشاف جانب الانسجام داخل المجرات السيميائية. إن الكون لم يخلق عبثاً، وإنما تحكمه غاية على المنطق أن يسعى إلى استكشافها، وأن عناصر الكون الذي أبدعه الخالق عليها أن تنخرط في تطور المعقولة داخل سيرورة الكون وصيرورته في آن واحد عن طريق العقل.

وفي هذا السياق يمكن أن نقف على رواسب المنطق الأرسطي وبقاياه في هذا التفكير السيميائي الذي هو أمشاج من الفلسفة والعلم واللاهوت. إن التيولوجية السيميائية البورسية لها ما يسوغها على صعيد سوسيولوجية المعرفة؛ إذ كان مسار التفكير الأمريكي يتجه إلى ترسيخ عبادة المادة في الحياة الأمريكية، والتنكب عن طلب كل ما لا يفضي إلى النفعية، ومن ثم هجرة كل ما له صلة بعالم الفكر وتأملاته. ولهذا فإن النفعية لا علاقة لها هنا بما هو شائع عن المذهب البراجماتي كما هو لدى بورس. فالعلامة بوصفها فكرة تكتسي معنى إذا كانت تحقق نفعاً لا يكون النفع هنا مادياً بالضرورة.

الاستدلال

أدرك بورس أن الاستدلال⁽¹²⁾ هو مركز التفكير المنطقي، فسمى إلى تصنيف الاستدلالات بغية الوقوف على الصحيح منها وغير الصحيح، ثم البحث عن المبدأ الذي يقودنا إلى صحتها؛ على الرغم من أنه لم ينحس إلى فكرة أن المنطق نظرية في الاستدلال العقلي؛ بيد أنه لم يتخل على نسقية الاستدلال من حيث إن مصداقيته تتأتى من الاستدلال نفسه؛ لكنه كاد يتفرد بالاستدلال الفرضي الذي تقتصر وظيفته على التحقق من صيغ الفرضيات المبسطة على البحث، ولا تستند إلى عامل الاستقراء.

وهكذا فإنه لا يكتفي بقبول مصادر الميتافيزيقا الأنطولوجية؛ وإنما يقل

(12) استعمل بورس كلمة برهان مرادة لكلمة استدلال، ينظر حامد حويل، المنطق البراجماتي عند تشارلز بيرس، ص. 108.

القضايا المنطقية إلى الميتافيزيقا، ثم إلى العلم، وقيمتها على دعائم قوية؛ وتلك مهمة عجز عنها - حسب بورس - كثير من الفلاسفة ومنهم كانط الذي فصل فصلا قسريا بين الفلسفة الخالصة والتجربة. وسنجد بورس يختلف - أيضا - مع كانط في النظر إلى العبارات الرياضية على أنها أحكام تحليلية بدل أن تكون أحكاما تركيبية حسب متصورات المنطق المتعالي. وعلى الرغم من ذلك لم يجرّد المنطق من محدداته الأخلاقية، ورأى أن الاستدلال حينما يتطابق مع ما هو معقول في الكون فإنما يظهر سموه الخيري.

إن الوصول إلى الحقيقة لا يعوزها عامل التجربة بقدر ما تحتاج إلى النزاهة والموضوعية وعدم التعصب للهوى والتخلي عن الأندية. على الرغم من أن موريتز شليك يقر بأن "الإمكان التجريبي" لا يتعارض مع قوانين الطبيعة؛ بيد أنه يصعب الوقوف على ما هو ممكن وغير ممكن ولا سيما إذا احتكنا إلى التجارب المستخلصة من لماضي التي طاولها "الفرع الشكي" لهيوم؛ لأننا لا نمتلك الضمانات الكافية لتصديقها في المستقبل؛ ومن ثم لا يمكن اتخاذها دليلا لأي حكم على معنى العبارة.

فليس هناك استدلالات خارجة عن فكرة الغاية دون أن يعني ذلك أن المنطق قد يتخلى عن إجراءاته الشكلية. وعليه فإن الاستدلالات تكون ذات طبيعة منطقية (صائبة وخاطئة) وأخلاقية (خيرة وشريرة)؛ وهذا ما يعزز فرضية القول بأن سيميائيات بورس تركز على أبعاد عقلية وتولوجية كما سيكون عليه الحال لدى فيتجنشتاين الذي تسلت النزعة الصوفية⁽¹³⁾ إلى مسامات الرسالة المنطقية تسلا ضمنا وصريحا. فالمنطق لا ينفصل عن الغايات الأخلاقية السامية. فالتحرد من الأهواء والميول الذاتية وتوخي الأمانة العلمية وإظهار الجدية وحب البحث والالتزام بروح النقد والتحلي بالصدق كلها قيم أخلاقية تعد من صميم البحث المنطقي والأسس المنهجية التي يستند إليها في طلب الحق والكمال والخير الأسمى الذي يدرك إدراكا جماليا، ومثل بعض هذه المعاني ذات أصول لاهوتية؛ وعليه فكان بورس يعتقد من أن لخير الذي نجنيه من المنطق لا يكاد

(13) ماهر عبد القادر محمد علي، فلسفة التحليل المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، 1985، ص. 289 وما بعدها.

بنفصل عن الخير الأخلاقي، بل هو فرع منه.

إن تكوينه العلمي⁽¹⁴⁾ جعله يعتقد بأن الفلسفة والميتافيزيقا لا تستمد حيويتها، لا من داخل المنطق، وأن المنطق بدوره إذا أكره العلم على تبني متصوراته ومقولاته سيكون لا محالة عقيماً؛ لأنه نظر إلى مآزق خطاب الميتافيزيقا على أنه ناشئ من سوء التقديرات لمشكلات العلمية. ولا قيمة له ما لم يكن صريقة في المنهج؛ حيث يتجاوز الارتكان إلى مجرد الاستدلالات العقلية من جهة ومن جهة أخرى يسعى إلى التوليف بين وحدة المفاهيم العقيدة والحدوس الحسية على الطريقة الكانطية، فيصبح بناء ذهنياً خالصاً، وذا نزعة ذاتية لا يكاد يبرح مملكة الذهن، ولا يخطو خطوات ونيدة نحو استكشافات خامات الواقع المعقول. لقد ظل المنطق يراهن منذ القديم على طلب الحقيقة من حيث هي تطابق الفكر مع الواقع. فإذا كانت فلسفة بورس تراهن على لمصادرة الآتية: انتقال الكون من حالة العماء إلى حالة النظام؛ وهذه الفكرة لها أصول في الأفلاطونيات والفيثاغوريات. فإننا إذا سلمنا بهذه المصادرة فإن انساق حوادث الوقائع ستكون سوى محطة تحتاج إلى تفسير.

لقد انتفى المنطق - مع بورس بوصفه علم الواقع ونظرية في المنهج - أن يكون مجرد أرغانون أو آلة أو فن التفكير المجرد؛ وإنما كانت متصوراته تكاد تلتقي مع دعوى الرواقيين الذين جعلوا المنطق جزءاً لا يتجزأ من الفلسفة، وتتمثل وظيفته في البحث عن العلل التي تنسجم بها الطبيعة بدل الوقوف على قوانينها فقط. وتلك غايات ساميات يحرص عليها المنطق إن أراد أن يكون علماً للواقع، ولما يجب أن يكون عليه؛ ولهذا لم يتخل بورس عن البعد المعياري للمنطق؛ ولكن معيارية المنطق ليست مطلوبة لذاتها وإنما هي في خدمة الظواهر المعقولة للواقع. وأنها طوع حاجات الإنسان مما يجعل هذا لتصور قريباً مما كان يؤمن به علماء الإسلام الذين انشغلوا بفن المنطق فكان معياراً للعلم مثلما

(14) قال كانط، (...فقد كنت و"رايت" و"جيمس" رجل عم أقرب إلى فحص نظريات لميتافيزيقيين في جانبها العلمي منا إلى اعتبارها إلهاماً روحياً. وكان نمط فكرنا إنجليزياً. وقد كنت ابوحيد بيهم، الذي دخل إلى ساحة الفلسفة من باب "كط"، وحتى أفكاره كانت تكتسي بالنبرة الإنجليزية). ينظر هرويت شنيدر، تاريخ الفلسفة الأمريكية، تر. محمد فتحي الشطي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1964، ص. 339.

هو الحال لدى أبي حامد الغزالي وعلماء الأصول. وعلى المنطق أن يضطلع بتوضيح الأفكار كما جاء في تصورات البراغماتية الأولى؛ وذلك بعد أن تثبت المعتقدات لكونها الوسائل الوحيدة لسيرورات التفكير التي تتج بدورها معتقدات الفعل وعاداته؛ وهذا يؤكد نظرتة الوضعية للمنطق الذي ينبغي أن يضطلع بتحويل الوقائع الخارجية إلى مقولات عن طريق الملاحظة؛ وإن كانت هذه النظرة ستعرف تحولا في مسر تفكير بورس العام الذي لم يكن مطابقا كل التطابق للفكر الوضعي المنطقي وإن كان ملهما لإبداعات الفلسفة التحليلية.

إن ربط المنطق بإستراتيجيات الفلسفة جعله يوسم برسمها مثل: المنطق الصوري (أرسطو وأشباعه) والوضعي (ف. بيكون) والمنعالي (إ. كانط) والبراغماتي (ش. س. بورس) والطبيعي والرياضي والرمزي واللوحستيكي إلخ. ومثل هذه الرابطة لقوية هي التي تجعل من المنطق في علاقته بالفلسفة علما حيويا أو علما عقيما. وأن المنطق الحق ما كان ثاويا في ثنايا العلوم ذاتها؛ وعلى الميسوف أن يتعلم الصبر حتى تحصل له الحكمة لاستنباط مبادئ المنطق التي حددها بورس في الأسس الثلاثة الآتية⁽¹⁵⁾: 1 - إنه علم الواقع. 2 - إنه ذو طبيعة معيارية. 3 - إنه نظرية في المنهج. ولكن المنطق سيعرف قفزة نوعية في التقدم بظهور التحليل المنطقي للغة وبخاصة مع فلاسفة التحليل، بيد أنت لو سلمنا مع ما يزعمه هؤلاء من أن المنطق ليس بمسيس الحاجة إلى معطيات خارج نسقه المحايث فأنى لهم أن يتدعوا قضايا بمعزل عن الواقع الذي يحيون فيه؟!

ولعل مرد ذلك يعود إلى وهم المطابقة بين الفلسفة والرياضيات. فكان أشباع هذا التصور من علماء الرياضيات من مثل فريج وبيانو وراسل وفيتجنشتاين وماك كول Mac Coll وهوسرل وغيرهم لا يلتفتون إلى محتوى العبارة وإنما إلى علاقتها الشكلية. إذا كان المنطق علما لواقع؛ فعلى الوقائع أن تكون معطاة سلفا، وأن تكون استدلالاتها المنطقية ذات طبيعة احتمالية، وليست حتما علاقات ضرورية على نحو ما نلفيه في الاستدلالات الصورية والرياضية التي تتطابقان في مسألة الصورة. وهكذا يكون بورس أهم اسم أمريكي (الذي شارك مشاركات ذات

(15) يصر حامد خليل، المنطق البراغماتي عند تشارلز بيرس، ص. 18.

أهمية قصوى في كل فرع من أفرع المنطق. وكانت له كتابات مطولة في هذا الميدان لم ينشر أغلبها. وتبست روعة ما سجله، وتميز به في القرن الحالي فقط عندما تم تجميعها كتاباته، وأمكن نشرها⁽¹⁶⁾؛ لهذا كله كان واعيا بخصوصية المعارف وتباين أنساقها السيميائية. وعليه فهو لا يرفض البتة الانشغال بالفلسفة الأنطولوجية وإنما لا يقبل أن تكون تالية للبحوث المنطقية. بخلاف الرياضيات التي تكون سابقة على المنطق. فيمكن أن تكون أنموذجه في الاستدلال والبرهان وبناء الأنساق المحايثة من منطلق سيميائي.

لم يفصل المنطق المتعالي لدى كانط عن العلم؛ ولعل ذلك ما سيؤكد كثر من الفلاسفة ومنهم هوسرل وبيرغمان؛ بيد أن ما كان يحير بورس كيف يوصف المنطق بأنه علم وأوصاله مبتورة عن الواقع وهو بعيد عن طلب "الحقيقة"، ومنشغل ببناء النظريات بدل الانكباب على الممارسات؟! ولعل هذا ما سيقوده إلى بناء براغماتية جديدة لا تقبل بالمصادرات القولفية التي تركز على نظرية الذهن التي تقابل النعمة الشكية المشتتة لدى هيوم؛ وعليه فالمعنى ليس نتاجا ذهنيا خالصا، بل هو ذو علاقة بالوقائع والأحداث. ولهذا جاءت مقالته الشهيرة "كيف نجعل أفكارنا واضحة؟" لتعلن عن ميلاد "البراغماتية"، وتبحث في الطرائق المنطقية التي تجعل تصوراتنا للمعنى سليمة وواضحة، وتكون لنا القدرة على إعطاء حدود دقيقة ومجردة للأفكار. وقد ترتب عن ذلك التسليم بمفهوم "الاعتقاد" الذي يكون مرتكزا من مرتكزات الفعل، وعاملا من عوامل ترسيخ عاداتنا.

إن ظاهراتية بورس التي نسب إليها نظرية المقولات لم تر في العلم على أنه معرفة بقوانين الظواهر التي تحكم لطبيعة، بل إنها عملية تسعى إلى إيجاد العلل التي تتحكم في سير الظواهر. ولكن هل يمكن أن نصنف هذه الظواهر على أساس تباين منهجيات العلوم كما درج بعض الفلاسفة ومؤرخي العلوم؟ إن بورس كان يسلم بوجود منهج منطقي واحد ممكن؛ وذلك أنه كان يرى أن المنطق يعد بمثابة واسطة العقد بين علوم سابقة عليه مثل: الرياضيات

(16) ينظر أ. ه. يسون ود. ج. أوكوبر، مقدمة في المنطق لرمري، تر. عبد الفتاح الديدي، ص. 29.

والفيثولوجيا وعلم الجمال والأخلاق وعلوم لاحقة مثل: لميتافيزيقا بأقسامها الأنطولوجية والدينية والعلوم الطبيعية والعلوم التاريخية والنفسية والاجتماعية. ولعل ذلك ما حدا به إلى محاولة إيجاد خلاص للميتافيزيقا من القبضة اللاهوتية قصد إضفاء الطابع العلمي عليها، ثم إدخالها إلى حقل المعرفة العلمية، وكثيرا ما اجتهد سامي أدهم في طلبه انطلاقا من بحوثه الفلسفية والإبستمية.

إن هذا التصنيف للعلوم أنقذ المنطق من المأزق الذي وضعت فيه النزعة الصورية القديمة والحديثة (المنطق الصوري التقليدي والرياضيات). وأبرز أن العلوم تنزع في اقتدائها بالمعارف المتسمة بالتجريد بغية أخذ متصوراتها منها، وفي المقابل تمارس استقراءتها من المعارف التي تكون تجريديتها أقل من المعارف الأولى. وكان يهدف من وراء ذلك إلى (وضع منهج واحد للعلوم اللاحقة عليه على اختلاف أنواعها. إذ المعروف أن الرياضيات كانت تقف حجرة عثرة في طريق كل منطق يسعى إلى الاعتماد على التجربة كمصدر أساس للمعرفة)⁽¹⁷⁾. وعلى الرغم من أن الكانطية كانت من أبرز العلامات في حياة بورس العلمية والسيماثية إلا أنه حاول أن يستقل بتأسيس شكته المفهومية⁽¹⁸⁾ في المنطق والسيماثيات.

لقد احتفى بمنطق العلاقات ومقولات كانط الأربع: العلاقة، الكمية، الكيفية والجهة؛ حيث سعى إلى حصر المقولات في جدول بعد طول تأمل في السيرورات المنطقية، فوجد أن هناك خمس مقولات تتكرر، وهي على النحو الآتي: الوجود والكيفية والعلاقة والتمثل والجوهر؛ وسيحتفظ بثلاث مراتب للوجود بعد أن يتخلى عن مقولتي الجوهر والوجود مما ستشكل لاحقا أسس نظريته السيماثية بناء على متصورات منطق العلاقات وأنموذج البرتوكول الرياضي ودعامات العلم الطبيعي الذي لا يسقط دور التجربة في المعرفة الإنسانية؛ لقد استعان بمنطق العلاقات في اعتراضه على العقلانية الديكارتية والكانطية في تفسيرها معنى الألفاظ.

إن معنى (اللفظ أو تعريفه يشتمل على كافة الحدود التي يمكن حملها عليه.

(17) ينظر حامد حليل، المنطق الراجماتي عند تشارلز بيرس، 'مؤسس الراجماتية'، دار النافع، دمشق، 1996، صص. 16 - 17.

(18) ينظر أحمد فوزد الأهواني، جون ديوي، دار المعارف، مصر، 1959، ص. 87.

فقد رأى أن ذلك التفسير يعني إما أن اللفظ ستكون له سلسلة من التعريفات لا حد لها (كانط) أو أننا ننتهي إلى تصورات بسيطة بشكل مطلق مثل الوجود، والكيف والجوهر، لا يمكن تعريفها (ديكارت). وهذا ما دل منطق العلاقات على بطلانه، إذ ثبت أنه لا توجد سائط في الكون وأن كل شيء يمكن تحليله من خلال نسق العلاقات الذي يكون ذلك الشيء جزءاً منه⁽¹⁹⁾. يبدو أن ظاهراتية بورس حاولت أن تبحث عن حلول لمعضلات المشكلة الفلسفية التي تنازع حولها أشياء النزعتين العقلية والتجريبية، ووجدت ملاذها في منطق العلاقات الذي شيدت عليه صرحها السيميائي. وهو بذلك يكون قد خرج من دائرة سحر الكانطية التي لم تحسم النقاش حسماً نهائياً، ووجد خلاصه في منطق العلاقات الذي لم يطرحه على أنه (منطق ثان سينضاف إلى تركيب منطق الأصناف أو الصفات، وإنما يقدمه كتعميم لهذا المنطق، فيظهر كحالة خاصة من حالاته، إن كل قضية تتضمن في نواتها "rhème" أي عبارة تلعب دور الفعل. وهذه العبارة تشابه جذراً كيميائياً، يمكن إشباعه بعنصر أو بعدة عنصراً... ونحد في هذا النص العائد إلى 1892 أفكاراً مماثلة للأفكار التي صاغها فرييج في نفس المرحلة⁽²⁰⁾. ومنه حدد أقسام الوجود في رتب ثلاث: الأولانية والثانيانية والثالثانية. إن تصوراتها انظاهراتية الوصفية هي ضرب من التوجه إلى الظواهر (الفانيرون phanérons المعقولة المعطاة في الواقع، وتكاد تماثل مفهوم "التجربة الخالصة" لدى وليام جيمس؛ وهذا ما سيجعل هوسرل يفهم الوعي بأنه نوع من إضفاء القصد على الشيء.

تأثر بورس بفكرة كانط القائلة: بأن وطيفة الوعي هي اختزال تعدد الانطباعات الحسية إلى وحدة إلا أنه لاحظ بأن العقلانيين ومنهم كانط قد أخفقوا في الانتقال من المنطق إلى الميتافيزيقا وتحويلها إلى علم ينشد الصدق سواء أكان صورياً أم واقعياً؛ وهذا ما يرادف مفهوم الحقيقة لدى الماسطقة، ومرد ذلك إلى أنهم لم يتخلصوا من إضفاء الأبعاد الأنطولوجية على المقولات

(19) ينظر حامد خليل، المنطق البراجماتي عند تشارلز بيرس، "مؤسس التراجمانية"، ص. 197.

(20) روبر بلانشي، المنطق وتاريخه من أرسطو حتى رسل، تر. خليل أحمد خليل، ص. 403 -

المنطقية. وإن كان بورس نفسه يعتقد بأن المقولات ليست سوى مبادئ أنطولوجية تعبر عن حضورها في الوجود نفسه؛ فهي ليست حكرا على التصورات لفكرية الخالصة؛ ومثل هذا الاعتقاد يتساق مع دعوى بورس حول المنطق بوصفه علم الواقع، ودعوته إلى ضرورة انتقال الفكر إلى رحابة الوجود. وفي المقابل حاول أن يدحض تجريبية لوك وشكية هيوم؛ إذ كان يعتقد أن معنى الماهيم جزئية، وليست حسية مجردة.

الرياضيات والمنطق

لقد كانت الرياضيات عاملا حاسما أثر في منطق بورس؛ لأنها أكثر المعارف تجريدا وهي سابقة على المنطق حسب تصنيفها للعلوم، كما أصبحت تعتمد على العبارات الرمزية ذات الصيغ الجبرية بوصفها لغات اصطناعية تتجاوز عجز اللغات الطبيعية. وتتجرد لغتها السيمائية من تبعيتها للمضامين المادية، وتكتفي بأشكالها الصورية؛ حيث إن الضرورة في الاستدلالات الصورية لا تكون مقبولة إلا في الرياضيات التي أصبحت علاقتها حميمة مع المنطق في التفكير المعاصر من حيث هو ضمان لمرتكزاتها ومبادئها. لقد ارتسم منطق بورس في مجال "جبر العلامات" على الرغم من أنه لم يكن يسعى البتة إلى تحويل المنطق إلى رياضيات أو "جبر" المنطق على طريقة بول وكذلك شرودر الذي اتجه إلى معالجة حساب الأوصاف (الفئات) وما يتفرع عنها من قضايا وعلاقات، واختزال المنطق إلى نوع من الجبر الذي ينصرف إلى البحث في مكوناته الجوهرية دون أن يكون شغله الشاغل لبحث عن حلول لمشكلاته ومسائله التطبيقية.

ستفتر العلاقة بين المنطق والفلسفة أو بين الكينونة الفعلية والبحث عن العلية؛ ولهذا تبدو الحاجة ماسة إلى ربط الأواصر بين المنطق والرياضيات مع جورج بول. (فالمنطق مثل الهندسة يقوم على حقائق بديهية وتعريفاته مبنية وفقا للنظرية العامة للرمزية التي تشكل أساس كل ما هو معترف به كتحليل)⁽²¹⁾. إن جبر المنطق لم يحقق نجاحه الباهر من منظور السيمائيات إلا مع فريج الذي استدرج المنطق إلى مملكة الرياضيات، لم يكن في حسبانته سوى تأسيس منطق

(21) روبر بلانشي، المطلق وتاريخه من أرسطو حتى رسل، تر. خليل أحمد خليل، ص. 366.

لا يتفرع من الرياضيات؛ وإنما يركز عليها فقط؛ إذ أسهم في إنقاذ الشبكة المفهومية للرياضيات من الاستعمال الحصري للكم. ولكي نبقي مليا مع بوول الذي يتعامل مع الجبر كونه يمثل قوانين الفكر فقد أسدى خدمات حليمة للمنطقيين الجدد؛ ولهذا يرى بأن فكرة العدد والكم لا تعد من صميم الرياضيات. فالمطلوب بناء رياضيات العقل البشري وتطهير المنطق من النزعة النفسانية على نحو ما سيصطنعه هوسرل طلبا لتحقيق صرامته الدقيقة وعلميته الخالصة.

إن وجه الجدة في منطق بوول يتمثل في الإرهاصات المبكرة للتفكير السيميائي الذي ستكتمل نسقيته مع بورس؛ إذ تنهض لديه كل الاستدلالات الجبرية على دعامة العلامات وتصنيفها على أساس وظائفها، ثم السعي إلى البحث عن مماثلتها مع استعمالات اللغة العادية؛ حيث يمكن حينئذ تحويلها إلى علامات مماثلة للعلامات الجبرية. فكل السيرورات اللغوية بوصفها أداة استدلال عقلي يمكن التعامل معها على أنها أنساق سيميائية مركبة، وتتألف حسب بوول⁽²²⁾ من العناصر الآتية:

- 1 - رموز حرفية مثل y, x إلخ. وهي أشياء تكون موضوعا لتصوراتنا، وتنضوي تحتها الأسماء والأعلام أو الأجناس والصفات والجمل الوصفية.
- 2 - علامات إجرائية مثل $+$ ، $-$ ، x وهي عمليات عقلية يتم بها تصورات الأشياء أو حلها؛ بحيث تنصهر الأجزاء في الكل أو ينحل الكل إلى أجزاء؛ وعليه تنبثق مفاهيم جديدة تكون متضمنة في العناصر نفسها. وتنضوي تحتها الكلمات مثل و، أو، ما عدا.
- 3 - علامة الماهية، = وتشتمل على كل الأفعال وبخاصة فعل الكينونة على وجه التحديد. إن هذا الوصل نعبر به عن العلاقات بين الأصناف البسيطة أو المركبة، ومن هذه العلامة تتألف القضايا.

ومهما يكن فإن جبر بوول الذي أضفى مقتضيات العدد على علم المنطق سيكون له تأثير لا محالة في منطق بورس؛ ولكن هذا الجبر المنطقي سيختلف عن جبر العلامات الذي سيشكل جوهر سيميائيات بورس ومراكزها؛ لأن جبر

(22) ينظر روبر بلانشي، المنطق وتاريخه من أرسطو حتى رسل، تر. حنين أحمد خليل، ص. 369

بوول (شكل معين لحساب عددي، شكر وضع خصيصا ليتقبل تأويلا منطقيا، ولكن حيث تبقى بصمات التفسير العددي الأولي)⁽²³⁾، فهو أقرب إلى الرياضيات (الجبر الكمي) منه إلى المنطق وقضاياها وإشكالاته؛ ولهذا احتفى بالنسق الاصطناعي الذي انتقده بورس من زاوية أنه اطمأن كثيرا إلى العمليات المعكوسة ووضع المعادلات.

إن العلاقة بين المنطق والرياضيات هي علاقة تبعية يكون المنطق هو المتبوع بخلاف ما كان عليه الحال لدى بوول حيث كان المنطق تابعا للرياضيات. وقد أشادت حلقة فيينا⁽²⁴⁾ بجهود لايبنتز ولامبير التي أسهما نوعيا في دفع مفاهيم الاستنباط وطرائقه إلى السير نحو القبض على الواقع وفهمه فهما علميا بواسطة نسقية رمزية تستمد روحها من الأنموذج الرياضي؛ يبدو أن هناك بعض التباين في إستراتيجيات كل من المنطق والرياضيات. إن (الرياضي يتساءل ما هي قيمة هذا الجبر كحساب؟ ما هي الخدمات التي يمكنه تأديتها لحل مشكلة معقدة للتوصل دفعة واحدة إلى نتيجة بعيدة؟ والمنطقي يهتم بشتى المراحل المنطقية التي يصل خلالها الجبر إلى تفكيك الاستناد، فيما يتظره من الجبر هو أن يحلل الاستدلال العقلي في سيروراته الأولية)⁽²⁵⁾. هذه الإستراتيجية قد أخذتها سيميائيات بورس في الحسبان. هناك مسألة في غاية الأهمية تعيدنا مرة أخرى إلى مريض التفكير في الفلسفة السكولائية؛ إذ يكرها المنطق والرياضيات على القبول بنوع (من الواقعية بالمعنى السكولائي؛ أي بقول وجود عالم من الكليات والحقائق التي تدور مباشرة حول هذا الوجود الخاص أو ذاك)⁽²⁶⁾

على أهمية الحسابات الجبرية عند بوول وشرودر فإنهم لم تكف تخرج عن حدود الحسابات الاصطناعية وإن حققت نجاحا لا يمكن للمنطقي أن يغمط فضلها إلا أن البحوث السيميائية لبورس (الخاصة في مجال المنطق "فقد كانت

(23) المرجع السابق، ص. 375.

(24) جماعة حلقة فيينا، بيان الهمم لعلمي للعالم، تر. وداد الحاج حسن، ضمن كتاب رودولف كارناب، نهاية الوصية المنطقية، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدر البيضاء، ط. 1، 2001، ص. 271.

(25) يطر روبر بلانشي، المنطق وتاريخه من أرسطو حتى رسل، تر. خليل أحمد خليل، ص. 392.

(26) المرجع السابق، ص. 416.

منطقية، وليست رياضية، أي موجهة نحو العناصر الأساسية في الجبر، وليس نحو حل المسائل⁽²⁷⁾. سعت السيمباليات مع بورس إلى تشييد جبر للعلامات لا تكون فيه لاستدلالات الحسابة إلا عمليات ثانوية. وقد تعاملت مع العلامات على أنها تمثيلات ومعان وقوانين وأفكار، وأن الأفكار في جوهرها مرتبطة بالأفعال؛ لأن الاعتقاد ينشأ من الآثار التي تحدثها الأشياء الحقيقية؛ ولكي يتم التحقق من صحة العلامات التي توصف بالحقيقة أو بطلانها نعود إلى المنهج التجريبي الذي توكل إليه مهمة بيان صحة الأفكار أو بطلانها. وعلى الرغم من نزعة بورس البراغماتية إلا أنه لم يجعل منطق أسيرا للنفعية العملية، ولم يكن منشغلا بفكرة اطراد الوقائع، وإنما كان يريد له أن يجابه الأشياء مجابهة عارية، يترتب عنها فعل التفلسف.

اهتم بورس بمنطق العلاقات الذي شهد تطورا على يد دو مورغان De Morgan⁽²⁸⁾ الذي ابتدع لغة واصفة حولت منطق العلاقات إلى لغة رمزية، وتعاملت مع الوقائع على أنها فرضيات لا تتضمن في ذاتها الصدق أو الكذب؛ حيث لا صلة لها بالواقع. لقد أثنى بورس على دو مورغان الذي وصفه بأنه أب منطق العلاقات؛ إذ اهتدى إلى إعادة صوغ ثنائية "الجمع والحاصل"، فاستبدل النفي بالنقيض والجمع المنطقي بالمجاميع والحاصل المنطقي بالتركيب؛ ثم لاحظ بأن (النقيض للمجاميع هو تركيب الأضداد المجاميعية، وأن النقيض للتركيب هو مجاميع أضداد التراكيب" أي بكتابة رمزية:

$$\overline{x + y} = \overline{x} \times \overline{y}$$

$$x \times y = \overline{\overline{x} + \overline{y}}$$

ويموجب التشاكل بين حساب الأصناف وحساب القضايا، سيصار إلى نقل هذه القوانين من الأول إلى الثاني، وستغدو صالحة للعلاقة بين المعاندة والتلازم⁽²⁹⁾.

(27) ينظر المرجع السابق، ص. 399.

(28) ينظر أ. ه. بيسون ود. ج. أوكونر، مقدمة في المنطق الرمزي، تر عبد الفتاح الديدي، ص. 29.

(29) ينظر دويير بلانشي، المنطق وتاريخه من أرسطو حتى رسل، تر خليل أحمد خليل، ص. 395.

تلقى دروس المنطق من حوليات واتلي Whately ومن والده؛ لكنه انطلق في دراسته للمنطق من جبر بول Boole الذي يظهر بوصفه ضرباً جديداً من ضروب حساب الأصناف وإن كان أميل إلى كونه حساباً مجرداً وليس حساب أصناف. إن هذا الجبر المنطقي ينصرف إلى البحث عن القواعد التي تتحكم في تراكيب الرموز لا تفسيرها فحسب؛ ذلك لأن التفسير لا يتدخل في العلاقات المفترضة⁽³⁰⁾. وفيما يشير جبرار دولودال⁽³¹⁾ أنه إذا كان فريج أول من اقترح في عام 1879 الصيغة الأولى لـ: "الحساب القضوي الحديث" Calcul. وهذا لا يدل على أن بورس كان على علم بها.

ثم يطلع بورس على أعماله، لكنه بدأ يفتح طريقاً لمنطق القضايا ما بين 1880 و1885 الموسومة بـ: جبر المنطق "Algèbre de la logique" يكاد يطابق منطق بورس بمعناه الدقيق منطق فريج (1956) [الدلائل]؛ ولا سيما أن فريج⁽³²⁾ يعتقد أن المنطق لا يعدو أن يستكشف ما هو موجود، ويضفي عليه اسماً مثله كمثل الجغرافي في وصف ما يمثل أمامه؛ ولكن هناك مسألة مهمة تهمنا في هذا السياق وتعلق بـ "النحو الخالص" (الذي يهتم بتحديد ما يجب أن يكون صادقا في علاقته بتمثيلات مستخدمة من جانب أي عقل علمي حتى يتمكن من اكتساب معنى قارنه بورس بـ: "لأنحاء التأملية")⁽³³⁾. إن النحو الخالص قد يكون له حضوره الأنطولوجي من حيث التركيب السيميائي بين العلامات عن طريق جمع جملة من الصفات الذاتية لتغدو علامة واحدة ودالة مثل الحمرة والخطورة.

كانت الرياضيات المنطقية - وبخاصة طور العلاقات منها - تنطلق من المصادرة الآتية: (إنه لا يمكن أن تفهم أية ظاهرة ضمن حد واحد أو حدين أو ضمن أربعة حدود، وإنما في إطار علاقة بين الأطراف الثلاثة؛ ولذلك فإن ما دون الثلاثة يجب أن يصير إياها، وإن ما فوقها يجب أن يختزل إليها)⁽³⁴⁾. وهذا ما

(30) ينظر ماهر عبد القادر محمد علي، فلسفة العلوم: المنطق الرياضي، دار النهضة العربية، بيروت، 1985، 23/3.

(31) voir G. Deledalle, La Philosophie Américaine, pp.132, 136.

(32) ينظر روبير بلاشي، المنطق وتاريخه من أرسطو حتى رسل، تر. خليل أحمد خليل، ص. 416.

(33) مارسيلود أسكال، الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، تر. حمد لحمداني وآخرين، صص. 35 و36.

(34) ينظر محمد مفتاح، مفهوم الحقيقة عند شارل ستندرس بورس الحقيقة المجتمعية، مجلة فكر ونقد، س. 1، ع. 2، أكتوبر 1997، ص. 51.

سيشكل البرتوكول الرياضي الذي يركز عليه مفهوم العلامة وتمريعاتها لدى بورس. لقد كان على الرياضيات أن تمارس الاستدلال لا أن تعنى ببناء نظريته؛ ذلك أن الاستدلال ممارسة سابقة على النظرية؛ ولهذا كان يعتقد أن نشتغل بالفعل الفلسفي، ثم نفكر بعد ذلك في استنباط القواعد؛ وهذه النظرة البراغماتية أهله للتمرد على الفلسفات القديمة وعلى لنظريات المنطقية السابقة.

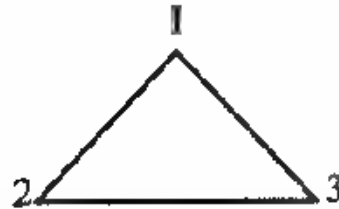
إذا كان بورس قد خالف كانط كما أسلفنا القول في نسبة القضايا الرياضية إلى الأحكام التركيبية، وأرجعها إلى الأحكام التحليلية. فإن المحمولات قد تكون محتواة في الموضوعات على نحو مشوش؛ ولا يتمحض عن ذلك المعنى النفسي الذي قرره كانط. إن العلاقة بين المحمول والموضوع قد تدرك إدراك ضمنيا. وما يعيننا من ذلك أن هذه الضمنيات تشير إلى الدلالات المفتوحة (السيمبوزيس) التي قد تتخذ صيغ النظريات الرياضية أو تكون فروضا لامتناهية من أجل تفسير واقعة ما أو مجموعة من الوقائع في إطار أنساق محددة، وتكون على درجة عالية من الاتساق في البناء النظري المحكم حتى تضي عليها المعنى. وإد رمنا الحديث عن الخلفية الرياضية التي كان يستعين بها في مجال مدارس الميتافيزيقا سنجده يلوذ بفلسفة العدد عندما يواجه مشكلة انبثاق الكون من حالة الفجاءة الأولى القائمة على جملة من الأفكار مثل الصدفة والانحراف عن القاعدة أو لقانون والفراغ والعماء. فهو يأخذ الوجود على أنه حالة وجود أول أو على الأصح (إنها صفر zéro خالص، يكون الكون كله متضمنا فيه أو مبشرا به عن طريقه (عن طريق الصفر). وبما هو كذلك، فإنه إمكان possibility غير محدد وغير متعين، وبالتالي فهو ينطوي على حرية بدون قيد. بيد أن الصفر المذكور لم ينشأ من شيء، بل قفز إلى الوجود بطريقة فجائية. وتلك القفزة أصبح الإمكان غير المحدد وغير المتعين الذي هو ذلك الصفر، إمكانا من هذا لنوع أو ذاك، أي الإمكان الذي له كصفات qualities معينة⁽³⁵⁾. ولكنه سينتهي إلى الإقرار بمبدأ أولانية برصفها الرتبة الأولى في سلم الوجود كما سيأتي بيان ذلك لاحقا.

وحينما يولي بورس وجهه شطر البراغماتية على أنها مبدأ كاف للمعنى سيلتفت إلى تلك العلوم المعيارية (الأخلاق وعلم الجمال) التي شملتها النسقية

(35) يطر حمد خليل، منطق البراجماتي عند تشارلز بيرس، "مؤسس البراجماتية"، ص. 244.

النقدية الكانطية بعناية خاصة، ولعلها حفزته كثيرا على الوقوف عليها، ويرى أن الفلسفة البراغماتية ينبغي أن تكون الغاية التي تسعى إليها محددة في "الكل" الذي يؤلف المعنى؛ ومن ثم يكون قاعدة لها، وقد ترجم هذا المعنى من الناحية المنطقية في النتائج التي يهتدى إليها عن طريق الاستدلالات التي تعد عصب التفكير المنطقي. ففي مرحلة أولى كان بورس يستند إلى الاحتمالات الرياضية في الاستدلالات المنطقية قبل أن يولي وجهه شطر المنهج بوصفه كنه المنطق.

آمنت فلسفة بورس السيميائية بوجود ثلاث مقولات جوهرية بالنسبة للتمثل أو الدلالات المفتوحة، كما رأت بأن المنطق والمنهج العلمي يؤلفان ركيزة هذه المقولات⁽³⁶⁾، التي تعود مرجعيته إلى المنطق الأرسطي وفلسفة ديكرارت ومنطق كانط. فكانت الدعوى المهمة في النظرية السيميائية لبورس هي أن التركيب يجمع بين شيئين مختلفين في وحدة هي تركيب التمثل أو الدلالات المفتوحة في الصيغة الرياضية الآتية: 'أ هي ب' \leftrightarrow 'ج تمثل أ ممثلة بأن ب يمثل أ'. ولا غرو أن تستند هذه السيميائيات على أساس رقمي قوامه البرتوكول الرياضي⁽³⁷⁾ الذي يؤكد بدوره نسقية العلاقات الثلاثية. فالواحد والاثنان والثلاثة هي أعداد كافية من الناحية لبراغماتية وضرورية من الناحية المنطقية من أجل إنتاج علاقات لانهائية. إن البرتوكول الرياضي ذو طبيعة اختزالية؛ إذ يتوافر على خصيصة الاقتصاد التي تمكنه من رد أي عدد يتجاوز الثلاثة إلى علاقة ثلاثية. ولهذا فإن بورس سيعتمد عليه في نظرية المقولات التي ترتبط بخصائص الوجود ومراتبه وفق ظواهر (phanérons) تتساق معها، ولا يشترط بالضرورة أن تكون متطابقة مع العالم العياني. فهي تمثل كل ما يستدعي إلى الذهن.



David Savan, Introduction, in Textes fondamentaux de sémiotique de C. S. Peirce, Trad. (36) Berthe Fouchier-Axelsen, Clara Foz, Méridiens Klincksieck, Paris, 1987, p. 12
Voir R. Marty, La sémiotique phanéroscopie de Charles S. Peirce, in Langages, n° 58, (37) 1980, p. 32.

مراتب الوجود:

1 - الأولانية: تمثل عالم لأفكار أو الممكنات التي تتسم بالغموض⁽³⁸⁾ مما جعل بورس يرى أنه من العبث محاولة تعريفها، وكل ما يصل إليه المرء أن يستطيع التمثيل لها. إن الأولانية هي الوعي المباشر⁽³⁹⁾؛ وذلك الضرب من الوجود الإيجابي والخصوصي، أي هو الإمكان الكيفي الإيجابي الذي يعبر عن طبيعتها الواحدة. وبقدر ما هي تعبر عن الكيفية فهي تمثل الإحساس⁽⁴⁰⁾. إن عمل الأولانية غير منفصل عن الثانية والثالثة حتى وإن كان ممكنا الفصل بين الأولانية عن الثانية والثالثة وكذا الثانية عن الثالثة إلا أنه من غير الممكن أن نفصل الثالثة عن الثانية والأولانية.

يسير هذا التصور في الاتجاه من المجرد إلى المحسوس. ولهذا لم يجرّد الأولانية من بعدها المادي الذي لا تستقيم الدلالة في غيابه. وهكذا نلغيه بجاري فلسفة كانط الخالصة في النظر إلى هذه الرتبة من الوجود على أنها نمط من "الوجود في ذاته"، لا يعين شيئا ولا يستتبعه أي شيء⁽⁴¹⁾. وعليه قد يحتاج المرء قدرا غير قليل من الجهد التجريدي الكانطي لكي يستوعب وجودها الذري أو إمكانها الخالص. فإذا أخذنا الأمثلة التي ساقها بخصوص هذه الرتبة من الوجود مثل اللون الأحمر صوت الصفارة ورائحة العطر ومر وصلب ونيل وما إلى ذلك فهي عبارة إمكانات كيفية وإيجابية (موجبة) لها وجود في ذاتها سابق على تجسيدها في موضوعات مستحدثة.

ولكنها بالمقابل تمتلك قدرة تجعلها قابلة للتجسيد أو غير قابلة للتحيين. وهناك كيفيات شاملة وكيفيات فردية. أما الممكنات المنطقية فهي إلا كيانات تصورية لا تتم إلا في علاقتها بالثانية. وفي ذلك إشارة إلى أن وجوده غير مرتين بذاتها، وإن كان جون ديوي يرى أن المقصود بذلك القدرة أو الممكنات المادية. ولا بد من الإشارة إلى أن تجاوز المرحلة الاسمية، واعتراض على متصوراتها غير ما مرة، ورأى بأنه من غير الصواب (لتمسك بأن "الكل" وحده

C. S. Peirce, *Écrits sur le signe*, p. 51

Ibid, p. 76.

ibid, p. 83.

Ibid, p. 72.

(38)

(39)

(40)

(41)

هو شيء ما، بينما لا تكون أجزاؤه شيئا البتة، مهما كانت أساسية بالنسبة له. وقد كان أكثر وضوحا في مكان آخر؛ إذ قال بأن 'الكيفية' وعي؛ لكنه ليس وعي منيقظا، وإنما هو شيء ما من طبيعة الوعي. إنه وعي نائم⁽⁴²⁾.

2 - الثانية: إن رتبة الثانية في الوجود دليل آخر على القطيعة التي أحدثها بورس مع النزعة الاسمية. وهو ينطلق من المصادرة الآتية بأن عالم الوقائع الخارجية المجسدة موجودة وجودا مستقلا عنا وعن فكرنا الذي كان يعزى إليه بسط مشروعية وجودها عن طريق الاستدلال الذي نلفيه في تأملات ديكرت. وستقل سيميائيات بورس رتبة هذا الوجود من مقام التمثل إلى مقام الظاهرة بوصفها معطى بطريقة مباشرة، ودالة على طبيعة التضاد والصراع في الموجودات الفردية التي تفرض علينا الانتباه إليها لكونها أن لها جانبا ماديا قابلا للتحيين ضمن شروط محددة زمانية ومكانية، ولا تقتضي جهدا أكبر من التجريد كما هو الحال في الأولانية حتى يتسنى لنا الإحاطة بها.

إن الضرورة في الثانية (غير مشروطة؛ لأنها قوة بدون قانون. وهي مجموع نتائجها التي هي تأثيراتها علينا. وأخيرا فإن موضوعها ليس عقليا، بل هو الجوهر لمادي أو الفيزيقي أو الجسم)⁽⁴³⁾. وبناء على قانون الفعل ورد الفعل فإن كل ما يقع في الوجود يتجسد في عالم التحرية المحدد، وأن الأفعال المترتبة عن ذلك تقتضي نشاطا ديناميا. إن الثاني (يوجد في الوقائع بصفته غيرا وعلاقة ووجودا وأثرا وتعلقا واستقلالية ونفيا وورودا occurrence وواقعا وتجربة. ولا يمكن لأي شيء أن يكون غيرا وسالبا أو مستقلا بدون أول premier يصبح هذا الشيء، بالنسبة إليه، غيرا وسلبيا أو مستقلا. إن الثاني يتحدد ويتروح بواسطة الأول، ونعثر على الثانوية secondité في occurrences إن الثاني هو الشيء الميت المحارجي)⁽⁴⁴⁾. وانطلاقا من فكرة التقابل والتضاد يبدو أن الطبيعة الثنائية خصيصة من خصائص الوجود التي تعبر عن وجوده بوصفها تضادا لشيء آخر على الدوام.

(42) ينظر حامد خليل، لمطلق البراجماتي عند تشارلز بيرس، "مؤسس البراجماتية"، ص. 34.

(43) المرجع السابق، ص. 36.

(44) ينظر حنون مارك، دروس في السيميائيات، دار تونقان للنشر، المغرب، ط. 1، 1987، ص. 44.

ولهذا كانت مقولة الثنائية تمثل عالم الموضوعات التي ترتبط بالوفائع⁽⁴⁵⁾، وتسعى الموجودات الفردية الممكنة التي تنصف بالعمومية إلى البحث عن منزلتها داخل النسق العام للكون. ومن هنا تبدو هذه الرتبة من الوجود بأنها غير مستقلة بذاتها، وغير ضرورية؛ ومن ثم فهي متعلقة بالأولانية حسب مفردات سيميائيات بورس وفلسفته التي تؤمن بفكرة اتصال الكون.

3 - الثانية: كان بورس يؤمن بسلطان القانون الذي ينظم الكون بوصفه مجرة سيميائية شاملة تصطرع فيها الموجودات على أنها علامات جزئية متعلقة مع علامات جزئية أخرى وفق قواعد تتسم بالواقعية لا مجال فيها للصدفة على الرغم من أنها تؤدي دورا مهما في بناء البروتوبلازم وسلوكها⁽⁴⁶⁾؛ ولهذا كان يخالف الفلسفات التي لا تتحمس لفكرة تعميم القوانين؛ كما أن الكون هو آية دالة على عظمة الله وقدرته؛ وعليه فإن البرهنة على واقعية تلك القوانين تثبت بأن الظواهر تنتقل من طور التشنت أو الالتوائية إلى طور الاتساق الذي يستكشف السمات العقلية. إن الكون (الذي كان في البداية مجرد فوضى يغدو تدريجيا منظما معقولا باكتساب "عادات الذهن"..." و"بيرس" يسوي بين انتشار الحركة المنتظمة في الطبيعة وبين نشأة التصورات أو الكليات في الذهن)⁽⁴⁷⁾؛ وذلك بخلاف ما كان يعتقد تشونسي رايت من أن العالم بدأ منظما، وانتهى إلى حالة الفوضى (الكاوس)، وأن أفكارنا عن الأشياء ليست سوى تصورات عن وقعها الحسي. ومثل هذه المتصورات يخالفها كثير من الاعتقادات اللاهوتية التي لا يبرأ منها التفكير الفلسفي. بيد أن بورس اشترط على المفاهيم التي تدخل إلى دائرة الفعل من المنظور المنطقي أن تمر على عتبات الإدراك الحسي، وتخرج إلى الفعل الهادف.

وسيتخض عن هذه الرتب الثلاث للوجود تصوره للعلامة وفق المطلق الثلاثي؛ ولكن هذا التصور مر بأطوار ثلاثة فكان تصنيفه للعلامات مبنيا على طبيعة العلاقة بين العلامات وموضوعاتها، وقد أوضحنا هذه الأصناف في غير هذا

C. S. Peirce, *Ecrits sur le signe*, p. 52

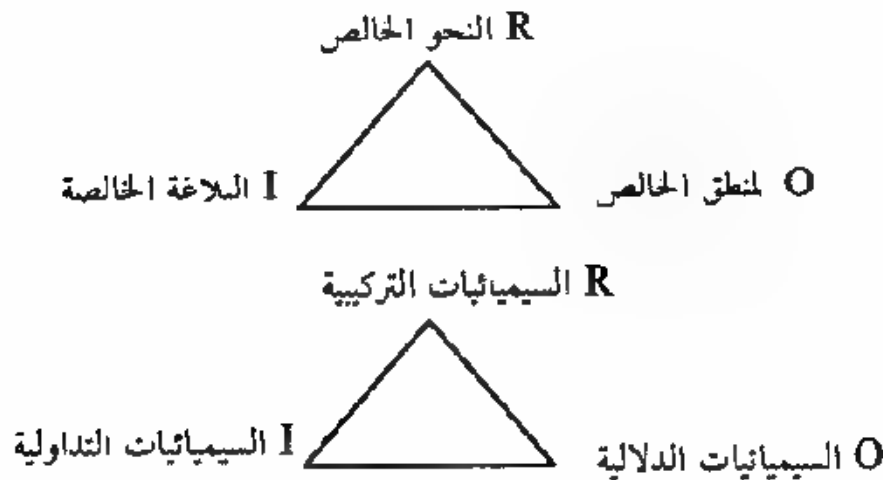
(45)

(46) هيرت شنيدر، تاريخ المسمة الأمريكية، تر. محمد فتحي الشبلي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1964، ص. 249.

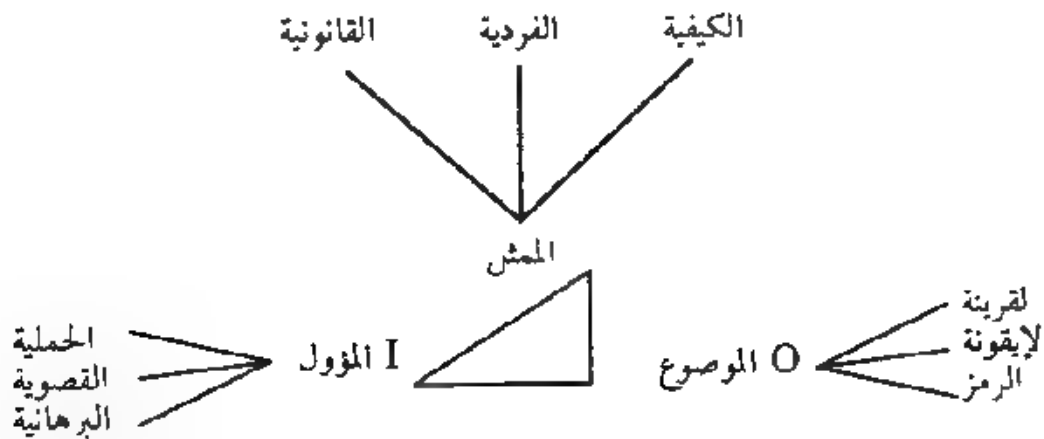
(47) المرجع السابق، ص. 248.

الموضع، وتتمثل في الإيقونات التي كان يطلق عليها "المشابهات"؛ لأنها قائمة على المشابهة والقرائن قائمة على العلاقة العقلية والرموز قائمة على المواضع. إن الكيان الثلاثي للعلامة بوصفها ممثلاً تقتضي موضوعاً له صفة المعكوسة سواء أطاق الواقع أم لم يطبقه؛ لأن العلامة لا تشير إلى شيء بعينه بقدر ما تشير إلى علامة أخرى، كما أنه يستدعي - أيضاً - مؤولاً على أنه نتاج العلامة ذاتها فيغدو عنصراً شريكاً للعلامة نفسها. ومن الناحية الفلسفية فالسيمياثيات البورسية هي علم للثلاثية أو فلسفة التمثل⁽⁴⁸⁾ على نحو عام.

وانطلاقاً من هذه المتصورات هناك النحو العام (grammaire pure) الذي يضطلع بمدارسة المستوى التركيبي للعلامة؛ حيث يمكننا أن نضع لها حدوداً وتصنيفاً وتحليلاً. إن هذا النحو يدرس ركائز العلامة. أما المنطق الخالص (logique pure) فينصرف إلى مدارسة علاقة العلامات بموضوعاتها، ومن ثم إلى مستواها الدلالي طلباً للبحث عن مواصفات صدق التمثل وحقيقته، ويكتسي هذا البحث طابعاً شكلياً انطلاقاً من الاستقراء والفرض والاستنباط؛ ولهذا فهي تمثل السيمياثيات التركيبية، بينما تتناول البلاغة الخالصة علاقة العلامات بمؤولاتها عن طريق استخلاص القواعد التي تتحكم في نشاط الدلالات المفتوحة وانبثاق العلامة من العلامات فهي تنتسب إلى السيمياثيات الدلالية. فالبلاغة الخالصة (rhétorique pure) تعالج سيرورة المعنى معالجة تشدد الشروط الصورية لعمل الرمز وفق منظور السيمياثيات التداولية.



فإذا كان هذا التصنيف يرجعه مؤرخو فلسفة بورس إلى عام 1867 فإن تصنيفه للعلامات التي لها علاقة بالمثل الذي يحيل على العلامة من حيث هي علامة فتعود إلى ما بين 1903 و1906، فتفرعت إلى علامات كيفية وفردية وقانونية. فالعلامة في ذاتها مجرد كيفية قد لا يكون لها وجود، وقد يكون لها ذلك، وقد تكون قانوناً؛ وهذا التصنيف مرتبط بترتيب الوجود الثلاث الأولانية والثانية والثالثة:



فإذا أخضعنا هذه العناصر إلى أحكام كائنة التركيبية والتحليلية لألفيناها تأخذ هذا المنحى.

من جهة التحليل: الممثل ← المؤول ← الموضوع

من جهة التركيب: الموضوع ← المؤول ← الممثل

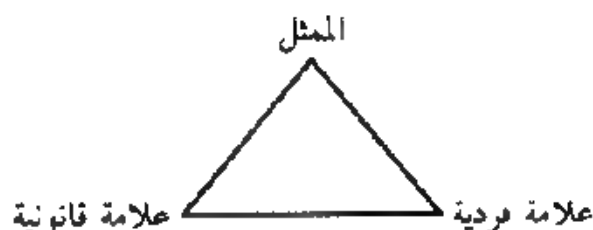
وستتفرع علامات ثلاثية تصل إلى تسع علامات

الممثل	{	علامة كيفية	(R.R)
		علامة فردية	(R.O)
		علامة قانونية	(R.I)
الموضوع	{	إيقونة	(O.R)
		قرينة	(O.O)
		رمز	(O.I)

$$\text{المؤول} \left\{ \begin{array}{l} \text{(I.R) علامة حملية} \\ \text{(I.O) علامة قضوية} \\ \text{(I.I) حجة} \end{array} \right.$$

ويمكن إعادة صياغة الخطاطة السابقة في الجدول الآتي الذي يبين التداخل بين مختلف أصناف العلامات؛ إذ لا وجود لعلامات كيفية وفردية وقانونية وجودا مستقلا بذاته؛ ولكن ما يميزهما العمل الذي يضطلع كل صنف من هذه الأصناف الثلاثة. وكل هذه الأصناف تسهم في إبراز العلامة الركيزة، كما ينبغي التنبيه في هذا الصدد إلى أن الشيء ذاته قد يكون من قبيل هذا الصنف من العلامات أو تلك حسب السياق الخاص الذي يتموضع فيه هذا الشيء:

الثلثية 3	الثانية 2	الأولانية 1	رتب الوحد جهات التدلال
القانونية 3.1	الفردية 2.1	الكمية 1.1	الممثل 1
الرمز 3.2	القرينة 2.2	الأيقونة 2.1	الموضوع 2
البرهانية 3.3	القضوية 2.3	الحملية 1.3	المؤول 3



فإذا حللنا علاقة الممثل مع ذاته (1.1)، فينتج عنها العلامات الكيفية؛ غير أن هذه الكيفيات محكوم عليها لكي نكتسب مشروعية العلامة أن تتجسد حتى تعبر عن الأولانية تعبيراً خالصاً. فلكي يكون هذا الصنف من العلامات ركيزة فهو يستند

على الكيفية التي هي مستقلة عن موضوعها استقلالاً زمنياً ومكانياً. ولهذا تعد هذه العلامات الكيفية أساس المشابهة والتماثل والاستعارة.

وإذا جئنا إلى جهة الممثل في علاقته بالموضوع (2.1) فإنه يمثل العلامات الفردية؛ وهذا المستوى يبرهن على تمسك بورس بالواقعية؛ لأن هذه العلامات الفردية تعبر عن موجودات واقعية تسهم في تأليف العلامة وتكوينها، كما أنها تحيل إلى أحداث فردية؛ بينما أن هذا الضرب من العلامات لا يتمتع بصفة العلامة ما لم ينطو على البعد الكيفي الذي ينبغي أن يتجسد في الواقع بارتباطه بالموضوع. ومن هنا نلاحظ تلازماً بين العلامات الفردية مع العلامات الكيفية. وهناك أمثلة يسوقها كل من دولودال وسافان لهذه العلامات الكيفية كالمفوضات التي تقال في خطبة الزواج أو أداء اليمين في المحاكم الشرعية أو الصورة الشمسية (الفوتوغرافية) أو النصب التذكارية. فالعلامات التي تفضي إلى إنجاز أفعال تمثل هذه العلامات الفردية.

وننتهي إلى العلاقة الثالثة بين الممثل والمؤول (3.1)، وتؤلف العلامات القانونية. إن كل العلامات التي تخضع إلى المواضعت الاجتماعية هي علامات قانونية؛ ولهذا فهي تتصف بالعمومية حتى تحقق خصيصة الدلالة، ويساق هنا مثال الكتابة الأبجدية بوصفها علامات قانونية متواضع عليها. وفي الواقع هناك إشارة لطيفة إلى أن ما يؤلف أنا نتعامل مع نسخ (repliques) العلامة؛ وهذا شكل من أشكال العلامات أشار إليه أمبرتو إيكو. فالكلمات المنسوخة في الصحف هي عبارة عن نسخ فردية للكلمات بوصفها علامات قانونية؛ وهي مشتملة للترتة الثالثة من الوجود. ولكن هل يمكن الزعم بأن العلامات الفردية هي نسخ؟ إن هذا الزعم لا يتساقق البتة مع سيميائيات بورس ومنطقه. إن العلامات القانونية هي لبنات قوية لبناء الألسن وثقافات المجتمعات وعماد ذلك القانون والعادة والمواضعة.

لقد سبق لنا أن وقفنا على العلامات المتفرعة من الموضوعات القرآنية والإيقونات والرموز - في غير هذا الموضع. وهذه الأصناف هي الشائعة والأكثر استعمالاً في أدبيات السيميائيات المعاصرة بخلاف العلامات المتفرعة عن الممثل أو المؤول؛ وعليه سنكتفي بالحديث هنا عن العلامات التي تنشأ عن المؤول؛ لأنها شديدة الوثاق بالدعاوى المسطوية لدى بورس.

علامة حملية



إن علاقة المؤول مع الممثل (3.1) تنبثق منه العلامة الحملية (rhème) أو الخبرية. فهي تشير إلى الإمكان الكيفي للعلامة التي يفسرها الذهن بالنسبة إلى موضوع ممكن. إن التمييز بين هذه العلامات لا يتم على صعيد التركيب، وإنما على صعيد الوظيفة التي تضطلع هذه العلامات. فالعلامات الحملية في ذاتها لا تكتسي أي دلالة ما لم يضطلع الذهن بحملها على موضوع محدد؛ فهي ليست قضية فارغة من الموضوع. إنها ضرب من التقرير البدئي مثل الدالة تا(س) في الرياضيات؛ إذ إن صورتها مرتبطة بالمتغير س حينما تمنح له قيمة ما.

فإذا عبر عن أحد حدود قضية من القضايا بعنصر كيفي ومجهول ستكون القضية لا محالة خالية من المعنى. ولنأخذ هذا المثال: (س نبي) فالقضية هنا مفرغة من المعنى بخلاف لو قلنا بأن (إبراهيم نبي) فالحد يكون له معنى لكون أن القضية صارت تعيين صريحا. إن العلامة الحملية يتم إدراكها بالقياس إلى مؤولها على أنها علامة إمكان كيفية؛ فهي تمثل نوعا من الموضوع الممكن، وتخبرنا عنه من منطلق خصائصه؛ ولهذا وصف بورس العلامات الخبرية بأنها "أسماء الأصناف" التي تعد قاعدة لكل تعيين.

وإذا كانت الحدود في أدبيات المنطق الصوري تنقسم إلى حدود تامة وتقوم على التعريف بالجنس والفصل القريبين، وحدود ناقصة وتقوم على التعريف بالجنس البعيد والفصل القريب أو بالفصل وحده، بينما نلقي الرسوم التامة تتم بالتعريف بالمثال عن طريق ذكر أحد مصاديق الشيء المراد تعريفه إلا أن ذلك لا يستصر إليه بورس انتصارا مباشرا؛ ولكن يتعامل مع "اسم الصنف" أو "اسم عام" على أنه الشيء الذي يحيلنا إلى صفات معينة، ويثير انتباه الذهن إلى ذلك النمط من وجود الشيء بحسب الصفات الواردة. (إن الحد هو أقوى من الرسم؛ إذ في الحد التام يجب أن تتوفر شرط المساواة بحسب المفهوم، بينما في الرسم

التام تكفي المساواة بحسب الماصدق...إن الحد يجب أن يسبق الرسم، إذ ليس بالمستطاع إلا بعد تحديد لفظة ما، أن نحصر ماصدقها، ونلاحظ الصفات التي تخص الأفراد المندرجة تحتها، والصفات التي تعم هذه الأفراد وغيرها⁽⁴⁹⁾ وكل ذلك من أجل الإسهام في فهم معنى ممثل معين عن طريق استحضار الصفات الذاتية بتعبير ابن مينا، ولا يكاد يتجاوزها.

يتم استبدال الحدود (termes) ها بالعلامات الخبرية (rhêmes). وكما سبقت الإشارة فإن الحدود لدى بورس هي أسماء أصناف أو أسماء أعلام تعد نوابع قضوية. ولللدالة على فرد مخصص، ثمة تعابير سوى أسماء، تستخدمها اللغات الطبيعية. ففي العربية، للمحمول المصحوب بلام لعهد هذه الوظيفة، وكذلك هو عمل الكنية واللقب وغيرها من المركبات⁽⁵⁰⁾. فالمحمولات تكتسي صبغة الخبر من حيث هو علامة بسيطة لا تتأثر بالموجود الواقعي؛ ولهذا لا نستطيع أن نقول بأنها صادقة أو كاذبة لكونها تعبر عن إمكان كيفي غير متحقق، ويحيل أسماء الأصناف، ولا تعبر عن واقعة منطقية، ومن ثم فإن العبارات لا تتوافر سلفاً على قوتها السرهانية في ذاتها. وسنلغي بأن الاستدلال عمليات استبدالية للنتائج بالمقدمات أو لقضايا بقضايا أخرى تتجاوز استبدال حد بحد. فهناك استبدال يكون فيه الماصدق (الامتداد) متضمناً في ماصدق آخر، واستبدال يكون فيه المفهوم متضمناً في مفهوم آخر؛ ولعل هذه المتصورات المنطقية إحدى ركائز مفهوم العلامة لدى بورس.

ينظر الذهن إلى العلامات الخبرية على أنها إمكانات كيفية ترتبط بموضوعات لا تكون متعينة سلفاً وبالضرورة. وينبغي الاحتراز في مسألة علامة الخبر التي تقابل الإيقونات. (إن الخبر يحدد، إذن، بفضل بنيته القائمة في الأولية، ميكانيزم المؤول فقط على أساس الإيقونية iconicité والمباشرة similitude والمجاورة بين المؤول والموضوع)⁽⁵¹⁾. بما أن الإيقونات تمتلك خصيصة الواقعية فهي تشترك مع

(49) عادل فاحوري، منطق العرب من وجهة نظر المنطق الحديث، دار الطليعة، بيروت، ط. 2، 1981، ص. 59.

(50) عادل فاحوري، المنطق الرياضي، دار العلم للملايين، بيروت، ط. 2، 1979، ص. 242.

(51) ينظر حنون مبارك، دروس في السيميائيات، ص. 58.

العلامات الخبرية؛ وهكذا تستفي عنها الصفة العقلية الحالصة؛ لأنها تعبر عن موضوعات واقعية.

إن القضية *dicent* أو المقول⁽⁵²⁾ علامة دالة على كائن فعلي بإمكانها أن تخبرنا عن موضوع العلامة بوصفه موجودا معينا، بل هي قرينة لموضوع متحقق في الواقع، وفي الآن نفسه فإن المحمولات تتضمن إيقونات تدل على المقومات الذاتية للموضوع، وتشير إلى خصائصه؛ ولهذا كنه يوصف بالقضية الإسنادية علما سيحتفي بضرب واحد من القضايا وهي القضية الشرطية التي تتمثل صيغتها في ("إذا أ" إذن ب"). إنها رسم عقلي يخطه الذهن ليستدعي موضوعا أو أكثر من ذلك في الواقع؛ وعليه فهي قرينة للموضوع تتجلى طبيعته بارتباطها الفعلي مع مؤولها. وخلافا للعلامات الخبرية فإن العلامات القضية أو شبه القضية فإنها توصف بالصدق والكذب أو بالإثبات والنفي نظرا لطبيعة العلاقة التي تربط بينها وبين موضوعاتها؛ وذلك تبعا للتجربة التي تعبر عنها هذه العلاقة.

وإذا كانت العلامات الخبرية متصلة بالإيقونات فإن العلامات القضية هي رموز تتمثل خصيصتها في نوع دلالاتها. إن القرينة هي علاقة ربط عملي بين الموضوع والمحمول، وأن ما يتفرع عنها من قضايا بوصفها تصديقا لما نعتقد حول الأشياء أو هي تقرير عن أفكار حيال الأشياء حسب ما ما يؤمن به المنطق لتقديدي. فإن حكمنا رأي بورس من أن المنطق علم الواقع فهذا ينسجم مع الزعم بأن القضية تقرير عن الشيء ذاته. إنها حجة دون أن تتضمن نتيجة.

وسنلغي المنطق ذا النزعة الذرية لا يحصر الحكم على صدق القضايا أو كذبها حسب درجة تطابقها مع العالم العياني وقيام النسبة بين أطرافها، بل يكتفي بمدى اتساق القضايا مع ذاتها، ويشترط ألا تكون متناقضة؛ بيد أن هذا الاتساق غير موقوف على النشاط الحيوي للعقل، وإنما لا يخضع التحليل المنطقي سوى إلى شروط صارمة فيتصرف تصرفا في اختيار مصادراته؛ وبذلك فهو لا يلتفت إلى حقيقة الواقع، ويكتفي بالنظر إليه على أنه عالم سيميائي مغلق وموغل في الصورة. وعيه سلاحا بأن بورس لم تكن له تلك النصاعة التي وقفنا عليها في تصنيفه لنظرية العلامات بخصوص العلامة البرهانية (الحجة).

(52) ترجمة لـ *dicent* من قبل حنون مبارك.

تستند العلامات البرهانية بوصفها حجة إلى قاعدة أو قانون تسلمنا في النهاية إلى الحقيقة؛ ولهذا نظر إلى القانون على أنه النتيجة في العمليات الاستدلالية؛ ولكن يمكن أن تكون هذه النتيجة خلاصات استدلالية ناتجة من قضايا أخرى قد تكون بعيدة عن الواقع؛ ولا سيما إذا احتكما إلى المنطق الرمزي في تصويره للنسق⁽⁵³⁾ على أنه يشترط عدم التناقض والتمام واستقلال المسلمات، ولكن هل تكنسي الحجة هنا صفة العلامة التي هي نتاج علاقة المؤؤل مع ذاته؟! تكون كذلك إذا كانت وطيعتها تندرج في التعريف بالشيء دون أن يفقد حصيصتها العقلية ذات الطبيعة لاستنتاجية التي تنسجم مع المحور الاستبدالي الذي طرحه دو سوسير في مقابل المحور لمظمي من جهة، ويقترّب مع نظرية الحقول الدلالية التي بسطتها الدلاليات الحديثة من جهة أخرى.

لقد ظل بورس يدافع عن دعواه التي فحواها أن نسق الكون ابشوق من اللانسق؛ وهذا الاعتقاد يفسر إيمانه بالتطور الذي ينطلق من الموضي وينتهي إلى النظام والاعتقاد بدعوى "تصال الكون". أما لداروينية فما هي إلا "تنوعات عرضية"، حيث انتهى إلى ذلك بعد طول تدبر ومشقة إمعان. غير أنها معطاة من قبل مداخل الحس فهي تمثل تحديات فينومينولوجية بلذات لتي نتم عن طريق البحث، وما ينتهي إلينا بواسطة أحكاما الإدراكية التي ليس لنا فيها كبير اختيار لكونها قضايا ذات محمولات من بسط عام. فهي ليست من ابتداعات العقل الخالص، بل إن نسقي الطبيعة والأفكار متماثلان - في نظر بورس كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ويكتسيان طابع التعميم لمحدد من منطلق أن سيرورة تمكبرنا منطقية بالأساس؛ وهذا ما سيجعل الانتاج الثقافي الشري إحدى درجتني الثانية؛ لأنها تتوسط وتربط بين المقولتين الأولى والثانية.

د المعنى بوصفه تمثلا أو قانون لا يكتفي بالتعبير عن حضوره تعبيرا قبليا؛ ولكن وجوده يكون له حضور في المستقبل مما يجعل التنبؤات العلمية ممكنة وواقعية. لقد أشار بورس (إلى أن انتبؤ بمسار الحوادث في المستقبل يقدم الدليل على أنت نتعرف على عنصر القانون في الظاهرات)⁽⁵⁴⁾؛ ولهذا كنت مقولة

(53) ينظر عدل فحوري، المنطق الرمزي، صص. 105 - 123.

(54) ينظر حامد حليل، لمطق البرجماتي عد شارلز بيرس، 'مؤسس البراجماتية'، ص. 37.

الثالثة تمثل لدى بورس الضرورات من حيث إن الكينونة المصاحبة تتضمن ما هو قابل للتعبير عنها ضمن قضايا كدية من أفكار وعادات وقوانين.

لم يتردد بورس في الاعتراف بالإسهام النوعي الذي أسدته إليه فلسفة كانط، بل كان لها الفضل في إخراجها من الدائرة الضيقة للعلم إلى رحابة الفلسفة. كما أنه أشاد إشادة لا تكاد تخلو من إعجاب كبير بالأثر الذي أحدثته فيه الفلسفة الإنجليزكية ذات الطابع التجريبي والتحليلي؛ ثم طعم أفكاره بالتوجه إلى النزعة البراغمية التي أراد لها أن تكون له عون في إثبات أن العلامات بوصفها حالات خصوصية للإحساس قابلة لأن تكتسب حدا في إطار ما تتيحه عادات الاعتقاد؛ ولكنها لا تخرج عن عادات الفعل. (فالعادة هي تجسيد بيولوجي لفكرة عامة. هذا التفسير لحقيقة الكليات بدا "لبورس" القصيدة المركزية للبرجماتية، وقد اهتم بنمط خاص جدا للفعل "فعل لتعميم")⁽⁵⁵⁾. هناك نسج معرفي هجين تتألف منه سيميائيات بورس؛ حيث كان يركب بين الكانطية والتطورية الداروينية والطبيعانية (أكاسيز Agassiz) والفينومينولوجية والبراغماتية التي حمت شعار "كيف نهتدي إلى أن نجعل أفكارنا واضحة؟" والواقعية التي كانت تمثل مرحلة نقد الميتافيزيقا؛ إذ صاغها تحت تأثير أبوت Abbot.

إن براغماتية بورس ذات أصول سقراطية وأرسطية ورواقية وسكوتية، كما أنها لم تنكر لأسس الكانطية القائمة على الفعل والعمل وانتقالها من "نقد العقل الخالص" إلى "نقد العقل العملي"، ثم إلى "نقد ملكة الحكم"؛ وقد استعار مصطلح البراغماتية من كانط الذي ميز - في أثناء مدارسته لميتافيزيقا الأخلاق - التي كان يرى أن قوانينها قبلية - بين مصطلحي 'عملي وبراغماتي'. (فالاصطلاح الأول يتصل بمنطقة من الفكر لا يمكن لذهن من طراز تجريبي أن يكون متأكدا من أنه يقف على أرض ثابتة. والثاني يعبر عن علاقة بغرض إنساني محدود. وأبرز ملامح النظرية الجديدة اعترافها بوجود صلة لا تنقسم عراها من المعرفة العقلية والغرض العقلي)⁽⁵⁶⁾، ثم ربطها بورس بالمطلق والبحث عن المعنى على خلاف نزعة وليم جيمس الفلسفية التي كانت تشد الحقيقة، ورفض

(55) ينظر هيربرت شيدر، تاريخ الفلسفة الأمريكية، تر. محمد فحي الشيطي، ص. 342.

(56) ينظر محمد مؤاد الأهواني، جون ديوي، دار المعارف، مصر، 1959، ص. 87.

أن يسم أفكاره الجديدة بالنظرية العملية كما أشار عليه بعض المقررين منه؛ لأن كل ما كان يروم البحث عنه أن يجعل الأفكار واضحة. وفي هذا السياق إن المادة والعقل ما هما إلا مميرات داخل التجربة الخالصة أو حياد أولي لدى ويليام جيمس. وهذه الفكرة ملفيها لدى بورس أيضا التي يمنحها ضمانا دونس سكوت.

إن براغماتيته كان يراد لها أن تكون ذات طبيعة منهجية للتفكير لكي تستكشف عن نظرية المعنى، وتحدد معاني القضايا والمفاهيم والدلالات المفتوحة من منظور سيميائي، وتضفي عليها طابع العمومية بناء على القاعدة البراغماتية: "إن تأثير الشيء مرهون بنتائجه العملية"، وهو كمن تصورنا للموضوع. فإذا أخذنا علامة قاس لا نستطيع فهمها ما لم ندرك بأنه غير قابل للخدش. فنتيجة عدم الخدش هي معنى علامة قاس. وخارج إطار التجربة التي هي السيل الوحيد الذي ينقل الواقع إلى الذات لا يمكن إدراك العلامات من المنظور البراغماتي.

مارست سيميائيات بورس ما وصفته كرسيفا بالتقويض الساء للمعاني الميتافيزيقية التي تتصف بالزيف وخلوها من المعنى على طريقة المناهج التجريبية ونزوع فلاسفة التحليل. لقد حدد بورس أسس البراغماتية في ثلاثة مبادئ تلخص في الافتراض والإجراء والتجريب: (1) - افتراضية hypothetricalism؛ أي: إلحاحه على أن نضع الحمل المفردة بشكل جمل افتراضية قبل أن يكون في وسعنا اكتشاف معانيها الذرائعية، ثانياً عملية operationalism، أي إلحاحه على أن يرد في جملة فعل الشرط "إذا - " ذكر لعملية يقوم بها المرء، لشيء يختبره المرء، ثالثاً، تجربيته experientialism أي إلحاحه على أن يرد في جملة جواب الشرط "فإن - " ذكر لشيء يحتبر أو يلحظ من قبل المختبر بعد توفر شروط الاختبار⁽⁵⁷⁾. إن بورس تجاوز البحث عن العلامات الممثلة في الأفكار الخالصة إلى دراسة وظائفها، ولعل ذلك ما كان يأمله دو سومير من السيميائيين حينما تحصل لهم الحكمة في بلورة مشروعهم حول نظرية العلامات. ولكن هل يمكن أن تكون للسيميائيات القدرة على تقديم مقارنة للتصورات الكوسمولوجية بناء

(57) يظر مورتون وايت، عصر التحليل، فلاسفة القرن العشرين، تر. أدب يوسف شيش، مشورات وزارة الثقافة والإرشاد، دمشق، 1975، ص. 152.

على الأسس العلمية التي حاول بورس أن يضيفها على الميتافيزيقا، ويخلص عباراتها من الكذبة البلقاء التي وصفها به جون وزدوم J.Wisdom⁽⁵⁸⁾؟

إن فكرة انتقال الكون من حالة الفوضى إلى حالة النظام لا تكاد تخلو من بقايا التفكير الدارويني حول التطور؛ وإن تم نبذ نظريته، والزعم بأن مشروع المعرفة قام على عملية افراض بغية تفسير قوانين الطبيعة التي قد تحدث حدوثا فجائيا؛ بيد أن هناك نزعة محايدة يمكن أن يقف عليها الفكر العلمي في أثناء السعي إلى الاقتراب من تفسير قوانين الطبيعة والإجابة على كيف؟ ولماذا؟ والنتيجة أن المنطق لا يقرر شيئا خارجا على محددات النسقية المحايدة التي تحكم الكون، ويعبر عنها ما يتجلى في الواقع على اختلاف رؤى الفلاسفة والمناطق والعلماء. ومن هنا نلني حرجا في تصورات بورس السيميائية لاتخاذ موقف مغاير للكانطية؛ ومن ثم التحرر من عقلانية هيكارت واسبينوزا ولايبنتز وتجريبية هيوم الموغلة في قتامة الشك ورجم العلامة بالقصور ورميها بالمضنات.

وآية هذا المأزق أن بورس يتعامل مع الطبيعة، وكأنها أشبه ما تكون بـ: "المعقولة المحايدة" التي تتوافر على خصيصة الاتساق الذاتي، ولها القدرة على الاستدلال عن طريق القياس كما هو الشأن في الممارسات المنطقية. ولهذا كله فقد كان تصوره الكوسمولوجي بخصوص الصدفة يشبه بعض الغموض. فهل الصدفة في قوانين الطبيعة هي علامة العماء؟! إن بورس لم يتبن مقولة أنكساجوراس⁽⁵⁹⁾ القديمة التي أثنى عليها أرسطو كثيرا "في البدء كان كل شيء مختلطا، ثم أتى العقل nous، فميز كل الأشياء ليعيد تنظيمها". وهذا الرأي يعطي للعقل وظيفة منطقية لتشييد الأنساق بما أوتي من قدرة على دراسة النشاط الذهني.

لم يستقم عود البراغماتية في صيغتها النظرية الخالصة إلا مع نزوج تفكيره السيميائي الذي قاده إلى تحليل المفاهيم الميتافيزيقية قصد تطهيرها من المعاني الزائفة التي ستشكل مشروع الوضعية المنطقية وبناء كذلك علم كوني، كما أنه نزع إلى بسورة فلسفة للتواصل ستجد امتداداتها مع فلسفة كارل أتو آبل التداولية. لم

(58) ينظر أج. بي. حرايس وآخرون، طبيعة الميتافيزيقا، تر. كريم متى، مر. كامل مصطفى الشبي،

مشورات دار عويدات، بيروت، باريس، ط. 1، 1981، ص. 10.

(59) بول موي، المنطق وفلسفة العلوم، تر. فؤاد زكريا، ص. 6.

يثبت بورس على تصور واحد في التعامل مع المعنى تعاملًا براغماتيًا؛ حيث انتقل من طور ربط المعنى بالنتيجة العملية، المتمخضة عن المفاهيم والقضايا، وامتحان صدق المعنى امتحانًا إجرائيًا متبعا سلوكه العملي إلى طور ربطه بالعلاقة العقيدة الناتجة عن سوابق القضية ولواحقها التي يقوم بها الشخص المؤول، وليس السلوك الفعلي الذي يصدر عنه؛ وهكذا تؤول براغماتية بورس إلى الفهم النظري الخالص للمعاني العقلية.

إن تأويل السيميوزيس علامة تحتاج إلى تأويل عن طريق علامات أخرى؛ وهكذا تؤول السيرورة التأويلية المنطقية إلى عدد لانهائي من العلامات؛ حيث تنتج لغة واصفة تظر في تجدد مستمر لا مجال فيها لتكرير ما سبق؛ ولكنه سرعان ما أدرك أن السيميوزيس يحلق إشكالات عويصة في المسائل الأخلاقية؛ ولهذا انتبه إلى أنه يجب الإفادة من الأخلاق لكي يحدد المرء القصد من استعمال علامة وتوظيفها حتى لا تنقطع سبل التواصل وأسبابه بين الناس. ومثل هذه النتيجة أدركها من قبله أبو حامد الغزالي في "المستصفى"؛ إذ أشار إلى خطورة استخدام الالتزام في الأمور الشرعية؛ لئلا يتخذ حجة لكي يسقط التكليف عن العباد عندما ينتقل الذهن في فهم معنى اللفظ إلى لازمه الذي ليس له حد. (وإياك أن تستعمل في نظر العقل من الألفاظ ما يدل بطريق الالتزام، لكن اقتصر على ما يدل بطريق المطابقة والتضمن، ولأن الدلالة بطريق الالتزام لا تنحصر في حد؛ إذ السقف يلزم الحائط، والحائط الأس، والأس الأرض، وذلك لا ينحصر)⁽⁶⁰⁾. إن الالتزام أو الدلالة عبر اللفظية تشير إلى أن فهم مدلول اللفظ يجعل الذهن ينتقل من هذا المدلول إلى لازمه من الخارج.

وهكذا يلتقي كل من أبي حامد وبورس وأمبرتو إيكو في التسليم بوجود تخوم لتأويل السيميوزيس حتى لا تضيع حلقات الوصل بين العلامات والواقع من منظور أن المنطق علم للواقع. عبر أن هذا الواقع وإن كان مرادفاً للحقيقة إلا أن العلاقة المتطابقة بينهما تحتفظ بنوع من الاستقلال عما نعتقد ونعرفه؛ لأنها ليست بالضرورة أن تكون كذلك؛ وليس أدل على ذلك من التسليم بعنصر الصدفة الحيوي - في نظر بورس - الذي يمثل انزياحا عن قوانين الطبيعة المطردة في

(60) أبو حامد الغزالي، المستصفى، ص. 42.

تطورها؛ حيث تملك النسقية كفايات للتكيف مع حالات الانحراف، وتنسجم مع مصادرة أن الكون انتقل من العماء إلى الاتساق. ولهذا ينبغي التعامل مع حالة الفراغ على أنها علامة دالة على معنى السلب.

ولكي يتم هذا الوصل لا بد من حدوث نوع من التطابق بين العلامات ومعقولة وقائع العالم التي ينشدها التفكير المنطقي؛ وتلك غاية ينشدها طالب الحقيقة على النحو الذي كان يتصوره فلاسفة العصر الوسيط؛ حيث كان لبعضهم تأثير كبير في بورس؛ ولا سيما دونس سكوت مما جعله يرى الحقيقة والواقع على أنها شيء واحد. ولكي نقلت من سديم التأويل ولولبية الإلتزام اقترح بورس على نحو لا يكاد يخلو من غموض تحكيم العادات بوصفها مرتكزات عقلية يستند عليها التأويل المنطقي في تفسير المفاهيم؛ حيث عرفت انزياحا ملتويا في سيرورة التفكير السيميائي لديه؛ إذ صارت لا علاقة لها بسلطة الفعل الحسي على وجه الخصوص.

إن العادات من حيث هي أفعال آلية تتم بفعل التكرار المستمر فنلفيها لدى الإنسان كما هي لدى الحيوان؛ ولكن منزلة العادات الإنسانية أسمى من غيرها لكونها (تستوعب مكوناته مقدما، وتنقسم على نحو شعوري، وتتحد في أنظمة تلبي الملامح النوعية العامة للموقف الموضوعي الذي تشكلت العادة لأجله... والعادات تدخل في جميع أنواع النشاط سواء الخارجي (مثل الحركية) والداخلي (مثل الأفعال الذهنية التلقائية). وليست العادات مجرد نتيجة، وإنما هي أيضا مطلب لنشاط الإنسان لإبداعي⁽⁶¹⁾. ولا سيما أن فهم بورس للعادة يختلف عن معناها السائد؛ إذ أخذ منحى باطيا يقارب الأفعال الذهنية التلقائية للإنسان ونشاطه الحلاق. وقد أشاد جون ديوي⁽⁶²⁾ بتصورات بورس للعادة وهو يتساءل عن العلاقة بين المبادئ الأولى (الهوية والتناقض والثالث المرفوع) في المنطق ونتائج العملية. إن رأي بورس في هذه النتائج التي تستخلص من مقدماتها هو أنها تحتوي على عادات؛ وإن كان ديوي يضيف عليها الطابع البيولوجي.

(61) الموسوعة الفلسفية، بإشراف م. روزنثال وب. يودين، تر. سمير كرم، ص. 289.

(62) سطر جون ديوي، المنطق، نظرية البحث، تر. وتمن. ونع. زكي نجيب محمود، دار المعارف،

مصر، 1960، ص. 71.

لقد شارفت سيميائياته التأويلية على الحدود الرفيعة لإشكالية تأويل السيميوريس وتخومها؛ حيث وجد بعض خلاصه في التفكير الرياضي الذي ساعده على بناء جبر للعلامات وتشبيد عدم الميتافيزيقا، وفحوى هذا الخلاص: "إنه بمجرد الوصول إلى تفسير المعاني الذي يتم على أساس قواعد عامة؛ ففي حالة تطبيق مفهوم معين على موضوع معين ستعمم النتيجة المستحصلة من هذه العملية؛ وإذا أعمل التدبر المتأني في مثل هذه المسائل، وأحاط بها من جهاتها كلها يمكن حينئذ تعميم النتيجة على المعاني العقلية كلها. تستمد السيميوريس مسوغاتها من أن الحقائق تقريبية وليست مطلقة، فالتقريب - كما يقول بورس - (هو النسيج الذي يجب أن نبني منه فلسفتنا)⁽⁶³⁾؛ وعليه فإن التأويل يضيف على سيرورة الدلالات المفتوحة خصيصة الضرورة. فهناك من الوقائع التي لا تستمد وجودها إلا من نشاط التأويل الذي يمتلك القدرة على إنتاج المعنى بفعل قوة الاستدلال.

إن ربط المنطق بعلم الاجتماع لا ينقص من قيمة جبر العلامات في نظر جون ديوي من منطلق أن وظيفة المنطق الرمزي مطالب بأن يظهر دلالات هذه العلامات ووظائفها. فالقوانين الداخلية التي تحكم العلاقات داخل جبر العلامات ذات أهمية كبيرة في البحث من حيث إنه هو جوهر المنطق. فمها كانت هذه الرموز في غدية التجريد بطرا لطبيعتها الموغلة في المحايثة إلا أنها في نهاية المطاف تترك بناء على الوظائف التي يضطلع بها جبر العلامات، وتفهم على مرتكزات المهمة التي تنجزها العمليات الرمزية.

وإذا رما القياس بين هذا الجبر المنطقي العام والجبر السيميائي الذي هو متطابق من منظور بورس فإننا استدعي النسق اللساني بوصفه علامات اعتبارية دالة على الأفكار حسب دو سوسير، ونلاحظ أن الخصيصة الجوهرية في اللغات تتجاوز الرموز الصوتية بما في ذلك الكلام؛ لأن هذه العلامات تختلف طبيعتها في أثناء عملية إقحامها في البحث عن وظيفتها التواصلية من زاوية محدداتها الاجتماعية. (ولا مناصر لنظرية في المنطق - كائنة ما كانت - من أن يكون لها رأي في هل تكون الرموز أردية معدة ترتديها المعاني التي تتمتع بوجودها العقلي المستقر، أم تكون تلك الرموز شرطا ضروريا لا يتحقق للمعاني وجود غيرها؟

(63) ينظر حامد خليل، المنطق البراهماتي عند تشارلز بورس، "مؤسس البراهماتية"، ص. 140

وبعبارة أكثر شيوعاً: أتكون للغة رداء 'للفكر' أم تكون شيئاً بغيره لا يكون 'فكر' (على إطلاق؟)⁽⁶⁴⁾. إن جبر العلامات مطالب بتقديم متصورات أخرى للعلاقة بين اللغة والفكر بناء على هذه الأسئلة التي طرحها جون ديوي حول الفائدة التي نتطلع إليها من أعمال المنطق في حياتنا العملية، وكان القصد من ورائها إبراز مثالب المنطق الرمزي الذي لم يلتفت إلى بعد الزمان وميله إلى الأحكام التقديرية دون أن يراعي خصائص الواقع العملي في علاقته مع الفكر.

إن التصور الكوسمولوجي لدى بورس ينطلق من قاعدة سيميائية تؤكد بأن الكون يمكن وصفه بأنه مجرات من العلامات العامة التي تتفرع إلى علامات خصوصية لا يمكن أن نزعماً بأننا قادرون على الإحاطة بنشاط سيموزيسها وفيصها الدلالي؛ ولهذا لا بد من صياغة منطق واصف يمكن أن يهتدي إلى بنية لعلاقات الداخلية التي تتحكم في جبر العلامات. إن طبيعة الاتصال الملازمة لحقيقة الكون واتساقه مرتبط بالمنطق الكوسمولوجية التي تسمح بتجزئة الوقائع تبعاً لانتظامها داخل النسق العام على نحو ما أشار إليه الجاحظ (ليعلم ذو العقل أنه لم يخلق الخلق سدى، ولم يترك الصور هملاً... ولم يدع شيئاً غير موسوم ونثراً غير منظوم، وسدى غير محفوظ)⁽⁶⁵⁾؛ غير أن هذا النسق الذي هو في تطور مستمر على نحو كارثي كما يفهم من مصادرات بورس ينحني النظر إلى نسقيته على أنها محكومة بأمر إلهي. ولا بد من التمييز بين أنماط الوجود؛ فهناك الوجود المجرد والوجود في عالم الأذهان والوجود في عالم الأعيان أو عالم الشيء في ذاته وعالم الظواهر.

يرى هابرماس بأن بورس في موقفه العلمي يسقط الخبرات الناتجة عن تطور العلم في اتجاه الجماعة بوصفها تجربة تكون في خدمة العنصر البشري؛ وذلك من منطلق أن هابرماس يعتقد أن العلم بالنسبة إلينا شكل من أشكال الحياة التي لا يمكن تمثيلها وإدراكها إلا بواسطة النسق السيميائي. فلإلى جانب جيرار دولودال أحد المتخصصين في فلسفة بورس وسيميائته هناك الفيلسوف الألماني كارل أوتو

(64) ينظر جون ديوي، المنطق، نظرية البحث، تر. ونص. وتبع زكي نجيب محمود، دار المعارف، مصر، 1960، ص. 83.

(65) الجاحظ، الحيوان، 109/2.

أبل وهو من أبرر شراح فلسفة بورس؛ إذ يركز كثيرا على أهمية الوظيفة الثلاثية. إن المنظور السيميائي التداولي لا يتصور وجود نسق دال ما لم تعضده خبرة إنسانية يتفاعل فيها الفردي بالاجتماعي؛، وتؤلف إطارا للمعرفة بالعالم تكون سندا للأطر التي يستند إليها محللو الخطاب؛ لأن تطور الخبرة تثري الشبكة المفهومية التي تستمد طاقتها من المخزون الدائم للمعرفة. وعليه فإن توكيد العلامة بين الحياة والعلم تصبح من المصادرات الأولى لفهم الدلالات المفتوحة. علما بأن موضوع المعرفة لا يفصل عن البعد اللساني التدولي الذي يراعي البعد التركيبي للعلامة والبعد الدلالي للواقع المدلول عليه.

إن المتصورات السيميائية لدى بورس وبخاصة ما تعلق بالسيميزيس لا يتفرد في إنتاجها عنصر واحد أو اثنان من العناصر الثلاث المشكلة للعلامة (الممثل والموضوع والمؤول). فالعلامة - حسب بورس - هي تعبير ناتج عن تفاعل العلاقات الثلاثية المشار إليها آنفا، بل إن عنصر المؤول يظل في إنتاج النشاط التأويلي إلى ما لا نهاية؛ ولعل ذلك يعد مكمنا السيميزيس إن لم يكن روحها. فالعلامة لا تقوم بدور التمثيل لشيء ما ولكن لأشياء ستظل مفتوحة.

إن سيميائيات بورس تشربت أصولها من جون لوك في تعامله مع المعرفة بما فيها المنطق على أنها نظرية في العلامات (بل إن الحقل الذي حدده يغطي جزءا مهما من الأعمال "السيمولوجيا" لـ لايبنتز وفريج وحتى لإيديولوجي نهاية القرن الثامن عشر)⁽⁶⁶⁾. لقد انتقل بورس من طور علامات الجبر في المنطق مع ديكارت وبور رويال وهوبز ولايبنتز وكوندياك إلى جبر العلامات التي تحولت إلى سيميائيات مستندة على منطق العلاقات. إن سيميائيات بورس وسطية من حيث إنها انطلقت من أسس الفلسفة النقدية، ولكنها سرعان ما انتقدت المتصورات الكانطية، وفي المقابل راعت وجه الحق في لدعاوى التجريبية ولكنها لم يبلغ بها التقدير مبلغ الشطط والتطرف.

(66) مارسيلود أسكال، الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، تر حميد لحيداني وآخرين، ص. 37.

الفصل السادس

منطق المعنى ومبدأ التصديق
نحو لغة واصفة

من الفلسفة إلى منطق العلم

لقد حمل فيتجنشتاين [1889-1951] L. Wittgenstien⁽¹⁾ سوء الفهم الفلسفي إلى إساءة استعمال اللغة العادية التي حاول أن يمنحها كل الامتياز، كما أنه تراجع عن فكرة وجود لغة مثالية، واصطنع في تحليله الكلمات التي لها معنى في اللغة العادية؛ ومن هنا حاول أن يصحح المفاهيم الفلسفية التي استعملت استعمالاً لغوياً مخطوئاً، وخاص ثورة ضد فتنة العقل بسحر اللغة؛ لكن إذا أردنا أن نتأمل خطاب الفلسفة التحليلية الذي اهتم باستعمالات اللغة اليومية فإننا نلقي نصاً واصفاً مفارقاً لهذه اللغة. وحيثما نود أن نتأمل فلسفة اللسانيات نجدها مشدودة إلى قطبي فلسفة المنطق التي تتجه إلى معالجة بعض المسائل الدقيقة وفلسفة اللغة الأنجلوسكسونية.

ظلت الرسالة المنطقية لفيتجنشتاين تمثل - في نظر بول ريكور - حزيمة مغلقة وسط بحر من الخطاب، وهذه الاستعارة تتضمن نقداً ضمنياً للنزوع الوضعي في تحليل المنطقي للغة الذي حاول أن يقدم مقاربة جديدة لمفهوم العتيق والتقليدي للحقيقة متجاوزاً الدعوى لأرسطية (مطابقة الذهن للواقع) ودعوى المنطقين الصوري والرمزي (مطابقة الفكر مع ذاته) لربط لوقائع المادية مع المتصورات المنطقية الشكلانية. إذا سلمنا بأهم القضايا التي تطرحها الرسالة المنطقية، ومنها أن العالم يتألف من مجموعة من الوقائع لا من الأشياء، ويرتبط وجوده بوجود الوقائع الذرية، وأن الفكر عبارة عن رسم منطقي لهذه الوقائع، ومن ثم يكون حد الفكر هو القضية ذات المعنى، وحد القضايا عبارة عن دالات صدق للقضايا الأولية.

لقد صاغ فيتجنشتاين الصورة العامة لدالة الصدق على النحو الآتي: [ق،

Voir Mélika Ouelbani, Wittgenstein et Kant, Le dicible et le connaissable, ed. Cérès, Tunis, (1) 1996, p.60

غ، ن (غ). ونلمس في ثنايا الرسالة المنطقية والفلسفية طرحا سيميائيا متسقا ومرتكرا على أسس رياضية ومنطقية. يقول فيتجنشتاين: (وأنا أسمى هذه العناصر "بالعلامات البسيطة"، والقضية بالقضية كاملة التحليل. والعلامات البسيطة المستخدمة في القضايا هي ما أدعوه بالأسماء. والاسم يعني (يدل على) الشيء، والشيء هو معناه (دلالته). إننا نستخدم العلامة المدركة بالحواس التي تتألف منها القضية (علامة صوتية أو مكتوبة... إلخ)، نستخدمها كما لو كانت ظلا يعكس ما يمكن أن يكون حادثا من أمور الواقع. وتفكيرنا في معنى القضية هو عبارة عن النظر في مسابقة الظل لأصله. وسأسمى العلامة التي أعبر بها عن الفكر بعلامة القضية؛ وبهذا تكون القضية هي علامة قضوية (39) من حيث مسايرتها للعالم⁽²⁾. وتكاد الفكرة الرئيسة لفلسفة فيتجنشتاين الأولى تتمركز حول ارتباط العالم بحدود اللغة.

ينبه سامي أدهم إلى أن الحقيقة الذهنية ليست حكرا (على المنطق الرمزي وعلى الوضعية المنطقية. فكثير من الفلاسفة عالج هذه الحقيقة كأفلاطون وأرسطو والقديسين المسيحيين (أنسلم، أوغسطينوس، توما الأكويني، دان سكوت...) وديكارت وهيوم وباركلي وكانط وغيرهم)⁽³⁾؛ ولكن وجد كارناب ضالته فيما يخص صدق الأحكام المنطقية الذي تحكمه المبدأ المحايث الخاص بالبناء المنطقي للحكم ومدلولات حدوده. ولا شأن لصدق الأحكام المنطقية هنا بوقائع العالم.

وتلك بعض درر المنطق الرمزي وحساب العبارات التي كانت لها نتائج طيبة في تطبيقها على المناهج العلمية. ولا سيما ما انتهى إليه فريج من أن المعنى هو نتاج ما يفهم من العبارة؛ وهكذا يكون الخطاب الفلسفي نصا غير مطابق لذاته، ويعد هيجل من الفلاسفة الأوائل - إن لم يكن الفيلسوف الأول في العصر الحديث - الذين رسموا معالم النص الواصف في أدبيات الحداثة الفلسفية التي ارتدت إلى ذاتها لكي تتأمل خطبها انطلاقا من بناء تاريخ للتفكير الفلسفي

(2) لودفيج فيتجنشتاين، رسالة منطقية فلسفية، تر. ونع. عرمي إسلام، وم. زكي نجيب محمود، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1968، صص 71 - 72.

(3) سامي أدهم، المعتقد المهيمن، المحرك والدمية، دار كتابات، لبنان، ط. 1، 2000، ص. 59.

يمارس نقدا إستيمولوجيا على فرضياته ونتائجها. بيد أن بعض الكتابات الفلسفية سواء أكان ذلك في القديم مثل أفلاطون أم في العصر الحديث مثل كيريجارد ونيشه أسسوا نصا واصفا متماهيا مع لغة النص الأدبي وملتبسا مع أساليبه.

المعنى ومبدا التصديق

دعا ليكون إلى تحرير الذهن البشري من الأوهام العالقة به حتى يتسنى لنا إقامة صرح معرفي مكين ورؤية سليمة للأشياء على حقيقتها، وقد حصرها في أربعة أوهام: أوهام الجنس البشري وأوهام الكهف وأوهام السوق وأوهام المسرح، وما يعيننا هنا في هذا المقام هو أوهام السوق ويعني بها بكون ألفاظ اللغة وتشويهاتها؛ لأن الألفاظ تنشأ عن التصورات العامة العملية، فتوضع ألفاظ لأشياء غير موجودة أو غامضة أو متناقضة وإن كنت أوهام القبيلة أو أوهام الجنس البشري أكثر انتشارا لأن مردها الطبيعة البشرية ذاتها. فمن الصعب التخلص منها.

يوحي هذا الأمر ذاته أنه يمكن التخلص من أعباء أوهام اللغة إذا قيست بذلك النبع الفياض بالأخطاء المتمثلة في أوهام المسرح نظرا لسطوة الإيمان بالسلطة الرمزية لصنمية النظريات الموروثة التي إن قمنا في نظر بكون بتقليبها لألفيا مضمونها عبارة عن اختلافات مضللة. وتلك معركة سيطلق فيتجنشتاين العنان لها لكي تتحول ضمن أولويات جماعة حلقة فيينا لتطهير الخطاب الفلسفي من أوهام الفكرين الميتافيزيقي واللاهوتي؛ وذلك وفق متصورات الوضعية المنطقية وأسسها العامة الآتية:

- 1 - الاستناد إلى المعطيات الحسية التي تعد قاعدة للمعرفة العلمية
 - 2 - نذ الميتافيزيقا وإقصائها من كل فروع المعرفة إذا توخى اباحث أن تكون هذه المعرفة ذات سند علمي.
 - 3 - تحكيم مبدأ قابلية التصديق (التحقيق) في قبول الأحكام العمية. والمعنى العلمي يكون مقبولا ودا مغزى إذا خضع لمبدأ التصديق؛ ولا يمكن الالتفات إلى العلامات التي تشير إلى كيانات تتمتع عن عنصر الملاحظة.
 - 4 - توحيد العلوم
 - 5 - إخضاع مستندات الفلسفة العلمية إلى منهج التحليل المنطقي.
- وكل ذلك من أجل تحقيق ما أسماه كارناب بـ "الإنسانية العلمية". إن يقين

الوضعية المنطقية كبير بقدرة العلم على تحسين أوصاف الشر؛ وذلك بتغيير طرائق أفكارهم وجعلها تعدي الأوهام الميتافيزيقية. فكان العلم رهانا قويا للتخلص من الرؤس والشقاء اللذين يخنقان العبد. إن الدعوة إلى تحكيم مبدأ التصديق يصب في مجرى الإستراتيجية التي رسمتها الوضعية المنطقية لتحسين حياة البشر ووضعهم المعيشي وتحرير العقول من الأوهام؛ ولكن هذا المبدأ يعد (مفهوماً برجماتياً) لمعنى الشيء المدرك، قال به الفيلسوف الأمريكي تشارلز بيرس، كما أنه يعد مذهباً إجرائياً قل به الفيزيائي الأشهر إينشتاين قبل أن تأخذ به الوضعية المنطقية. أم المصطلح ذاته فهو من صياغة فيلسوف العلم بريدمان؛ وعلى الرغم من أن مفهوم بيرس يسبق ما قال به إينشتاين بحوالي خمسة وعشرين عاماً إلا أن المذهب الإجرائي لم يؤخذ به في الفيزياء إلا بعد أن أدخله إينشتاين في نسج نظريته في النسبية... إن معيار الوضعي لمعنى "واقعي" قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالبرجماتي والمذهب الإجرائي؛ بيد أن الوضعيين - على خلاف إينشتاين وبيرس - استخدموا هذا المبدأ كسلاح رئيسي ضد كافة المذاهب والأفكار الميتافيزيقية⁽⁴⁾. إن الوضعية المنطقية كانت مصابة بـ "فوب" الميتافيزيقا، ولم تحاول أن تغير الزاوية التي تنظر منها إلى المعنى.

حاول راسل ووايتهد إرجاع الرياضيات إلى المنطق، بينما أكد فيتجنشتاين بأن القضايا الرياضية ليست تحصيلات حاصل، بل إنها قضايا لها صلة باللهوية. تشترك الرياضيات والمنطق بأنها لا تقول أي شيء عن العالم. إن الوضعية المنطقية تشكك في أن القضايا الميتافيزيقية قادرة على أن يكون لها معنى، والسبب يعود إلى أن الميتافيزيقا تفتقر إلى العلاقة مع الواقع. إن معنى القضية هو بهج التحقق من مصدقيتها.

إن القضايا الأولية التي تحدث عنها فيتجنشتاين، ولم يوضحها استلزم معيار المعنى، ولكنها في نظر إي. جي. مور كانت تقارير قائمة على الملاحظة. هل هذه القضايا الأولية هي أوصاف لحوادث طبيعية؟ يمكن التمدل على لقضايا بتراكم الحالات الإيجابية، لكن يمكن في أي لحظة لدحضها بحالة

(4) السيد بنادي، معيار الصدق والمعنى في العلوم الطبيعية والإنسانية، مدأ التحقيق عند الوضعية المنطقية، دار المعرفة الجامعة، إسكندرية، مصر، 1991، ص. 9.

جديدة. ولهذا يقول كارل بوبر إن ما يتطلب من القضايا الواقعية أن تكون قابلة للدحض، ويحدد معيارين اثنين.

المعيار الأول: وجوب القضايا أن تكون قابلة للتحقق الشامل

المعيار الثاني: وجوب القضايا أن تكون قابلة للدحض الشامل بوصفها معايير للمعنى.

المعيار الأضعف: أن تكون القضايا قابلة إلى حد ما للتدليس أو الدحض بالملاحظة.

جاءت نظرية الدحض بديلاً لمبدأ التصديق الذي قالت به جماعة حلقة فيينا علماً بأن كارل بوبر لم ينضم انضماماً رسمياً لحلقة فيينا؛ بيد أن كون Kuhn يرى أن كلا المبدأين التصديقي والدحض يستحيل منطقياً. ولا غرو أن يدعن (فتجنشتين - على نحو مفاجئ - إلى هذه التهمة، فهو يقول في نهاية كتابه الـ "Tractatus" إن قضايتي توضيحية بالمعنى التالي: من يفهمها سيكتشف في نهاية المطاف أنها هراء عندما يصعد عبرها، فيها، أو فوقها (إن صح التعبير يتعين عليه أن يقذف بالسسم بعد أن يصعد عليه). عليه أن يتجاوز هذه القضايا: حينئذ سيري العالم بشكل صحيح. غير أن هذه محاولة غير مجدية لمسك العصا من الوسط، بالطبع هناك هراء أكثر قدرة على الإيحاء من غيره، لكن هذا لا يهبه أية قدرات منطقية، وإذا تسنى للمرء أن يذهب إلى أن مثل هذا الهراء لا يقرر شيئاً، فإنه لن يتسنى له أن يذهب إلى القول بأن ما يقرره صحيح⁽⁵⁾. يفند فتجنشتاين أي اعتقاد قد يرى بأن الهذيان المتلاحم قد يكون يتوافر على حد أدنى من المنطق.

أليس الاعتقاد الذي راهنت عليه الوضعية المنطقية ضرباً من الوهم في حد ذاته؟! أليست اللغة عاملاً من العوامل التي تسهم في توريثنا المتصورات القديمة المخطوطة التي تعلق بذهن الفرد؟ إن اللغة تمارس التضليل على من يتكلمها، وإن حاول أن يروعها على نحو ما فعل الفنانون والأدباء والنقاد والفلاسفة إلا أنها ظلت تخدعهم طوال حياتهم. فبعض الناس (يتخيل أنه يعرف الأشياء في حين أنه لا يعرفها بالفعل، فكل ما لديه معرفة لفظية محضه، ليست مستمدة من دراسة

(5) إي. حي. مور، تاريخ حركة اوضعية المنطقة، ضمن كتاب "كيف يرى الوصعيون الفلسفة؟"، الدار الجماهيرية للنشر وتوزيع والإعلان، ودار الآفاق الجديدة، ج. 1، 1994، ص. 38.

الأشياء نفسها، وينبغي التمييز بين تلك الحكمة اللفظية المخالصة وبين معرفة الأشياء ذاتها. فأصل الأخطاء التي تحمل اسم "أوهام السوق" هو استدال الحكمة اللفظية المحضة بالمعرفة الحقة⁽⁶⁾. لا يمكن التخلص من هذه الأوهام إلا بإحداث قصيدة جذرية مع الماضي، وبناء لغة علمية جديدة قوامها منطق الاستكشاف والإبداع في المعرفة العلمية. وكل ذلك يتحقق بامتلاك المنهج، وأن هذا المنهج يتمثل في الاستقراء بدل القياس الأرسطي.

تضطلع السيميائيات بهذه المهمة في نظر موريس الذي ينسب إليها وظيفة مزدوجة لكونها تتمتع بأهمية مركزية في القيام بتوحيد العلوم. فبما أن كل معرفة علمية لا يمكن التعبير عن نتائجها إلا بالعلامات، وأن السيميائيات في جوهرها لغة قادرة على وصف كل الأنساق السيميائية الدالة، وتستطيع أن تقدم حلولاً للأشكال التعبيرية للخطاب العدمي؛ ولهذا توصف بأنها بمثابة الأركان الذي راهن عليه المنطق؛ ومن ثم تتضح لدينا مطابقة السيميائيات للمنطق لدى ش. س. بورس.

يتجه هذا التصور إلى تحكيم النزعة العقلية التي لا تعي بالغرض الذي تنشده السيميائيات في البحث عن نظرية المعنى التي لا تغفل الاعتبارات التجريبية الساعية إلى استكشاف جميع المعطيات التي يمكن استثمارها في فهم طبيعة سيرورة الأنساق السيميائية الدالة وهي قطب الرحي في التفكير السيميائي؛ ولهذا نقف على مسألة عودة ش. س. بورس إلى المفردات الفلسفية التي تضمنها خطاب لوك وبخاصة على الصعيد الاصطلاحي؛ ولا سيما مسألة التماهي والتطبيق بين السيميائيات والمنطق؛ ولا غرو أن كثيراً من القضايا المنطقية والفلسفية تندرج في السيميائيات التي تكاد تمتد إلى النصوص الفلسفية والمنطقية والرياضياتية للايبنز وكذا فريج وحتى ما خففه الإيديولوجيون في نهاية القرن الثامن عشر. إن الرغبة في خلق لغة فلسفية تتسم بالشمول لاحت في الأفق مع ديكارت منذ أن فتح الباب على مصرعيه ليلجحه كثير من الفلاسفة الذين أنوا من بعده ومن أبرزهم لايبنز.

كانت الرياضيات هي النموذج النسقي الأعلى لهذه اللغة المتوخاة لم تكتمل في المنهج الهندسي الذي رسمه ديكارت، وتحمس له كثيراً اسبينوزا؛ حيث بدا

(6) ألكسندر ماكوفسكي، تاريخ علم المنطق، تر. نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي، ص. 336.

النقص على جبر لعلامات التي كانت تتوسل لوضع معادلات رياضية صارمة لكل أنماط المكان وأشكاله الهندسية. ومن هنا سنلمى الوضعية المنطقية تراهر على هذه الغايات الساميات من أجل تأكيد معيار المعنى من مطلق الجبر السيميائي الذي يقوم على قاعدة "اسقية التركيبية المفتوحة للتصديق"، وهي تتماهي مع مقولة السيميوزيس البورسية التي تفضي إلى الدلالات المفتوحة وفق منظور النسقية السيميائية المحكمة.

ولا عرو أن يسند موريس إلى السيميائيات مشروع توحيد العلوم لذي كان من أكبر انشغالات الفكر الوضعي المنطقي؛ حيث تأسس في براغ عام 1934 المشروع الكبير لموسوعة العلم الموحد⁽⁷⁾، وكان يديره كل من ر. نبرات R. Neurath وكارناب وموريس؛ ولقد كتب هذا الأخير بعد أربع سنوات من ذلك بحته الشهير "أسس نظرية العلامات" 1938 لذي أدمج فيه السيميائيات بالتداوليات مستوحيا أفكاره من سيميائيات بورس التي أساء فهمها حسب دولودال⁽⁸⁾. إن نزعة توحيد العلم جاءت استجابة لدعوى بدن حلقة بين 'المهم لعلمي للعالم' 1929. وحاول موريس أن يجمع بين السيميائيات ودعاوى لوضعية المنطقية بقاء على أسس الأفكار الاجتماعية والسلوكية socio-behavioriste؛ إذ ألفينا كارناب يأخذ بتقسيمه الثلاثي للسيميائيات لاحقا حينما التحق بإحدى الجامعات الأمريكية للتدريس بها.

إن نتائج العلوم يتم التعبير عنها صم صياغات سيميائية قوامها القدرة على امتلاك لغة واصفة بإمكانها أن تمتد إلى جميع الأنساق السيميائية الدالة لكي تسهم في وضع بعض الحلول لمشكلاتها العلمية وفق الأرغاون السيميائي الذي يفترض بدهة إعادة تجديد المنطق وتحصيب شبكته المفهومية وآلياته الإجرائية. إن معطيات الخبرة بوصفها موضوعا للمعرفة تكون قابلة لمبدأ التصديق المباشر الذي يقدمه الإدراك الحسي مثلا حيال الوقائع العيانية التي تباشرها المشاهدة المباشرة، وهناك التصديق غير المباشر لذي يعد لب المعرفة العلمية وصلب التحليل المنطقي كما

(7) Céline Poisson, Charles Morris et le New Bauhaus. La théorie des signes et la pratique du design, in Recherches sémiotiques. RS.SI, vol. 21, '2001) N° 1-2-3, p. 129.

Gérard Deledalle, À la source de la semiotique triadique, in Recherches semiotiques, (8) RS SI, vol 21 '2001) N° 1-2-3, pp. 211, 212.

أن هناك تصديقا قويا وتصديقا ضعيفا. إن مبدأ التصديق يعد شرطا أساسا وكافيا لمعيار المعنى، كما أنه تعبير عن إمكانات النسق السيميائي بوصفه تركيبا (نحوا) منطقيًا كما انتهى إليه كارناب في نهاية مطاف مساره الفكري. وعليه فالمعنى مشروط بالقواعد التي تعرف به الحدود بما تتيحها اللغة الواصفة على أنها سيرورة سيميائية منطقية تتطلب جهدا كبيرا لفحص مدى إمكانية تحقيقها.

ومهما يكن فإن معطيات الحرة يتم التعامل معها على أنها علامات تدفع البحث العلمي إلى توخي اليقين في التصديق؛ وعليه فالسيميائيات بما أنها "علم العلامات" ستساعد على استخدام مبدأ التصديق طلبا لتحقيق معيار المعنى وحينما يحل تصديق العبارة ويفسر فإنما نكون قد حللنا لمعنى ونفسره؛ ولا سيما ما تعلق بموضوع العلامات الطبيعية أو العلامات القرينية باصطلاح بورس التي يسعى العلم إلى استكشاف قوانينها أو عليتها إن احتكما إلى المنطق الوضعي وامتداداته التي تعود إلى جون ستيوارت مل الذي حاجج منطق هاملتون محتاجة بطيفة. وإذا كان الأمر كذلك فأين موقع السيميائيات من العلم؟ وما هو دوره في هذا المجال؟ (إن تأويلا أكثر تسامحا لاقتراح موريس يكمن في مواجهة السيميوطيقا باعتبارها مطابقة لعلم مناهج العلوم أو للعلم الواصف. وكيفما كن الأمر وإن السيميولوجيا عند غريماس، كما عند موريس قد تفقدها تميزها باعتبارها "علما للدلائل" ⁽⁹⁾). إن هذا الهاجس مشروع ووجيه؛ ولكن قد نلتزم له بعض المقارنة إذ تأملنا سيميائيات بورس تأملا دقيقا، وفحصناها فحصا شاملا.

من المعلوم أن تارمكي (قد حدد للغات الشكلية، مفهوم الصدق تحديدا دقيقا. وما يريد دايقيدسن إبرازه هو أ) إمكانية تعريف مماثل للغات الطبيعية. (ب) ملائمة مثل هذا التعريف لوصف معاني التعبيرات اللغوية. إن العكرة المركزية هي أن إعطاء معنى لجملة ما هو، حزئيا على الأقل، تعيين شروط صدقها إلا أنه نظرا لعدم وجود عدد محدود من الجمل التي يستطيع أن ينلفظ بها أو يفهمها ذلك الذي يتحدث لغة ما، فإن تعيين شروط الصدق قد لا يكمن في لائحة من الجمل واحدة بعد أخرى. - هذه اللائحة ستكون لا نهائية، وبالتالي مستحيلة. ينبغي لهذا التعيين أن يتم بواسطة تعريف متواتر (recursive أو تكراري) للصدق.

(9) مارسيلود أسكال، الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، تر. حمد لحمداني وأخري، ص. 34.

سيسمح مثل هذا التعريف - مضافا إلى قواعد اللغة التركيبية والدلالية - بتفسير كيفية اشتقاق معاني الجمل (أي شروط الصدق) من معاني عناصر مميزة (منتمية إلى مخزون محدود) وهي عناصر تكون المعاني الآتفة الذكر⁽¹⁰⁾.

لم يعد مفهوم النص في منظور السيميائيات ذلك التسجيل المادي للاستعمال اللغوي، وإنما النص ما تضمن شرط النسقية السيميائية الدالة؛ وإذا وقفنا على التحليل للنصوص لألفينا بارت يحلل اللباس والموضة والطعام والأثاث والسيارات والصورة الفوتوغرافية وبلاغة الإشهار كما تعامل هوزيف كورتاس مع الموكب الجنائزي والإضراب على أنها نصوص ذاتة وبؤرتها المعنى. وعليه فإن النص (هو مذياع يلتقط عدة برامج في آن معا، لكنه يقدمها بطريقة شبه منسجمة)⁽¹¹⁾. وهذا التعريف يحيل على مبدأ المحايثة الذي تحتكم إليه الأنساق السيميائية الدالة بوصفها قواعد بإمكانها حسب فيتجنشتاين أن (نمنح اللغة الحرية الضرورية)⁽¹²⁾. وهذه الحرية ستساعد على بناء لغة واصفة بدأت طلائعها تلوح في أفق التصورات الاسمية والرمزية مع هوبز ولايبنتز.

اللغة الواصفة:

استلهم علماء اللسانيات مفهوم اللغة الواصفة⁽¹³⁾ من بحوث الماطقة؛ ولا سيما من أعضاء حلقة فيينا مثل كارناب؛ وكذلك العالم الرياضي والمنطقي ألفريد تارسكي A.Tarski أحد أبرز أعضاء مدرسة "لفوف - وارسو"؛ حيث نلفي أن هذا المفهوم الذي اصطنعه كارناب في كتاب "التركيب المنطقي للغة" قد استمد من الرياضيات الواصفة (هيلبرت Hilbert) التي هي لغة منطقية منوطة بتحليل

(10) المرجع السابق، صص. 43 و44.

(11) جان جاك لوسركل، فنكشتاين، الأسطورة والفلسفة، تر. أسامة الحاح، دار المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط. 1، 1998، ص. 34.

(12) Jacques Bouveresse, La Parole malheureuse, De l'alchimie linguistique à la grammaire philosophique, éd. Minuit, Paris, 1971, p. 9.

(13) لقد ظهرت أول مرة مع تارسكي باللغة البولونية (1931) وموريس في كتاب "أسس نظرية العلامات" 1938، ولدى كارناب في "المعنى والضرورة" عام 1943، ولدى يامسليف في "مقدمات في نظرية اللغة" عام 1943، ولم يكتب لها النحاح في الظهور بافرسية إلا عام 1960. ينظر جوزف ري - ديوف، المتألفة: مقدمات ومعطيات أولية، تر. م. إ. ق، (م. س.)، ص. 67.

الرياضيات وتطهير الحساب من وجود أي تناقض فيه؛ وذلك بإقامة قواعد للبنى التركيبية الداخلية المترابطة؛ وكذلك كان للمنطق الواصف (أدجوكيفيتش Adjukiewicz) أثره في تفكير كارناب. إن جوهر هذه الإشكالية يتمثل في بعدين اثنين اللغة الموضوع (langue-objet) تصور كارناب واللغة ذات موضوع بتصور راسل. وهي تختلف عن اللغة الموضوعية (langage d'objet). إن اللغة الواصفة حسب موريس وياكيسون تشمل جميع الخطابات بما في ذلك الخطابين العادي والشعري. وعليه كان بارت يعرف النقد بأنه خطاب على خطاب أو هو لغة واصفة بتعبير المنطقة⁽¹⁴⁾. إنه لغة التوحيدي كلام على كلام.

لقد حاول هاريس أن يصطنعه في اللسانيات التوزيعية مما بدا غير واضح من الوجهة الأولى في البيئة اللسانية. إن كلا من فريج وهيلبرت لم يشايح تصورات منطق بول الذي كان يراه متضمن في الرياضيات؛ بيد أن هذه الآراء ستتلور في مبادئ الرياضيات التي انكب على تأليفها راسل ووايتهيد. وسرعان ما تجلت مصادر اللغة الواصفة⁽¹⁵⁾ في اتجاهها التركيبي مع كارناب والدالي مع قارسكي والتداولي مع ش. موريس. ومن هذا المنطق رسم موريس في "أسس نظرية العلامات" هذه الأبعاد الثلاثة انطلاقاً من سيميائيات بورس؛ وهكذا يتبين لنا أن ملاحظات دولودال كانت قريبة من الوحاحة حينما لاحظ أن موريس لم يقترب من فهم عالم بورس فهم يدفعه إلى اختزال بورس احتزالاً مخلاً؛ ولكن على الرغم من ذلك أن موريس قد فتح كوة ليتسلل منها شعاع التداوليات المعاصرة. يعيد الباحثون⁽¹⁶⁾ اللغة الواصفة إلى تقاليد البحوث القديمة لدى المدرسة الهندية؛ وبخاصة لدى نبيها اللعوي الأول بانيني Panini وشارحه باتانجالي Patañjali؛ حيث ميز بانيني بين اللغة التقريرية واللغة الواصفة؛ ثم أشار بارتريهاري Barthrihari إلى وحد وحدة لسانية تتسم بالتجريد. ولكن ما هو مشير للعجب أن إشكالية اللغة الواصفة تكاد تغيب في تفكير أفلاطون وأرسطو؛ ولا نقف على حضور لها إلا مع طلائع النزعة الاسمية التي وردت في مؤلف

R. Barthes, Essais critiques, Paris, éd. Seuil, 1964, p. 255.

(14)

(15) جوزف دي - ديوف، المتألفة: مقدمات ومعطيات أولية، تر. م. إ. ق، مجلة العرب والفكر

العلمي، ع. 8، 1989، مركز الإنماء القومي، لبنان، ص. 66.

(16) المرجع السابق، ص. 65.

"إيساغوجي" أو المدخل لفورقوريوس Porphyre نظرا لأن الفلسفة السكولائية في العصر الوسيط أفردت منزلة خاصة للغة؛ إذ فرق بين الكلمات التي لها دلالة تقريرية والكلمات التي ليست لها دلالة تقريرية من منطلق الفرضيتين الشكلية والمادية؛ وكان لا بد من انتظار اسمية أوكام بنصلها الشهير لوضع حد لهذا الفرق بين الفرضيتين. قلما كان للنحاة في الغرب سهم في تأملات إشكالية اللغة الواصفة؛ حيث ظلت وقفا على المناطق ولا سيما في العصور القديمة والوسطى. إن وصف العلاقات بين الموضوع والمحمول أو بين لمسند إليه والمدلول كانت تضطلع بها صيغ الوجود والفهم والعلامة والتدليل؛ وليس صيغ التعبير عن مدلول العلامة بالعلامة نفسها.

إن اللغة الواصفة من الوجهة السيميائية هي علامة تتحدث عن علامة من جنسها. فهي علامات الكلام - الموضوع؛ ولهذا سعى المنطق الموصوف باللوجستيك لدى فريج وغيره إلى وضع قواعد لنسق سيميائي واصف سرعان ما بدأت ملامحه ومعالمه في لاكتمال لتضحى نظرية في اللغة الواصفة؛ ولا سيما مع مؤلف كارناب "التركيب المنطقي للغة". وحينما ابتليت الرياضيات بأزمة اليقين كانت في الواقع أزمة لغة واصفة بالأساس. إننا لا نلغي اهتماما لدى المساطقة بسيميائيات اللغة الواصفة لكونها صعبة المنال وعصية على الانتظام في النظرية اللسانية؛ ذلك أنها لا تكاد ترح اللغة - الموضوع، ولا تعرف موضوعا غيره حسب كارناب. ولهذا فإن غناها بد ولا سيما في مجال الرياضيات والمنطق. أحست جماعة حلقة فيينا⁽¹⁷⁾ بضرورة التمييز بين اللغة التي يتكلم بها البشر

(17) مجموعة من الفلاسفة وعلماء الرياضيات من أمثال، موريس شلك وكارناب وأوتونوبوراث وهربرت فايجل وفريدريك وايزمان وفكتور كرافت وإدجر رابلس وهاس هان وفيليب فرايك وكورت كودل، فعرفوا بتيار الوصعية المنطقية؛ حيث رفضوا رفضا كليا كل ما يتصل باميتافيزيقا، وانتصروا لمنهج العلمي، وقد تأسس هذا الاتجاه في بداية العقد الثالث من القرن العشرين على يد مورس شلك الذي كان أستاذا للفلسفة في جامعة فيينا. فقد أصدرت الحلقة بيانا عام 1929 أبرزت فيه متركزاتها المعرفية ومتصوراتها الفلسفية، كما أنها اعترفت بدينها لعلاسة وعلماء سابقين نذكر على سبيل المثال منهم، كونت وهيوم وماخ وبرنكاري وآشتاين ولينتر وفريجه ورسل وميتجشتاين وبيانو ومركس لمنهجه العلمي في لتاريخ وغيرهم. إن أعضاء الحلقة لم يلقوا ترحابا كبيرا من قبل السياسيين، بل كانوا يظنون إليهم نظرة حذر وعداء حتى إن مؤسسها اغتيل على يد أحد الطلبة المخبولين في أثناء دخوله إلى الجامعة.

وللغة التي نتحدث عن لغتهم؛ حيث أطلق عليها مصطلح اللغة الواصفة التي جلاها. وقد وقفت عليها النظريات المنطقية⁽¹⁸⁾ لدى كارناب و تارسكي أو Adjukiewicz كما أسلعنا الإشارة - من منطلق أن اللغة أصبحت تشكل مركز التفكير الفلسفي المعاصر؛ على الرغم من أن هذه الحلقة لم تسع إلى التوحيد بين الفلسفة والعلم، ولكنها اعتقدت بأن الفعل الفلسفي من شأنه تطوير البحث العلمي؛ ولا سيما أنهم شنوا حملة شعواء على كل ما له صلة بالميثافيزيقا لأنها تفرق التفكير في أخطاء منطقية جسيمة، لم تسلم منها حتى اللسانيات المعاصرة وتاليا السيميائيات السوسيرية كما ذهب إلى ذلك دريدا. هل بقي للفلسفة - إذن - مجال تستطيع أن تنتج فيه نص واصفا ليس فيه آثار سلبية لـ "هراء" اللغة وتضليلها؟

بدأت تذيب الأفكار الرضعية المنطقية في إنجلترا وأمريكا تحت اسم الفلسفة التحليلية، وكان عمل فتجنشتاين منكبا على مدارس منطق اللغة، وضرورة بناء لغة "متعالية" قادرة على تجاوز أعباء اللغة الطبيعية وآثارها السلبية في الطرائق السليمة للفكر؛ بيد أن هذا الحلم الذي كان ينشده فتجنشتاين نفسه والتيار الرضعي اللغوي معه صار يحول بين هذه اللغة التي تضلل العقول وتشيد لغة تصور جديد تستطيع الفلسفة أن تفهم المقاصد الكبرى لمنطق اللغة وبخاصة أن الفلسفة حسب الطرح الرضعي المنطقي - تسعى لأن تكون ذات جدوى؛ وهذه الحدود يحصرها فتجنشتاين في قضايا العلم الطبيعي؛ ومرد ذلك لأنه حاول أن يجمع بين ما سعت إليه الرضعية المنطقية الجديدة وفلسفة اللغة العادية.

اللغة الواصفة والحقيقة: اعتراضات

انتقد جاك لاكان نظرية تارسكي الدالية التي كنت تراهن على قدرة اللغة الواصفة في إثبات صحة قصايا اللغة - الموضوع التي هي "لغة الأشياء بتعبير موريس. (وبتطبيق خصائص اللغة المنطقية على أي خطاب كان، يسهل على لاكان أن يثبت بأنها غير ملائمة وعديمة التأثير. ليست [اللغة الواصفة] خطابا

Voir F. Latraverse, Fondements de la théorie des signes de C. W. Morris: présentation, in (18) Recherches sémiotiques, R.S.S.I., vol. 21 (2001) N° 1-2-3, p. 18.

حقيقيا حول اللغة. وإذا بدا أنها تؤدي أحيانا هذه الوظيفة الصالحة للإثبات التي تقرر بطريقة غير مباشرة نظام العالم، فإنها قبل كل شيء خطب حر حول اللغة⁽¹⁹⁾. والواقع أن لا كان لم يكن الوحيد الذي رفض دعوى اللغة الواصفة فقد سبقه كل من فيتغنشتاين وهيدجر.

يرصد البحث العلمي والفلسفي حول الألسن على الدوام إنتاج ما يسمى باللغة الواصفة التي تتخذ في نظر هيدجر شكلا من أشكال الميتافيزيقا. ولكن هيدجر سيصطدم بهذه المسألة في أثناء مقاربتة لشعر هيدلر من منطلق أن الفلسفة العلمية تعمل جاهدة على إنتاج "الكلام الأعلى" الذي يفهم نفسه بنفسه بما يشبه (اللسانيات الواصفة التي هي ميتافيزيقا التقنية العالمية للألسن جمعاء ضمن أداة واحدة)⁽²⁰⁾. ولكن وضع أنحاء للألسن وعلومها لا يتم إلا في ظل لغة واصفة. ولا بد من التنبيه إلى الالتباس الحاصل من الخلط بين ما يطرحه المنطق والرياضيات في مقارنة الحقيقة على أساس شكلاني وتجريبي وما تطرحه اللسانيات على الأسس السابقة يضاف إليها العامل الذاتي.

وفي هذا الإطار يشير فيتغنشتاين⁽²¹⁾ إلى أنه حينما نتكلم عن لسان اللغة سواء أكانت كلمات أم جمل؛ ينبغي أن نتحدث عن اللغة اليومية. إن هذه اللغة حصل لها بعض التضخم فأنى لنا أن نطمع في بناء لغة أخرى تتكلم عنها؟ وهذه الطبيعة لا يمكن تجاوزها تجوزا يسيرا؛ لأنها ستعترض سبيله في الحديث عن إشكالية "ألعاب اللغة". إن الحكم على حقيقة العبارة حسب قارسكي يعود إلى مطابقتها مع الواقع؛ ولهذا ينبغي النفاذ إلى هذا الواقع حتى يتسنى لنا أن نضعه في السياق العام للغة المنطقية.

إن هذا الاعتراض على وجود لغة واصفة من قبل فيتغنشتاين وهيدجر ولا كان يبدو غريبا بعض الغرابة؛ لأن اللسانيات الواصفة في حديثها عن اللغات الطبيعية أصبحت لا غنى عنها. وإن كان الأمر ليس باليسير أن تتلفظ اللغة الواصفة بالحقيقة حول اللغة التي هي مدار موضوعها وبحثها؛ ولعل تعدد

(19) جوزف ري - دوف، المناقشة: مقدمات ومعطيات أولية، تر. م. إ. ق، (م. س.)، ص. 72

Heidegger, Acheminement vers la parole, trad. J. Beaufret, W. Brokmeier, F. Fédier, Paris, (20) éd. Gallimard, 1981, pp. 144-145

Wittgenstein, Investigations philosophiques, Paris, éd. Gallimard, 1961, p. 148 (21)

نظرياتها واتجاهاتها لا يسمح بتحقيق مثل هذا الطموح تحقيقاً سريعاً. على الرغم من أن الدراسة العلمية والفلسفية للغات لا تستطيع أن تلغي حقيقة التجربة حول الكلام، كما أن اعتراض لاكان على اللغة الواصفة سرعان ما بدأ في لتراجع عن رفضه لها؛ إذ أقر بأن تناول اللغة لا يتم خارج اللغة.

لقد سعى ميشال أريفي⁽²²⁾ إلى رفع اللبس عن هذه المسألة باقتراح بأنه لا توجد لغة واصفة في اللسان وليس في اللغة بعامة، كما أن رفض لاكان لها منات من إشكالية التحليل النفسي للكبت. فالدال لديه يعد موضوع الكبت الأصلي. وفي كل الأحوال أن رفض لاكان يعود إلى الاضطراب الذي يحدثه هذا المفهوم في داخل شبكته المفهومية. وفي المقابل إنه إذا كان من الممكن الانطلاق من متصورات موريس وتنفيذ برنامجه إلا أن المسألة ستكون ميسورة من الناحية التركيبية والدلالية، وعسيرة من الناحية التداولية.

ضلال اللغة وأوهام الميتافيزيقا

إنها تضيف المعنى على العلامات التي تؤلف القضايا. وإن كان الإنسان غالباً ما يحالفه الفشل في إنتاج قضايا مشبعة بالمعاني؛ لأنه لا يستطيع أن يتحرر من ضلال اللغة وأوهام الميتافيزيقا. فالنص الواصف من هذا المنظور عمل يصعب إنجازه إن لم يكن أمراً أشبه بالمستحيلات في ظل معطيات اللغات الطبيعية. ولكن هل اللغة الواصفة ترقى إلى منزلة المنطق الواصف والرياضيات الواصفة؟ وهل يمكن أن نتحدث عن التركيب والدلالة والتداول التي أشار إليها موريس بوصفها لغات واصفة أم أنها مجرد محتوياتها؟ أليس من الخطورة بمكان أن نرهن اللغة الواصفة باللغة - الموضوع التي ندرسها؟ بما أن هاتين المعرفتين الواصفتين تعبران عن لغة صطناعية لا محالة فإنها تختلف عن لغة واصفة تتحدث عن اللغة الموضوع، وهي لغة تنتسب إلى اللغات الطبيعية التي يشترك فيها المنطق الواصف والرياضيات الواصفة من حيث تتمثل مهمات الخطاب الطبيعي الذي تحدث عنه غريماس - أيضاً - في الاضطلاع بتحليل اللغة الواصفة.

Michel Arrivé, Linguistique et psychanalyse. Freud, Saussure, Hjelmslev, Lacan et les (22) autres, Paris, éd. Méridiens-Klincksneck, 1986, pp. 164-165.

تبنت لسانيات يامسليف هذا المصطلح، وكذلك اللسانيات التوزيعية على يد هاريس التي كانت أكثر كفاية لكونها كانت تشتغل على المعطيات الافتراضية للجمل بخلاف اللسانيات التوليدية التي لا تنسجم مع دراسة اللغة الواصفة لكونها تتركز دوماً على مفهوم المقبولة⁽²³⁾. فاللسانيات الواصفة تماثل وطيفة المصطلح الرمزي؛ لأنها انكبت على وصف جميع الألسن وصفا موضوعيا وعلميا قادها في النهاية إلى وضع قواعد عامة لجميع اللغات الطبيعية التي يتحدثها ابشر مما جعلها ترسم باللسانيات العامة. ولكنها لم تفض إلى حل مشكلات تعدد اللغات الواصفة لكونها متعددة بتعدد اللغات.

ظلت الدلالات بما فيها الدلالات التحويلية لا تميز إلا قليلا في أبنيتها النظرية والتطبيقية بين اللسان واللسان الواصفة. (إن منهجية وصف اللغات الطبيعية متعددة أيضا، وثمة نظريات عديدة تتعايش، مستندة كل منها إلى مقدمات منطقية مختلفة وإلى مصطلح مبتكر جزئيا؛ ولذلك، فنحن، مضطرون للاعتراف بتعدد [اللغات الواصفة]، تارة بسبب تعدد اللغات وطورا بسبب تعدد النظريات اللغوية⁽²⁴⁾. فاللغة لها من القدرات الخلاقة التي تمكنها من احتواء عالم الأشياء وتجاوزه عن طريق العلامة لكونها أداء غير متناه بأدوات متناهية. إن الكفايات اللسانية لها من الإمكانيات غير المحدودة ما تنتج به الجمل المستقيمة والمقبولة حول العالم وفق المبدأ النحوي العام؛ بينما تنتج كفاية اللسانيات الواصفة عبارات مقبولة حول اللغة، وهي التي تمتحن مدى الاستقامة والمحال لهذه الجمل حول اعالم؛ ولهذا لا يمكن التقليل من دورها في فهم آليات اللغة الواصفة.

يرى الأمدي (أن الأسماء وإن كانت مركبة من الحروف المتناهية فلا يلزم أن تكون متناهية)⁽²⁵⁾، وكذلك كان يذهب الشيخ ابن سينا المذهب نفسه عندما تعرض إلى مفهوم الدلالة من منظور سيميائي، وبخاصة مسألة الخط أو الكتابة؛ حيث اهتدى الإنسان إلى الأبجدية (...موجد الأخف في ذلك أن يقصد إلى الحروف الأولى القليلة العدد فيوضع لها أشكال فيكون حفظها مغنيا عما سلف

(23) ينظر جوزف ري - دبوب، المتالفة: مقدمات ومعطيات أولية، تر. م. إ. ق، (م. م)، ص. 69.

(24) المرجع السابق، ص. 68.

(25) الإحكام في أصول الأحكام 26/1.

ذكره. لأنها إذا حفظت بتأليفها رقما تأليف الحروف لفظا، فصارت الكتابة بهذا السبب دليلا على الألفاظ أولا⁽²⁶⁾. وهذه الخصيصة تسمح للغة أن تتحدث عن نفسها بلغة واصفة.

لم يمانع هاريس من وجود لغة واصفة تضطلع بوظيفة الوصف عن طريق المواد التي تتضمنها اللغة/الموضوع؛ إذ تكتسي العناصر اللغوية الواصفة أهمية داخل اللغات الطبيعية. الأمر الذي دفع بنفينست إلى الإقرار بأن اللغة الواصفة لغة نحوية، من الضروري - إذا سلما بذلك - أن تكون مقولاتها ومفاهيمها على درجة من التعالي بالقياس إلى اللغات الطبيعية. وإذا أبنا إلى تارسكي لوجدنا نظريته (القائلة: إن مفهوم الحقيقة المتعلق بنظام معين لا يمكن أن يقعد داخل هذا النظام)⁽²⁷⁾ أكثر ارتباطا بنظرية غودل. إذ قارنا بين المنطق الواصف والرياضيات الواصفة من جهة واللغة الواصفة فإن اللغة الواصفة للمنطق والرياضيات أقل التباسا من اللغة الطبيعية. على الرغم من أن يامسليف يرى أن السيميائيات الواصفة حسب طبيعتها الإجمالي والمعجمي هي سيميائيات علمية لا تكاد تختلف عن السيميائيات المنطقية.

إن هذا المسعى يلبي طموح تشارلز موريس الذي كان يعتقد بأن أي معرفة جديدة تقتضي بالضرورة معجما أو لغة خاصة من المفاهيم تنجسد على وجه الخصوص في المستوى الذي تكون فيه العلاقة قائمة ما بين العلامات ذاتها، ويطلق عليها اسم السيميائيات التركيبية. وفي هذا السياق كان عمل يامسليف يهدف إلى اعتبار اللغة الواصفة إنجازا سيميائيا قابلا لأن يكون منظومة من الأنساق والقضايا؛ بحيث تتجاوز إطار اللغات الطبيعية ليمتد إلى ترتيبها على أساس نظرية المجموعات من الناحية المنطقية.

تتكون عناصر المجموعات من نسق من العلامات والرموز والعبارات التي يندرج بعضها في بعض من مثل الصيغة الآتية: $n \subset n+1 \subset n+2 \subset n+p$ ؛ إذ تحتوي اللغة الواصفة على (عناصر اللغة وعناصر أخرى خاصة بها مسماة "متغيرات عليا"، ويعبر عن العلاقات بين مختلف اللغات بعبارات التضمين مرفقة

(26) الشفاء، في العبارة، ص. 5.

(27) ينظر جوزف ري - ديوف، المتألفة: مقدمات ومعطيات أولية، تر. م. - ق، (م. س.)، ص. 67.

بفعل الكينونة⁽²⁸⁾. فإذا كانت السيميائيات تخضع إلى بنى المجموعات إلا أنها ليست بتضمينات (فالمجموعات المؤلفة عناصرها من جمل أو علامات، تعني بعضها بعضاً؛ لكنها لا تندرج ببعضها بعضاً. هناك علاقة تطابق جزئي (أحد المستويين) بين اللغات: فمضمون لغة $n+1$ هو لغة n ، وينضمّن لغة $n+2$ هر لغة $n+1$ ، إلخ. بتعبير آخر، في المنطق، يشتغل على علاقات تصميم مجموعات من العلامات، وفي السيميائي، يشتغل على علاقات تطابق بين مجموعة علامات ومجموعة مدلولات للغتين مختلفتين⁽²⁹⁾. ومن هنا تتجلى أهمية لسيميائيات التداولية في مقارنة اللغة الواصفة من زاوية الأبعاد التي كان أشار إليها موريس⁽³⁰⁾ (التركيب والدلالة والتداول)؛ حيث تكون هذه المباحث تحت إمرة السيميائيات العامة لعلها تصل إلى بناء تصور أنموذجي لحصر أبعاد اللغة الواصفة.

هل في الإمكان تصور لغة واصفة لها فرضيات قابلة لأن تتحول إلى أوليات على غرار ما هو عليه العلم؟ ففي الواقع سعى المناطق الجدد إلى تطبيق آليات الاستنباط من أجل صورة اللغة بوصفها جبراً خاصاً، بعد أن يتم التمييز بين اللغة الواصفة ولغة التمثيل⁽³¹⁾. أي بين النسق اللغوي الذي يشترط لصحته الامتثال لمبدأ النحوية من جهة ونسق العالم من جهة أخرى، الذي يجعل المنطقي يستعين بلغة واصفة لتوكيد شروط صحة الوقائع التي تعرض له في شكل قضايا وعبارات؛ علماً بأن المنطق الرياضي لا يمانع من أن تكون اللغة - الموضوع محتواة في اللغة الواصفة (وكم يدل على ذلك أصل الكلمة (تارسكي) ففي ترتيب اللغات، يلاحظ أن اللغة من رتبة $n+1$ ، أي عموم حمل [اللغة الواصفة] تحتوي اللغة n ، أي عموم حمل اللغة - الموضوع بما هي كذلك... وهذا الشمول الذي قد يبدو غريباً بالنسبة للعالم اللغوي، ناجم عن كون حقيقة حمل n تثبت بحمل يتدخل فيها المدلول الاجتماعي⁽³²⁾. لكن كيف يمكن بناء نص واصف للقضايا الميتافيزيقية

(28) المرجع السابق، ص. 74.

(29) جوزف ري - دبوف، المتألفة. مقدمات ومعطيات أولية، تر. م. د. ق، (م. س.)، ص. 74.

(30) Voir Morris, C. W., Fondements de la théorie des signes, trad F. Latraverse, in (30) Recherches sémiotiques, RS.SI, vol 21 '2001) N° 1-2-3, pp. 35-58.

(31) A. J. Greimas et J. Courtés, Sémiotique dictionnaire raisonné sur la théorie du langage, P 225.

(32) ينظر جوزف ري - دبوف، المتألفة: مقدمات ومعطيات أولية، تر. م. د. ق، (م. س.)، صص. 69.

وهي التي تنتهك حرمانات "نحو المنطق"، ولا تتوافر على أي أصالة في حل المشكلات الفلسفية العالقة؛ فتغدو مجرد كلام مفتقر للمعنى وللقيمة في نظر كارناب الذي حاول أن يحدد الأوضاع المناسبة للتعبيرات اللغوية داخل إطار الهرم الاستدلالي؟ ولا سبيل لعزل الميتافيزيقا إلا بالتحليل المنطقي للغة؛ حيث يغدو الخطاب الفلسفي مجرد نشاط ليس إلا. وهكذا يغدو النص الواصف نشاطا يستمولوجيا وعملا نقديا بالمفهوم الكانطي للنقد.

ولما كان اللسان نسقا سيميائيا محايثا ومغلقا وقائما على شرط المواضعة فإن هذه الخصائص لم تؤهله لأن يتوافر على قدرة حجاجية وبرهانية في آن واحد لتقديم مسوغات قوية على متانة براهينه وحججه؛ وعليه كان لراما البحث عن لغة نسقية خالية من التناقض ومحددة من الغموض والعموميات. إن هذه اللغة استطاع كل من المنطق والرياضيات بناءها، وبقيت عصية على اللغات الطبيعية؛ ولذلك كانت العلوم - ولا سيما تلك الرغبة في توحيدها التي كان أبدتها سيميائيات موريس⁽³³⁾ والوضعية المنطقية (حلقة فيينا) - في ميسر الحاجة إلى لغة ثانية تتكلم عن اللغة الأولى حسب تارسكي؛ إذ تدعى اللغة الأولى اللغة - الموضوع واللغة الثانية هي اللغة الواصفة التي يمكن أن تصطنع ألفاظ اللغة الأولى على شرط أن تتمتع اللغة الواصفة بالغنى.

وعليه فكل الجمل المفتقرة للمعنى لا مكان لها في الخطاب المنطقي السيميائي الذي يرى أن تطوير الفلسفة لا يتأتى بتكديس القضايا الفلسفية التي تتوافر على مقدمات وتاليا على نتائج وإثباتات كما يرى فريدريك وايزمان، بل بتغيير الصورة الذهنية تغييرا جذريا وكبدا حتى تنبثق أسئلة تتسم بالاختصار والدقة والوضوح، وتقبل الاندماج في إطار الصورة أو لمعاينة التجريبية. إن الأسئلة التي لها معنى لا تقبل كلاما لا يحتمل قيمة. لكون القضايا إما أن تكون صورية مثل الرياضيات بوصفها أنموذجا للغة الاصطناعية وإما أن تكون واقعية؛ بمعنى أنها قابلة لأن تخصص للتصديق التجريبي الذي لا يكون ضروري الحدوث، وإما يتوافر على إمكانات التصديق وإلا كان معنى العبارات أو القضايا محال التحقيق،

Voir Morris, C. W., Fondements de la théorie des signes, trad. F. Latraverse, , in (33) Recherches sémiotiques, R.S.SI, vol. 21 (2001) N° 1-2-3, pp. 68-72.

وأي قضية - وإن حملت معنى عاطفيا مثلا - تخرج عن هذا الإطار لا تعد في نظر الوضعية المنطقية قضية أصلا. وهكذا فإن الأنساق السيميائية لدالة - من هذا المنظور لا ترقى لأن تكون نصا واصفا ما لم تحقق أحد هذين الشرطين.

رأى بعض المناطق الوضعيين بأن اللغات الطبيعية قاصرة لكونها متتاليات كلامية خالية من المعنى حتى وإن استجابت لمنطقها النحوي على غرار ما أشار إليه سيبويه في باب استقامة الكلام وإحالاته. فهناك قسم من الكلام مستقيم من الناحية النحوية ولكنه محال من الناحية الدلالية. ومن هنا ارتبط معيار المعنى بمبدأ التصديق الذي يعود إلى "الفرع الشكي" الذي تضمنه كتاب "بحث في الفهم الإنساني"؛ حيث رُوع به هيوم طمأنينة الخطاب الفلسفي في القرن الثامن عشر؛ ولا سيما أنه طالب برمي التراث الفلسفي المليء بالتضليل والوهم إلى جحيم النار لتخلص العقول منه، وترتب عن هذا الاعتقاد الانصراف إلى فحص مناهج العلوم وقضاياها ونتائجها حتى يتسنى لنا مقارنة موضوع المعرفة على أسس سليمة سواء أكانت ذات طبيعة صورية أم تجريبية، ومن ثم استكشاف بطلان كثير من الدعاوى الميتافيزيقية.

لقد أسلمت المعارف الصورية الباحثين إلى صوغ مفهوم "الصدق الصوري" بناء على الأنموذجين الرياضي والمنطقي في مقابل "الصدق الواقعي" على أساس الأنموذج التجريبي. وعليه فإن معنى العبارة وصدقها لا يتأتى خارج مبدأ التصديق (التحقيق)؛ ولكن طدب اليقين في التصديق يظل غاية عصية على الإدراك؛ لأنه يمكن التماس عدد غير محدود من الأدلة المستخلصة من الاحتمالات على صدق العبارات مع إمكانية الحصول على نتيجة سلبية وإن كان ذلك أمرا يبدو نادر الحصول؛ ولهذا تطلق الوضعية المنطقية مفهوم الفرص على صعوبة تصديق العبارات تصديقا تاما كما يرى كارناب، وهو ما حظي باهتمام بورس كذلك.

فإذ كان بورس انتهى إلى الإقرار بالدلالات المفتوحة (السيميوزيس) فإن الإقرار بوجود التصديق التام يفضي إلى الانفتاح البهوي لحدود القضايا الذي يجد فيها التحليل المنطقي فسحة كبيرة تتيحها له حالة النقصان واللاتعيين التي تتصف بها الوقائع التجريبية المفتقرة إلى مزية اليقين، كما أن التسليم بحقيقة الفرض تسليم بالنسبية والتقريب والاحتمال وتذك مضمغة تتخلق منها خلايا الخطاب

الفلسفي المعاصر الذي لا يكاد يخلو من روح أفلاطونية.

إن الحلم بلغة منطقية حالية لم تفض إلى تلك الغايات التي كان ينشدها الوضعيون في الفتك بلغة الميتافيزيقا المريضة حد اليأس من برئها، ولكن لم يحالفهم النجاح إلا قليلا على الرغم من الجهود المضنية التي بذلها راسل وفيتجنشتاين وكارناب في تطهير اللغة ومحاولة كنس كل ما علق بها من أوهام وترهات سرعان ما تسللت فيروساتها إلى "جسد العلم" ذاته. ولقد طاول نقد كارناب لمفهوم العدم لدى هيدجر بوصفه لغة ميتافيزيقية تتضمن فروض حاطة أو استشهادات انفعالية فعباراتها خالية من المعنى؛ إذ حرص كل الحرص على تعويضها بالتركيب المنطقي للغة العلم.

وعلى العكس مما ذهب إليه المناطقة الوضعيون فإن كلا من غريماس وكورتيس يعتقدان بأن السيميائيات تتجاوز هذا الإطار الذي وضعت فيه اللغة الواصفة. (إن اللغات الطبيعية قادرة ليس فحسب للحديث عن نفسها، بل للحديث - أيضا - عن سيميائيات أخرى كالرسم والموسيقى... إلخ. إذ نلاحظ في هذه الحالة بأن بعض الجوانب داخل اللغات الطبيعية يجب اعتبارها كدغات واصفة، أو على الأرجح كسيميائيات واصفة قياسا للسيميائيات التي نتحدث عنها. إن مشكلة اللغات الواصفة غير العنمية تطرح إذن على السيميائيات موضوع تشكيل لغة وصفة علمية)⁽³⁴⁾. وهذا المطلب مشروع من الوجهة السيميائية التي تقدم نفسها على أنها علم العلم.

انكب فلاسفة التحليل على دراسة اللغة من منظور فلسفي ينطلق من ضرورة استعمال لغة اصطلاحية جديدة تكون قواعدها واضحة ومحددة أكثر مما هي عليه قواعد اللغة الطبيعية، وهم في ذلك يتمثلون اللغة الواصفة التي بصطنعها العلم الحديث، ويسعون إلى بيان مورفولوجية اللغات الاصطناعية وتركيبها ودلالاتها⁽³⁵⁾، فأصبحت المشكلات الفلسفية تتوهم في اللغة الواصفة منهجا لحل جملة من هذه المشكلات. ينتقد لوتمان⁽³⁶⁾ Lautman اعتقاد منطقة حلقة فيينا بأن الدراسة

Ibid, I/ 226.

(34)

Voir J. Courtès, Analyse sémiotique du discours, éd Hachette, Paris, 1991, p. 10

(35)

Voir Jean Petitot-Cocorda, Morphogenèse du sens, I, Préface de Rene Thom, Paris, éd Puf, 1985, p. 58.

(36)

الشكلية للغة العلمية ينبغي أن تكون الموضوع الوحيد لفلسفة العلوم. وهو مسعى من الصعوبة بمكان قبوله من قبل الفلاسفة الذين يطمحون إلى ربط المسطر بالواقع. ولهذا اصطنعت مهاج المنطق الرمزي وأدبيات التحليل اللغوي وسيلة لاستكشاف فشل الإنسان وعجزه عن تقديم عبارات واضحة الدلالة لما يدركه؛ وعليه فليذهب تراث الميتافيزيقا المليء بالأوهام إلى الجحيم بما في ذلك العلم الذي أصابته شقوة الميتافيزيقا كما كان يذهب إلى ذلك هيوم في نزعته الشكية التي لم تثق في قدرة العلامة على التمثل.

والواقع أن فلاسفة التحليل لم يكونوا على رأي واحد في هذه المسألة، بل ذهب بعضهم إلى أنه بإمكاننا الانطلاق من اللغة الطبيعية لتقديم تحليل علمي دقيق للمسألة الفلسفية؛ وهذا التحليل يسعى إلى تفكيك المركبات إلى مكوناتها البسيطة؛ ومن هنا نكون ملزمين حينئذ بعد عملية التقويض الباني بإعادة صوغ التعبير اللغوي؛ وذلك بحذف ما لا يتلاءم مع طبيعة الدقة المتوخاة. تعلمت فلسفة⁽³⁷⁾ كارل كروس Karl Kraus وفيتجنشتاين الحكمة الآتية: "اعتنوا باللغة" أما ماعداها من سائر الأشياء الأخرى فهي تحقق انتظامها الداخلي، وتعتني بنفسها. فإذا كانت اللغة على الدرجة من الهشاشة لأن نمنحها رعايتنا الخاصة وعنايتنا الفائقة. هل يمكن بعد ذلك أن نثق في قدرتها على أن تقدم لنا خطاب الحقيقة، وأن تهينا ما استهم من "المعنى" وما استغلق من رموزها وألحاظها؟!

وعلى الرغم من أن فيتجنشتاين يحيب على مسألة ثقتنا في اللغة بطريقة الضد وفق السؤال الآتي: "ولماذا لا نثق في اللغة؟" وهل اللغة التي ندعي بأنها نحسن الإصغاء إليها والتحكم فيها، وتنقاد لنا انقيادا هي لغة غيرنا أما لغتنا فهي تفعل بنا الأفاعيل العجيبة. وهب أننا سلما بهذه الدعوى فهل نطمع في بناء لغة واصفة للغة اعترفنا للتو بأننا منقادون إليها دون مسافات تسمح لنا بوصفها؟ أليس رأي جاك لاكان على درجة غير دنيا من الصواب حينما صدع بقوله ألا وجود للغة واصفة⁽³⁸⁾؟! وأن الخطاب هو خطاب الآخر الأكبر. فاللغة هي لتي تمتلك

Jacques Bouveresse, *La parole malheureuse, De la l'alchimie linguistique à la grammaire* (37) philosophique, Paris, éd. Minuit, 1971, p. 19.

Voir M. Arrivé, *Linguistique et psychanalyse, Freud, Saussure, Hjelmslev, Lacan et les autres*, Paris, éd. Méridiens/Kuncksieck, 1987, pp. 144-166.

سلطة الكلام وأن الذات لا تصير متكلمة إلا إذا أحدثت طرائق اتصال مع اللغة. ومن هنا وجب التمييز بين اللسان الواصف والدغة الواصفة والخطاب الواصف بناء على الأسس الإستمولوجية التي وضعتها لسانيات دو سومير.

أكد كارناب ذو النزعة الأمبريقية المجردة من فكرة التعالي بأن الخطاب الميتافيزيقي عبارة عن جملة من القضايا الزائفة التي سيتمك بها مبدأ التصديق؛ لأنه يعد ركيزة تفكير الوضعية المنطقية. فإذا كانت اللغة نسق سيميائيًا خاصًا للابنية النحوية حسب ما يقتضيه كل نظام لغوي فإن هذه العلامات لا تفصل عن المعاني التي تؤدبها. فكيف يمكن الوصول إلى التمييز داخل هذا النسق السيميائي بين العلامات الزائفة والعلامات الدالة؟ هل الاستعمال الدارج لها عامل من عوامل التضليل حتى وإن هي رعت قواعد التركيب التي تجعل منها جملاً مستقيمة نحويًا؟ بما أن وحدة العالم ترعى المطابقة النهائية للأنساق التصورية ذات البنيات المختلفة فإن كارناب يتعامل مع الإجراء المنطقي والرياضي على أنه مواصفات لغوية. منها لغة البدء لشكلي (لغة منطق راسل) ولغة البناء الخيالي واللغة الواقعية⁽³⁹⁾.

في الواقع إننا نلغي التيار المنطقي اللغوي ينطلق من مصادرات أولية فحواها أن الميتافيزيقا تتألف من جمل لا معنى لها. ولكن لميتافيزيقا أضحت ضرباً من "التعالي نحو الآخر" أو هكذا يؤولها ليفانيس. كما كانت تنظر إليها الفلسفة النقدية على أن وظيفتها إبداع المعارف المرتبطة بالعقل وحده وبشروطه العملية، ولا علاقة لها بالتجربة؛ لأن العقل ليس في مقدوره - حسب كانط - معرفة الأشياء في ذاتها (Noumènes)، وعلى الرغم من أن الميتافيزيقا لا ترفى - في نظر الفلسفة النقدية - إلى المنزلة التي تجعلها تؤلف معرفة بحصر المعنى. وليس أدل على ذلك من كتاب المقدمات الذي ألفه كانط لينتهي إلى عدم إمكانية قيام أي ميتافيزيقا مستقبلية التي تطرح نفسها على أنها علم. وهذا يجعلنا نتساءل عن العلاقة بين السيميائيات بوصفها علم العلم والميتافيزيقا بوصفها ما قبل العلم كما يصفها لويس ألتوسير. إننا هنا لا نتحدث عن تاريخ مفهوم الميتافيزيقا إلا ما اتصل بالنقد السيميائي لها من منظور الفلسفة التحليلية.

(39) سامي أدهم، المعتقد المهيمن، المحرك والدمية، ص 58.

ينصرف زيف القضايا إلى مدلول العلامات الذي رأت فيه الفلسفة التقويمية مسكنا لبقايا الميتافيزيقا في لسانيات دو سومبير؛ لهذا قام جاك دريدا بنقد المتصورات السيميولوجية التي تنبأت بميلادها "محاضرات في اللسانيات العامة"، ولكن هذا المدلول إن طرحناه حسب المنظور السومبيري مرتبط بمبدأ المواضع الذي يفسر الطبيعة الاعتبارية التي هي قوام كل نسق سيميائي لساني. فهل يكمن الخلل في المصادر الاجتماعية القبلية التي تشكل نسق اللغات الطبيعية؟ فما هي التصورات العملية التي يمكن أن يطرحها علينا رودلف كارناب حتى يتسنى لنا بناء نص واصف خال من زيف القضايا التي يقدمها؟!

يطرح كارناب نفسه هذه المسألة (كيف يمكن تفسير أصول المفاهيم الزائفة؟ ألا تصاغ الكلمات في اللغة لمجرد التعبير عن شيء أو آخر، الأمر الذي يستلزم أنها تملك معاني منذ لحظة استعمالها الأولي؟ وإن كان الأمر على هذه الشاكلة، فكيف انطوت اللغات التقليدية على كلمات لا معنى لها؟)⁽⁴⁰⁾. لا ينكر كارناب واقع المعنى وتاريخه في النسق السيميائي العام؛ لأن التحليل المنطقي للغة ينبغي أن يقف على تاريخ تغير معاني الكلمات ضمن مبحث الدلالات التاريخية حتى يتسنى له معرفة ما إذا كانت الجمل والقضايا المركبة خالية من المعنى.

كل ذلك جعل فلاسفة أكسفورد يقولون: "لا تسأل عن المعنى، بل أسأل عن الاستعمال". فكثيرا ما صححت فلسفة التحليل أخطاء جسيمة في مقاربة الظواهر الفلسفية. وإن كان نيوراث أحد أعضاء حلقة فيينا يرى بأن كتاب "رسائل منطقية وفلسفية" تغشى لغته هالة صرفية⁽⁴¹⁾. وهذا ينطبق مع الانطباع الذي حصل لكارناب الذي التقى بفتجنشتاين عام 1927 الذي كان يتعامل مع قضايا البشر ومشكلاتهم تعامل الفنانين، بل الأنبياء. ولا غرو أن يستولي الحس الصوفي على فلسفته المنطقية، ونظريته للغة والعالم

(40) رادولف كارناب، حذف الميتافيزيقا عبر التحليل المنطقي للغة، ضمن كيف يرى الرضعيون الفلسفة؟ تر. وتق. نجيب الحصادي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ودار الآفاق الجديدة، ليبيا، ط. 1، 1994، ص. 142.

(41) أي. جي مور، تاريخ حركة الوضعية المنطقية، ضمن كيف يرى الرضعيون الفلسفة؟ تر. وتق. نجيب الحصادي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ودار الآفاق الجديدة، ليبيا، ط. 1، 1994، ص. 25.

فأني للوضعية المنطقية أن تدعى بأنها قادرة على بناء نص فلسفي واصف تتحرر فيه من الميتافيزيقا والذاتية وتتخلص فيه من سلطة الاستعارة التي تستحوذ على مجاميع البحث الأنطولوجي في التفكير الفلسفي قديما وحديثا؟ إن الميتافيزيقا ليست شرا مستطيرا حتى يتوجس منها خيفة، بل ينبغي تحويلها إلى حقل علمي كما اصطنع ذلك بورس، واعترض سامي أدهم⁽⁴²⁾ على رأي كارناب في هذا المجال. ولهذا كان المشروع السيميائي لموريس على ما يعتوره من هنات يندرج في التركيب بين الأبعاد السلوكية والاجتماعية والأسس المنطقية البورسية والوضعية المنطقية. إذا كان هذا هو ديدن المنطق السيميائي الواصف فما خطب العلامة؟ وما علاقتها بالمعنى؟

(42) ما بعد الفلسفة، الكاوس، التشظي، الشيطان الأعظم، دار كتابات، لبنان، ط. 1، 1996، ص.



الدلالات المفتوحة

هل المعنى هو السند الوحيد للعلامة أم أن وظيفة العلامة وقاعليتها هي السبيل الوحيد الذي يقودنا إلى إدراك المعنى وفهمه؟ هل استطاع التفكير الفلسفي المعاصر أن يبدع علامات جديدة، ويحررها من جبروت الحضور أم أنه غير فقط طرائق التأويل قصد الوصول إلى جلال المعنى؟ إن العلامة عندما تواجه سؤال الحقيقة في مجتمع ما بعد الحداثة يجب أن تتخلى عن إرثها العبودي القديم الذي كان يسجنها في أسوار اللاهوت والإيديولوجية. وحتى إذا كان مفروضا عليها أن تظل كذلك فمن الواجب أن تقاوم على وضعها اليأس، وأن تطالب باختيار أسرها. إن على العلامة أن تندرج في منطق الحوار، وتتقبل إكراهات التواصل، وأن تتمسك بحقها في إبداع قيمها، واختيار «المعنى المفتوح». فأنتى لعالم الإنسان الذي وضعت الهوسورلية بين قوسين، وأسلمته البنية إلى الموت، وجعلته البورسية مجرد علامة أن يدعي بعد اليوم بأنه مصدر الحقيقة ومركز العالم؟ إن العلامة بهذا التصور صارت حدثا تاريخيا منسيا ومفقوتا مثل الميتافيزيقا سرعان ما جرفت وحدها الكوارث، وتحولت إلى حالة من التشظي. فتخلت عن زهوها القديم بأنها تنتمي إلى مجد الأنساق الكبرى، وإن كانت سعيدة بأنها أمة لتلك المفاهيم الميتافيزيقية مثل الصورة والهيولي والكلية والجوهر الفرد والعقل الفعال والأفكار والوحدة والوجود والتناغم والانسجام والتعالي والمثلول. إن العلامة استيقظت على لغة جديدة أدهشها سؤال الحقيقة من جديد في ظل ثقافة الاختلاف والتشظي والمعلومات السيارة بلا حدود والعقل الأداتي. إن هذا الوضع قد أخرجها من سباتها العميق، وأيقظ فيها حيرة بالغة الخطورة.

صدر للمؤلف أيضاً:

السيمائيات الواصفة
المنطق السيميائي وجبر العلامات



المركز الثقافي العربي
Le Centre Cultural Arabe



بيروت: الحمراء، شارع جان دارك، ص. ب. 113-5158
الدار البيضاء: 42 الشارع الملكي (الأحياس) ص. ب. 4006 (سيدنا)

منشورات الاختلاف

22 شارع الأخوة مسلم، الجزائر العاصمة
هاتف 719063 (231-21) - فاكس 712791 (231-21)
البريد الإلكتروني: revueikhtlef@hotmail.com

ISBN 9953-29-664-2



9 799953 296646

جميع كتبنا متوفرة على
شبكة الإنترنت
في

نيل وفورات. كوم
www.neelwafurat.com

الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers
www.asp.com.lb



ص. ب. 13-5574 شوران 2050-1102 بيروت - لبنان
هاتف 785107/8 (+961-1) فاكس 786230 (+961-1)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

قام بمسح هذا الكتاب ضوئيا

مُحَمَّد بَكَّاي

حق المعرفة كحق الحياة

Mohammed Bekkaye

تم اتمام هذا العمل:

يوم الاثنين: 18 يناير - كانون الثاني 2010.

22.10 مساءً بلوهيت الجزائر.